# كتابُ الردة!

محمد عبد اللطيف

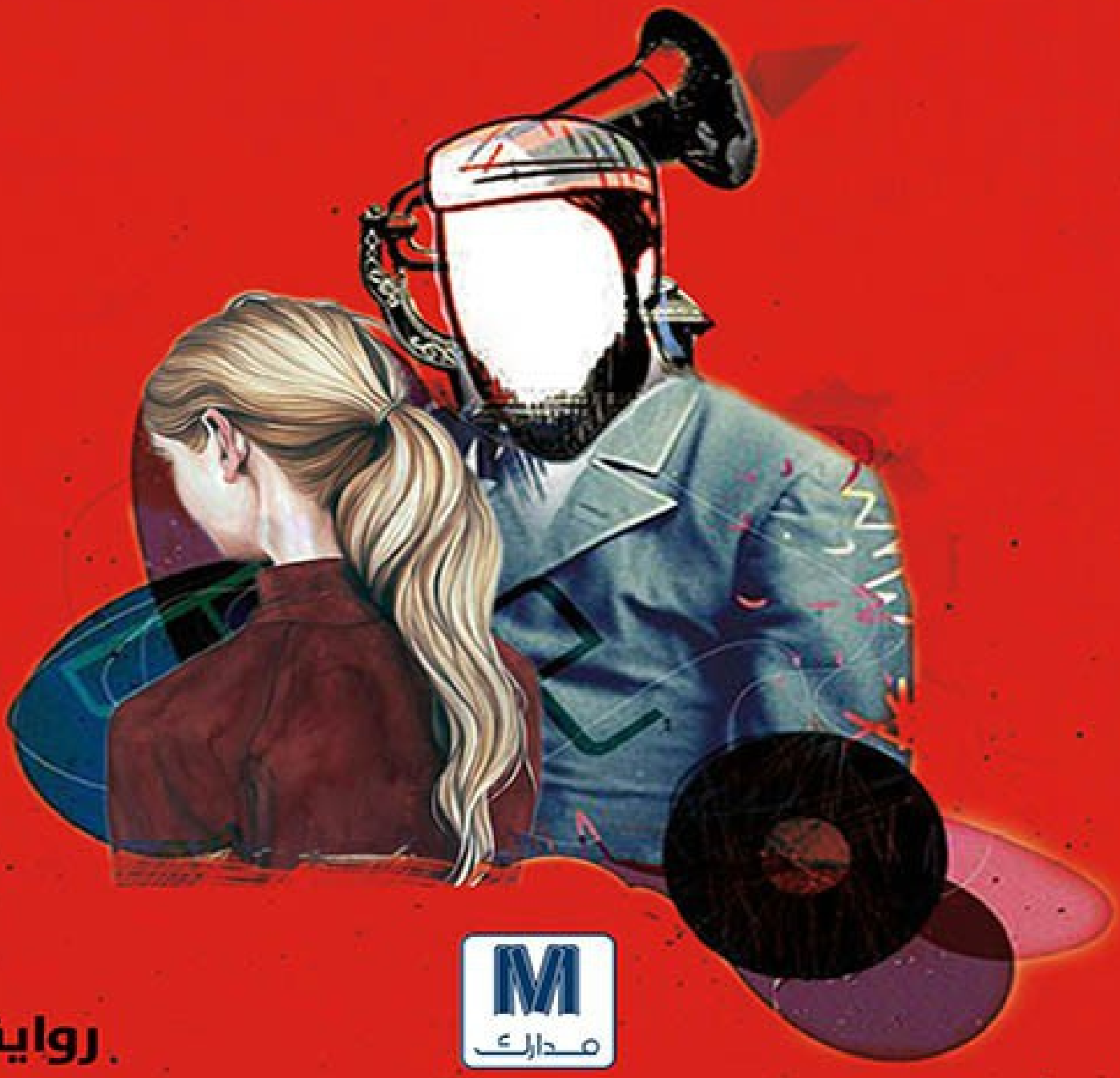



مدارك

رواية

# كتــاب الـردة !

الكتاب: كـتــاب الــردة

المؤلف : مـحـمـد عـبـد الـلـطـيـف

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: فبراير 2018

Madarek مـدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

7917 شارع التخصصي ، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

محمد عبد اللطيف

# كتابُ الردة!

# الفهرس


| | |
|---|---|
| إهداء | 7 |
| معجم «كتاب الردة» | 9 |
| استهلال | 11 |
| مقام التّيه | 13 |
| ومضة في ليل التيه! | 31 |
| نور في منتصف النفق! | 47 |
| مقام الفقد! | 63 |
| حلقات العزلة! | 81 |
| وكر الشكوى! | 98 |
| انعدام الوزن! | 119 |
| قطع الصِّلَات! | 138 |
| إقلاع! | 158 |
| عناق أخير! | 176 |
| وطن موعود! | 192 |

تيزيريت ما زالت تنتظر! 209

حقيقتي.. وأوهام البدو! 225

وصولٌ مؤثّل! 247

**إهداء**

**إليك في سعادتك الأبدية،إلى**

**المكي الذي اختبر الحقيقة،إليك**

**يا إبراهيم الأمين،رحمك الله يا**

**صديقي...**

## معجم «كتاب الردة»

| | |
|---|---|
| ونِّي: | كلمة حميمة تعبر عن حب قائلها لك. |
| ورْخَسْت: | كلمة لئيمة تعني «بئس» وهي عكس (وخيرت) التي تعني أكرِمْ به. |
| آمْغَارْ | شيخ القبيلة أو أميرها في عرف الطوارق، وهي من (تَمْغَرْ) أي السلطنة أو المشيخة. |
| المطاوعة | تطلق في السعودية على رجال الدين الملتزمين. |
| التامورتْ | كلمة صنهاجية تعني المستنقع المائي الموسمي. |
| الزّوايا | في موريتانيا، اجتماعياً: طبقة القبائل المتعلمة على الطريقة التقليدية؛ وتاريخياً: هي «التّكيات» الصوفية المنعزلة. |
| لعْرَبْ | طبقة القبائل التقليدية المحاربة في موريتانيا. |
| طالبْ | أحد أفراد قبائل الزوايا. |
| أزناكي | كلمة تاريخية تدل على نخبة القبائل الصنهاجية؛ تمّ تحريف مدلولها ليصبح بمعنى الشخص الذي لا أصل له! |
| حَيَّة | هم الأفراد والأسر التابعة للنخبة بشكل دوني. |

## استهلال

كلّ ما يرتدّ إليـك يكون

أقوى

وكل ما يرتد عنـك يكون أسرع

... أنت لست الثابت الوحيد لتؤكد ذلك!

## (1)
## مقام التّيه

.. أصبحتُ فيك كما أمسيتُ مكتئبا

ولم أقل جزعاً: يا أزمة انفرجي!

ابن الفارض

طافياً على غيمة التبغ منذ ثلاثة أيام، لم أغادر هذه الشقّة.. بل لم أغادر هذه الغرفة وحمّامها اللصيق؛ أتحسّس الضّوء يتسلّل ملولاً من إطار المكيّف، يصوّر شغب الشّارع على سقف الغرفة الأبيض، بلا موهبة، وببلادة، تبدو صوره المسروقة خلسة خالية من الحياة.

الملل هو حالة لطيفة قياساً إلى الفراغ الذي أسبح فيه، فأنا محاصر بحالة من التيه لا تحمل معنى آخر.

لا يشكّل ضوء النهار حداً عن ظلمة الليل، عدا الساعات التي تدخلُ فيها مينا، محدثة شرخاً في قبّة الصمت، لوناً في عتمة الوقت، وتوقفاً لقافلة الثواني.

لا أشعر بألم جسدي، لا أعاني حرماناً من الغذاء، لا أشعر بحرارة الجو، أنا في منطقة انعدام الجاذبية.

كسجين، أبني أهراماً من علب التّبغ الورقية، أجعل السّجائر عبيداً، أتخيّلهم يشدّون الصّخرة تلو الأخرى، وأتخيّل نفسي فرعوناً، أحرق من أتوسّم فيه بادرة تمرّد، أمصّ عقبه، أصغي إلى صوت احتراق التّبغ داخله، وحين تقترب ناره من الخَبْوِ، أطحنه في منفضتي... جهنّم الخامدة، كي تكون لي الكلمة الأخيرة.

ما أفزع الحياة خِلْواً من أحد تحاول طحنه! الأعداء هم من يمنحون الحياة عنفواناً، أما الأحبة... فالبيداء دونهم، الأحبة أولئك اللوّامون، العاتبون على الله -في خفاء- من أجل أحبابهم، كم أشتهي الآن أن أفرّ من أطيافهم البعيدة.

لو كانت لديّ رغبة في العودة إليهم لانتهى الأمر، لكنني أجد الرغبة فقط في معانقة بعضهم؛ لو كانت لدي المقدرة على نسيان ما أحدثوه في نفسي لانتهى الأمر أيضاً، لتشكّلتُ من جديد وفق

قوانين أخرى، لامتلكت فرصةً ثانية.

لهذا أشعر بالتيه؛ لا أحدَ تهتم لأمره حدّ الالتصاق، لا أحد تودّ البقاء بجانبه، ولا وجهةَ تنوي الإقلاع إليها.

ما أفزع الإيمان بالهباء، وأخوفَ البقاء دون وجهة، ما أشدّ هذه الظُّلمة الحالية، وأحلك تلك القديمة، إنّها سخرية كبرى أن أُستغني عمّا أَلِفته دون أن أمسك بشيء.

ما يشعرني ببعض الهدوء هو فزعي الآن مما كنتُ ممسكاً به، بعض العزاء في تخلصي من حزمة الديناميت تلك، أحزمتي العقلية المفخخة، إن ذلك هو إنجازي الوحيد، إنني تخلصت منها... لأشعر ببعض الغرابة حين أطالع الآن حجم التوجّس والكراهية والتنابز والاحتراب في تلك القبيلة التي غادرتها، فلو عدتُ ما كنت لأحدّد طريقاً يَبَساً أمشي عليه، فالطريق واضح لهم هم فحسب، وما علي هو أن أسلكه فقط، و ماكنت لأملك الخيار، إما أن أكون مع أو ضد، لن يكون ثَمَّ مكانٌ لأحتفظ بروحي صافية معلّقة بالله وحده، فالله معهم، مع كل واحد منهم على حدة، وهم من يكلمونه.

لن يشعرني هذا الحال الراهن بالهناء، لكنه يشعرني باقترابي من الحقيقة، أشعر بنَفَسها، وأشعر أن هذا هو طريقها الذي سلكه الباحثون قبلي، فأول الطريق هو أن تشعر بفراغ النفس، خلوّها من كل أثر سابق، حتى تصبح صافية ومؤلمة كعين الشمس؛ هذا صعب التحقق، صعب الحدوث، لكن مستوى أقل في ظل هذه التعاسة قد تحقق، وتلك سخرية عظيمة تبعث على بعض العزاء، وهي أنني رغم سنوات التربية الصارمة، ومئات الكتب التراثية التي التهمتها، ورفقة أعتى الملتزمين، وتلقّي التربية الطائفية على أيديهم، رغم كل ذلك أقف الآن على مسافة واحدة من الجميع، أدرك حجم الضرر الذي يلحقونه ببعض، لكن مشاهدة حربهم لن تقدّم لي الكثير.

أوه؛ حان وقت مطالعة الرّسوم المتحرّكة، من جديد أتابع رسوم الضّوء الباهتة، تتحرك دون صوت على سقف الغرفة، كلما اقترب اللّيل بدت أكثر وضوحاً، لكأنّما أصبحت ملوّنة، أو أنّ الظّلمة ساعدت أشعة الشّمس عديمة الموهبة في تلوين سرقتها.

... ثم تطبق الغرفة ظلاماً، يتوقف مسرح الضوء، أغيب في سكرة التّبغ والمزاج النيكوتيني، أعود من ذلك العالم دون إحساس، ثم يسرقني الوسن.

أستفيق، في اليوم الرابع حسب السّاعة المتعبة، لم أعد حفياً بالوقت، لا يسعدني انصرام الدّقائق أو جمودها، تمر كأفعى أليفة، فألتفت إلى الماضي!

منذ أسابيع وبغداد تنصهر تحت نيران طائرات الـ B52، وزحفِ أحذية اليانكي الغليظة، وأنا تركتُ متابعة كلّ ذلك، أعلم أنها ستقع، فهي آيلة للسّقوط منذ عقدٍ من الزمان.

لا يوجد تلفاز في غرفتي، وهذا محفّز، فالعالم العربي الذي يحترق الآن، انتهى بالنسبة إليّ منذ ألف وأربع مائة عام، منذ صفّين، منذ وقفت القبائل حيرى بين أمرين، منذ وأد العرب ذلك الأمر الوليد، واستبدلوه بآخر قديم؛ كانت تلك الهزيمة الكبرى، فبعد ذلك تحوّل الناس إلى فرق ومذاهب،

وبعد ذلك أصبح على النصوص أن تكون بكماء دون ترجمان، أعجمية دون إعراب، مؤوّلة حسب الزمان، جامدة حسب المكان.

بغداد البئيسة أدمنت الموت، فهي مدينة أسّستها الحرب، وشبّت على الدماء، منذ كانت أرضاً هباء تتصارع فوقها ممالك الغزاة، حتى صارت مدينة غولية تبتلع القرى، كم مرّة سقطت؟ لا عجب إذن، فلتسقط بغداد الأخيرة.

لكنّ ما يذكّرني بها ارتباطها بتقلّبات حياتي، حين بدأت حرب الخليج الثّانية قبل 12 عاماً اكتشفت عمق التّوكّل على الله!

لم أكن أعلم -آنذاك- أنّ طاقة التّديّن يمكنها الصّمود أمام صواريخ سكود ورعب السلاح الكيمياوي، أحرى أن تبعث فيّ شخصياً حرارة الانتماء لبلد لا أنتمي إليه قانوناً... أحرى أن تشعرني بمرارة الصّبر على ولاء الابن غير الشّرعي لعائلته اللامبالية!

لقد وضعتْ حداً فاصلاً بين حياتين، بالنسبة إليّ، من حياة ملاعب كرة القدم الرملية في حي السيح بالمدينة المنوّرة، والغدُوّ والرواح من المدارس الأساسية، ومتابعة البطل الكرتوني «جونكر» و مسلسلات الرسوم المتحركة؛ إلى حياة الالتزام، والإحساس بالعالم، بالأمة، والفتوّة، والمعاني الملموسة لِما كنت أقرؤه طفلاً في القرآن.

وكأي حرب كبرى كانت تلك الحرب في منطقتنا كونية، زلزلت الناس، وأعادت تشكيل عقولهم وأرواحهم؛ كنتُ أحد أولئك، بعض من تأثر بعمق في تلك الزلزلة، وكانت الحركة أو الدعوة السلفية أيضاً مثلي، تلك التي كانت كتلة واحدة، غدت الآن عرضة للتشظي، حين وقف طلاب العلم على طرفي نقيض من مسألة تدخّل القوات الكافرة في أرض جزيرة العرب التي أمر الرسول بتطهيرها من كل الأديان عدا الإسلام، ومسألة الاستعانة بالكافر على حرب المسلم.

وقف كل المهتمين بالنصوص مثلي على نقطة كسر حادة، إما أن نجد حلاً لتلك النصوص، فهماً آخر، أو أن نستغيث بفكرة أصيلة تخرجنا من هذا المأزق الوجودي.

ولأنني نشأت في بيت متديّن، كنتُ مُرْجَأً كمجاهد، ومنذوراً كشهيد، كل ذلك بشكل من الأشكال كان ينبغي أن يقع!

في تلك الأيام ظهرت حركة دينية في المدينة المنورة، قدّمت حلاً ونهجاً علمياً، أتاح لبعض الملتزمين الخروج من هذا المأزق، سرعان ما أصبحت تلك الحركة فرقة بشكل من الأشكال، وسماها بعض خصومها بالجامية نسبة إلى أحد شيوخ الجامعة الإسلامية[1]، وقد كان رجلا نصّياً سلفياً قرّر فكرته تلك جرياً على مذهب فقهي قديم للأوزاعي، وتبيّن لأبي وعمي أن هذا هو رأي أغلب الحنابلة، فكانت صرخة أصيلة في المدينة النبوية كما كنا نسميها، تكرّر صداها من نخل طيبة، حتى مفاوز القصيم، وهضاب نجد، ومنخفضات وأغوار تهامة، وأعادت الناس إلى الأصول في اللحمة مع ولي الأمر.

كان أبي الموريتاني وعمي السعودي ضمن تلك الموجة، فهما لا يُكذّبان النصوص، وهما يدوران مع الإمام.

هنا انشقت الأمة الخَلية للمرة الألف، وظهرت فئة جديدة منبوذة رسمياً تدعو إلى غير ذلك، ترى أن الاستعانة بالأمريكان ضد العراق كفر بواح.

كان هذا الحوار يدور في أوساط المتدينين السعوديين، لكنّنا وللسخرية في عائلتنا الصغيرة كنا ملَكِيين أكثر من الملك، لأننا كنا نؤمن بالبيعة والأثرة؛ ومن هنا أيضاً رُسمت معالم مستقبلي القريب، ذلك المستقبل الذي ازدهر لسنوات، وانحسر كصرخة في واد موات.

وها هي حرب الخليج الثالثة في سنة 2003 تأتي متزامنة مع تفسّخي من الحياة، هروبي من الله القانوني وليس الحقيقي، ذلك الّذي يراجع التّاريخ باستمرار ويعدّل فصوله ليلاً؛ تزامنت مع هروبي منه إلى مينا!

هروبي من عِقد أبي وعمي القطعيِيْن، إلى حقبة مينا البوهيمية، هروبي من التبعية إلى التيه وحيداً، ومن العائلة إلى الوحدة.

إنّها هجرة عكسيّة، من المدينة إلى مكّة، من الإيمان بشيء واحد صلب، إلى الإيمان بالرّيح، والرّعد، وصوت خلخال مينا النّحاسي.

كم من قرشيٍّ عاشق ترك المدينة الموحِّدة إلى مكّة الوثنية؟ كم من هجرة إلى «امرأة» لم تقلب تاريخ مكّة، لم تحدث ضجيجاً، ولم تثمر حبّاً عظيماً كما يجدر بالتّضحية.

أما عائلتي الوثنية! تلك الّتي تعبد أبا هريرة والإمام أحمد ابن حنبل، تكنّ لابن تيميّة تقديساً لا تكنّه لله، فهي تدور مع الحديث حتى تنسى القرآن، تسكر بتفسير السّلف حتى لتنسى جليّ كلام الله، لكأنّما تحمل عائلتي عقدة التصوّف والتشعّر[2] في أزمنة ما، يدفعها شعور دفين بالكفّارة عن إرث الأجداد، حين أتوا في منتصف القرن العشرين عراة من صحراء شنقيط، يدمدمون بأوراد القادرية والشاذلية والتيجانية وأشعار البوصيري.

لا أشتاق كثيراً إليها، باستثناء روح أختي العذبة، وما تبقى من أمتعة أمي رحمها الله؛ باستثناء هذا، فأنا جاد تماماً حين قلت: كم أتمنى أن أفرّ من أطيافهم البعيدة.

حين أحصي ما حصلت عليه من فوائد تبدو ضئيلة على كل مقياس، وحين أحصي خسائري تصعب على الحصر، على الأقل لم أعد الآن أجد السّلام الذي كنت استمرئُه، وأنا أتذكّر أنّ «أكثر أهل الجنة البله»[3]؛ لا أدري هل تلك فائدة أم خسارة بالنسبة إليّ!

لكنه كان عقداً عسليّاً من الإيمان بشيء واحد صلب.. شيء أتخيّله يلبس شماغاً نجديّاً أحمر، مبخّراً معطّراً، طعمه حلو كسكّري القصيم، روحه عذبة كمدّ أهل نجد لكلمة: الـلـــــه يثيبيبك يا شيخ!

أيامَ كنتُ لا يخالجني الشك في شيء مما أقوم به، ولا أميل إلى التمتع بشيء مما يقوم به الآخرون، أو من كنا نسميهم بالمخالفين؛ لقد كنتُ مستكفياً بما أتيح لي، وتلك سعادة قياساً إلى ما أعانيه الآن من حيرة في فهم كل ما يحيط بي، فهم الدين أولاً، ومن ثم السياسة التي تبنى عليه، وفهم طباع الناس، وتلبّس الدين والسياسة بتلك الطباع، قوّة التقاليد في تطويع الأفكار السماوية، ومطالعة الأفكار السماوية لتلك التقاليد تعبث بها في حياد!

رغم أن أغلب ما كان لدي من فهم لتلك الأمور، كان مشوهاً، وخاطئاً في أغلب الأحيان، ورغم أنني لم أستبدله بفهم سوي وواضح للحياة حتى الآن، إلا أنه كان يشع سعادة، ويمنحني هالة من قداسة تنعكس في عينيْ أبي ورفاقي.

كم كنتُ أشعر بعائلتي، وأصدقائي، ومعارفي حتى؛ كلّهم كانوا نسخاً كربونية مما أود، ميولاً واحدة، ورغبة عامة في التوحّد بقيم عامة، إنكار لأي نزعة فردية، جميعنا نحبّ الحكومة بشغف، حكومة التوحيد، حامية الدين؛ جميعنا نقدس السلف، نجعلهم في رتبة أعلى، لا يطالها النقد، ولا ترقى إليها الظنون، جميعنا نؤمن بالله كما أمر ابن حنبل وابن تيمية؛ جميعنا نكره الروافض الشيعة، ونمسي ونصبح ونحن نلعن تلك الفرق التي ماتت من ألف عام كالجهمية والمعتزلة، ونتعوّذ من ذلك المنقلب الذي آلت إليه كتلة هلامية في تاريخنا تسمى الباطنية، كتلة هي إلى الصوفية أقرب، بل هي إلى الشيعة أقرب؛ كما يقول «مشايخُنا» وهي شر محض في النهاية.

كم أحسست بالهناء حين رأى والدي شعراتٍ غضة -كأوّل الطلع- تتدلّى من لحيتي، في سمْتِ طلبة العلم، أطوي الهاجرة إلى الحرم النّبوي الشريف، وأعود قبل منتصف الليل، مع رفقة تتشابه سمْتاً وروحاً، فنحن نتطابق ظاهراً وباطناً؛ إنّه أمر لا يقاس بمعايير السّعادة الأبويّة، فهو فرح لله، وفي الله، كما يقول!

أتخيّل الآن أنّه أحبّني في الله أكثر ممّا أحبّني في الأبوّة، أو أنه أشعرني بذلك الحبّ بندّية، و امتنان.. لله.

أبي الذي حنّكه شيخ سلفي هو وأخاه منذ نشأتهما على يديه، لقد أجاد ذلك الشيخ عمله، قياساً إلى تجربتهما معي، فلم يكن في وسعهما كبت شكي، إلجام حيرتي، طمس تلك الأضواء الباهتة التي تسرّبت من خلل ما يلقنانه لي منذ طفولتي؛ ربّما حالفني الحظ وخانهما، فلقد تفتّحت مداركي في عِقد حفل بالكثير، عِقدي الثاني الذي حمل من المتغيرات ما لم تحمله عقودهما الستة، كان الزمن في طفولتهما ومراهقتهما كسولاً، وكانت لديه حجب وأغطية سميكة، تعزل الناس في كانتونات معرفية، لقد نشأ أبي وأخوه في عصر احتكار المعرفة، واحتكار الإيمان، لكأنما كانا في هرم فرعوني، وكان لكل قوم زمن خاص بهم يقدّم فهمه الخاص للإيمان والتاريخ والحاضر والمستقبل ضمن قاعدة واحدة لا تتبدّل، و كان عصرهما المحلَّي ذلك يثلبُ الحرية، والإرادة، ويقدس التبعية والقطيعية.

ربما لو أتيحت لهما فرصة النشأة في هذا العصر لتغير الكثير، بعد تداعي تلك الحواجز التي تفصل الأزمنة الصغيرة، ربما أصبحا أكثر تفهّماً لحالتي، أو أكثر حنكة في التعامل مع حيرتي.

لكنّهما -صراحة- كانا أمينين في تقبّل ما تُتيحه الأيام في زمانهما، ما كانا ليصبحا شيئاً ذا بال أكثر من كونهما رجلي دين، وهذا شيء رائع بعد أن تبيّنت ما كان معدّاً لهما حسب مسار العائلة!

في الهزيع الأخير من الليل مينا توشوش مع أمّها في الصّالة، تصلني مزع الكلام، أتجاهل تململ الأم، وأصغي لصوت خلخالها الذي تتدلى منه قطع نحاسية تحدث صليلاً محبباً، أضع مرجعاً أحمر في ذهني و أقفل كتاب الرّدة مؤقّتاً.

أمّها، تلك العجوز التي حصلتْ على زوج أخيراً، لا تخفي رغبتها في التقاعد معه، لقد كان إنجازاً رائعاً أن تجد امرأة يائسة مثلها زوجاً سعودياً غنياً، أحرى أن يكون نافذاً؛ إن زواجها السري بقاض في المحكمة الشرعية يعني تأميناً على تجارتها المزدهرة، وهو شبيه بزواج السفاحة ريّا أخت سكينة من شاويش شرطة، أما زواج ذلك الشيخ منها فلا أعلم أي شيء هو بالنسبة إليه.

ربّما يجد في مؤخرتها الناتئة ما يلهب روحه التي سرتْ فيها الغرغرينا بسبب النصوص، والقطع الأرضية، ودهن العود.

لذلك لا يخفى عليّ هوسها بتلك الزيجة التي حصلت في وقتها بدل الضائع، والتي تثير فخرها بشكل لا يخفى على أحد من رواد شقتها الكبيرة.

حين يحضر تعلن حالة الطوارئ، وتتحلّل مظاهر الانفتاح، تختفي روائح التبغ؛ وهذا ما يجعلني مزعجاً بنظر العجوز... إضافة إلى أشياء أخرى.

أصغي إلى مينا تجول في الصالة، وقع حليّها، أساورها الغجرية، أتخيّل ساقها الأسمر بلون البن المحموس، ضارباً موعداً بين السمرة واللون الحنطي، مازجاً طعم الكاراميل اللاسع بهشاشة الفانيليا، ممسكاً بخلخاله الذي يعزف عند كل تحرّك.

لِمَ لمْ أشغفْ بتلك الفتاة؟ لمَ صدمتني فقط! جعلتني معجباً بنمط حياتها، طيبة معشرها، لِمَ لمْ أقع كمغفّل حين الْتقيت بهذه المرأة الفاتنة؟! كان أمراً غير معتاد أن أظل على الحياد فيما يتعلّق بالحب، وكان أمراً مخيباً لي ألّا أعشق بجنون.

ما زلت على انتظاري للعشق، منذ قرأتُ قصة قيس وليلى، ما زلت على وعدي به، قويا كاندفاعة، عميقاً كحقنة، مزلزلاً كرعد أوّل الشتاء.

لا تدخل مينا غالباً إلا كإعصار، تندفع حتى تشعر بأن التيار من حولك مسّه بعض الجنون، وأحياناً نادرة، حين تكون في حالة الركود تجيء وهْناً كقطة متعبة، تسمو بهدوء «سموّ عجاج الموج»، تظهر كهلال لطيف يشبه ظفرها اللّبني الذي ينوء بالكالسيوم والرّغاب البيض، لم أعتد على سؤالها من أين جاءت؟ أو إلى أين تنوي الذهاب؟ فنحن ثنائي منسجم تماماً، تظهر لي شيئاً يشبه الحب متى شاءت، ولا أعتب على عدم إظهاره كلّ حين؛ تمضي إلى المجهول فلا أفكّر فيها، كلّ منا يجد لدى صاحبه جزءاً مما يريد.

لا أعلم حقيقة سبباً آخر لبقائي هنا، أكثر من حاجتي الماسة إلى سكن.. مكان للنوم؛ هكذا بصدق مشربٍ بالأنانية، وإذا أضفتُ مبرّراً سامياً آخر، فهو ولا شكّ التأمل في المصير الحالك؛ أما هي لا أعلم سبباً بارزاً لرغبتها في بقائي سوى التّعلّل بوجود شخص لا تتعامل معه بشكل نفعي.

مينا المرغوبة، مينا التي إن جاءت إلى المدينة المنوّرة تَشهلُ أعين الفتيان، والكهول العابثين، طمعاً ورغباً، مينا التي تعرف بشكل غريزي كلّ ما يمكن أن تستفيده من كل رجل؛ لا شك أنها تعرف على وجه التحديد ما تريده مني، ربما هي تؤجّل كل ذلك إلى حين، لكنّني لست على عجلة من أمري، فأنا مثلها تماماً.. أجد تأجيل الأمور خيراً من البتّ فيها وأسهل.

أضاءتِ الغرفة في خفوت، دبّت الحياة في خلوتي، جلستْ خلف مواعين الشاي الأخضر ككأس شاي منمّق بالمناكير، فشعرتُ بالانتعاش بعد خمول طويل، تزحزحتُ بعد قبلتها التي بادرتني بها، تبسّمتُ في الإضاءة الخافتة، شعرتُ بأمومتها، بأنّها ملاك أسمر، يقدّم إلي المأوى والقبل.

تبسّمتْ بفتنة، فأرسلت غمازتاها إشارة ببدْء الحديث، فأخذتُ زمام المبادرة:

- هل ملّت أمّك احتلال هذه الغرفة؟

- لا عليك، كما تعلم البيت واسع، هي تخشى فقط أن يراك الشيخ.

- أها، سأغادر عند الظّهيرة.

- لا.. لا تفعل، أمّي لا تملك هنا شيئاً هذا بيتي أنا، أنا من أدفع الإيجار، لا لا تفعل ذلك..

- حسناً، سأبقى، لكن لن يطول الأمر.

- عبد الله، أنت تثير غضبي، الشيخ يأتي في أوقات نادرة، وحين يجيء فهو نفسه لا يرغب في رؤية أحد، يمكنك البقاء هنا ولن يدخل هذه الغرفة.

- لكن والدتك تخشى أن يراني، إنها تغار عليه مني هههه

تبسمتْ في إحراج وأكملتْ: إنّ والدتي تهذي بشأنك، من الأفضل عدم تصديق ما تقول، وهي تشبّه عليك بآخر.

- ضحكتُ في فرح بالحوار وكسر الرتابة.

عرفتُ فحوى ما قالته أخيراً، وكنت على يقين منه، لكن لا يهم فالأمر لن يطول على أي حال.

تُدلّلُ مينا مواعين الشّاي الأخضر، وتنطبق الأرجاء أذاناً، «الله أكبر» تملأ الأزقّة والشّوارع، «الصّلاة خير من النّوم»؛ نداء يومي رتيب، فالمصلّون أيقظهم المنبّه، أما الآخرون فهم

ينعمون بهدنة الصّباح.

لكأنّما تعدّ الشاي لي وحدي في انتباه! لكن كم رجلاً أعدت له الشاي هذه الليلة؟

ترى هل مينا الآن متزوّجة وأنا لا أعلم؟! وما الفرق؟، ما دامت حرّة لتعاشر من شاءت، أووه، مينا أيتها العاهرة كيف أسرتِ فضولي طوال هذه الأشهر!

أشعر برغبة في السؤال، أراها في عتمة الغرفة تحملق في الهباء، تلفّ دوائر العزلة حولها، تفكّر ملياً في شيء على المدى، تراه، تنفث إثره دخان سجائرها، وترمقه بعينها الكحيلة، في هذه الأوقات أفضّل مراقبة بريق عينيها في الظّلمة، إنّه أكثر موهبة من رسومات ضوء الشمس المتسلّل.

ما ذنبها؟ أمّها من جلبتها إلى هذه البلاد كما جلبتْ عشرات من الفتيات، إنّ أمها صادقة على الأقل، فهي لم تتاجر ببنات الآخرين و تستثني ابنتها الوحيدة!

لكن مينا شبّتْ عن الطّوق، وأمّها العجوز بدأت في الذّبول، لم تعد تمتلك المزيد من الخيارات، فمينا أصبحت تدبّر أمر زيجاتها بشكل مستقل على ما يبدو، ربما أصبحتْ عضواً في قبيلة صغيرة من الإناث الشابات يُجِدن تدبير الأمور بشروط أفضل!

أشعر أنّ بعض كلام صديقاتها صحيح، وأشعر أحياناً أنّ مزيجاً من حسد النسوة، وروح التّنافس المهنية السّيئة، تدفع تلك الشّائعات الّتي وشوشتْ لي بها بعض صديقاتها في المدينة المنورة.

لا يمكنُ أن أستغرب شيئاً في هذا المناخ، رغم أن مينا أظهرتْ لي قدراً من الشهامة لم أجده في أصدقائي؛ من العجيب أن أصنّف الآن مينا بعد كل ما جرى ضمن قائمتي الصغيرة للنشامى في العالم، تلك القائمة الشخصية التي أكتبها على رمال البحر البيض، وتخلو من أقربائي، أساتذتي، والكثير ممَّن يقدمون النصح وينعقون بلاغة ورياحاً.

صبّتِ «الكأس» الأول من الشاي الأخضر وناولتني، كان مزاجياً صرفاً، صنعته لنفسها، قامتْ بعمل شخصي متقن حقا، كحديثها الودي معي، غزلها بي، ما قامت به بعد أن ناولتني الكأس؛ كان كلّ ذلك شخصياً تماماً، وهذا ما جعله مكتملاً.

من حقّ مينا أن تقوم بشيء لنفسها، فهي امرأة تقدّم الكثير للآخرين، تعمل بطاقتها القصوى، وتسخّر كل ما تجيده لإسعادهم؛ أما أنا فمحظوظ من هذه الجهة، لأنني أصبحت دميتها، حيوانها الأليف، من يشاركها غرفتها الصغيرة دون الآخرين.

تلك الغرفة التي منحتني مينا في آخر الشقّة شهدت أشياء غريزية صادقة، وأخرى مصطنعة بود، لكنّها لم تشهد تبذلاً من أحد.

من الجيّد أنني حتى الآن لم أسأل نفسي لمَ أنا دون كل الفتيان؟ لمَ أنا دون كل المهندمين؟ الذين يلهثون خلف أي بادرة منها كما يلهث المتخرجون خلف إعلانات التوظيف، وينتظرون أي

سانحة من ودّها، كما ينتظر المريدون أي إشارة من شيخهم المختفي؛ لست من عَبدة مينا فأنا سلفيٌّ سابق على الأقل، ويشعرني عدم الإحساس بهذا السؤال أنني رغم كل التّيه المحيط بي ما زلت أمتلك حظاً وافراً من الثقة... أو الوقاحة.

حتى حين تذوي عيناها تحت سنابك الوسن كثيراً ما تغادر في هدوء لتنام قرب أمها كأي فتاة، نادراً ما شاركتني تلك الغرفة في النوم؛ وذلك يمنحني فرصة أكبر للعودة إلى «كتاب الردّة» اللعين الذي أراجعه باستمرار.

أراجعه لأعرف أين كان علي أن أتوقّف، وإلى أين علي أن أتوجه؛ حسناً، ربما ارتكبت حماقة ما، حين غادرت مملكتي الروحية دون وجهة محدّدة، لكنني كنت صادقاً حين غادرتها عندما تبدّت لي حصونها صغيرة، وأسوارها مزيّفة.

تغادر مينا متعبة تنسلُ من عينيها وحشة الأعراب، ولحى المشايخ، وصلافة ضبّاط المباحث، أشعر أنّ هذه المرأة تزوّجت المملكة بأسرها.. وأحبّ البقاء إلى جانبها رغم كلّ ذلك!

كان مجلساً يخفّف الوحشة التي نرزح تحتها، وقتاً هادئاً أعادت فيه مينا مراجعة ليومها الفائت، وهدنة طالعتُ فيها أزمنتي القادمة بشيء من الارتياح.

خرجتْ، لم أتوسل إليها لتبقى، ولم تبدِ رغبة بذلك، كانت ترغب في النوم والاستيقاظ على أمسية جديدة، وكنت أشعر أن مضي الأيام أمرٌ محفز، فمن غير المعقول أن كل الأيام لا تحمل شيئاً!

لكن علي أن أقطع هذه الصحراء، و أنهي هذا التّيه، بشكل طبيعي، لهذا حملقتُ في الفراغ، رأيت الضوء يستيقظ في الصباح الباكر كأي عامل، حاملاً عدة الرسم، يتسلّل باهتاً من خُلل المكيّف عائداً إلى مرسمه، أطالع عمله البليد، وأشكاله الناقصة فأتذكّر بابلو بيكاسو واقفاً في كهف فرنسيّ يطالع رسوم إنسان النياندرتال بدهشة، ويقول بغباء: يبدو أنّنا لا نعرف شيئاً عن الفن!

أتذكّر ذلك الشمبانزي الهانئ في حديقة طوكيو وهو يرسم اللوحات التجريدية وسط دهشة أبناء الشّمس المشرقة؛ وذلك الفيل السيلاني الأسود الّذي درّبه الريفيون على تقمّص دور الفنّان!

أتذكر كل حماقات الفن التجريدي، وجداريات العالم القديم التي لا تستحق المطالعة.

وهذا الضّوء العابث يسرق مشاهد الحياة النّابضة زاهية الألوان، ليصلبها من خلل النّوافذ وفتحات التّكييف على الأسقف.. دون أن يصفّق أحد أو يتوقّف هو عن هذا الغباء.

عند الظّهيرة، ألملم ثيابي وأشيائي، الشقة تسبح في النوم، شخير أم مينا يموجُ في الأرجاء كصوت محرك سيارة إيسوزو، أسحب خمولي خارجاً، أصطدم بضوء الشّمس ساطعاً، أكاد أعمى لشدة الوهج، فقد اعتادت عيناي على الظلمة أياماً، وهذا جزاء كل من أدمن البقاء في العتمة؛ أطالعه بتحدّ وأهمس إليه: لستَ فنّاناً.

أضع صرة ملابسي على كتفي كرحالة في الرسوم المتحركة، ثم أطوي أزقّة وطرق الزاهر الملتهبة.

## (2)
## ومضة في ليل التيه!

متى تنقضي حاجاتُ من ليس واصلاً

إلى حاجة، حتى تكون له أخرى!

أبو العتاهية

لستُ مكّياً، عليّ أن أبدأ من الصّفر! لكنّي أعرف العم (حمّازْ)، يكفي أن يعرف المرءُ «عَمْ حَمّاز» كي يكون مكّياً، كي يحظى بضيافة ودية.. دون تململ.

هاجرة مكّة لم يقوَ على احتمالها أبو لهب، وكان سادة مكّة يتفيؤون الجُدر ظهراً، ناظرين إلي بيت الله مائلاً، مغطى بطبقة من الجيلي الشفّاف، بفعل لهيب بطحاء مكّة.

حين أتسلّق جبل «الحفاير» أشعر بالشّمس تدنو، تصدّني عن هامة الجبل اللاهب، لست أصعد الأولمب بل أريد (عم حمّاز)!

أسفل الجبل تنثني زواقيق «الحفاير»، تتعثر بأحلام المهاجرين، تتكوّم أحلام أجيال المهاجرين الأفارقة، بقايا أجساد رجال تركوا الكرامة خلف البحر، حطام الشعوب، أنغام نسوة أكلت الحياة بهجتهن، لتشكّل مرقى إلى قمّة الجبل.

ماذا يبقى بعد ثلاثة أجيال من النسيان، بعد عقود من الضياع؟ وما الّذي يناله المرءُ مقابل ذلك؟

«الحفاير» تشكّل كل ما يملك هؤلاء.. ولا يملكونه، كل ما رغبوا يوماً أن ينالوه، كل ما عاشوا فيه ولم ينعموا بذلك العيش لأنّ أحداً لم يصرخ: هيه! إن «الحفاير» لكم؛ كي لا يتصرفوا كالغرباء.

لا تعوّضُ فوطةُ عم حمّاز المكيّة وغبانيته عن درّاعته النيجرية الضّائعة، ولا يعوّض تنبول البرماوية في (قوز النكّاسة) عن فقدهم لوطنين، ولا تعوّض قناني العرق الرديء سامي المهوّي عن خمر عدن المعصور من الْتحام قارتين.

هنا تخطر أعمار في التيه، تنمو متمددة على الأرض كنبات البطيخ، تغطي الممرّات الضيّقة في الحواري، وتتخلّل شعاب الجبال، تتسلّقها و لا تسمق عالياً، لأن الوادي غير ذي زرع.

تبدأ «الحفاير» عندما تفرغ الطندباوي زفرتها الأخيرة من الشعوب الكالحة، حيث تكسر هيمنة العرق الواحد، وتأخذ مكّة وجهها الأممي، تختلط الأعراق على مائدة الصّخر، وخوان المواسم العابرة.

هوسة، برنو، فلاليت، حضارم، شناقطة، طوارق، سودانيون، جاوة، برماويون، يمنيون، مليبار، هنود، سند، بنغاليون، وقلة من بدو مكة المتحضرين، وحضرها المنسيين الّذين هم في الأساس من كلّ أقطار الدنيا.

خليط مذهل، قاسمه المشترك الرّوح المكّية، واللهجة الحجازية، وموسما الحجّ والعمرة.

تبدأ «الحفاير» خيطاً دقيقاً من الدّكاكين الصغيرة، والْتواءات في عتمة التاريخ، لم يكن أحد ليطرقها، حتّى قريش حين تقصد البحر كانت لتعبر المسفلة جنوباً وتنزل قوافلها من مكان آخر.

ما كانت «الحفاير» لتكون يوماً شيئاً في التّاريخ، لهذا لم ينازع أحد أولئك المهملين سكناها، والمكان الوحيد الّذي يشعرك بالرّهبة فيها قمّة جبل عمر، ليس لوجوده هناك عند نهايتها شرقاً، بل لإطلالته البهيّة على البيت العتيق؛ أسفله تقبع الشبيكة كمنحدر، أو كخيبة أمل، أو حتّى كعقبة أخيرة.

لم تكن «الحفاير» إلا طريقاً يبساً، وعراً، إلى مكان تؤدّي إليه كلّ الطّرق، قدر ما ترحل عنه؛ لكنّ كل أولئك فضّلوا البقاء.

بقي الميل الأخضر، والنّزول العظيم من طلعة «الحفاير» إلى المسجد الحرام، ينزله عم حمّاز كل مساء دون شعور بالدّهشة؛ لكنّ القادمين من خلف المدى، الحاملين خطاياهم، المتحلّلين من ملابسهم الداخلية، وسخائمهم العميقة، يشعرون عند اعتلاء تلك الطّلعة والنزول منها إلى البيت العتيق برهبة وأمل فائقين، مزيج ثلاثي من إحساس ركوب أفعوانية ضخمة و أحاسيس قوافل قريش العائدة - من طريق أخرى- و مشاعر فيل أبرهة.

.. حين وصلتُ إليها منتحياً خلف مسجد ابن لادن ألجأتني الشمس إلى هذا المسجد، تفيأتُ نافذة منزل الإمام، وكدت ألتهم ثلاجة السبيل، كان الماء بارداً جداً، فاغترفتُ، ذهبتُ دون إحساس بالرّي وبيد مثلّجة، لكن حسب صعلوك مثلي في هذه الهاجرة ظل نافذة وغَرفة ماء.

تساءلتُ لمَ يبني ابن لادن مساجد الله الأخرى، وقصور الملوك الفارهة، على تلك الهيئة المهيبة، ويترك مسجده كدكّان سوبيا؟!

أصبح الملجأُ قريباً، لكن بقي الجزء الأصعب: تسلّق الجبل.

عم حمّاز المكاوي الطّيب، ملكُ الترفيه في قديم الزمان، أدين له منذ الطفولة بعدّة أشياء، فقد

كان يَجيء إلى المدينة كلّ عيد، برفقة شيخه حمزة المراجيحي، ويقيما سرادقاً كبيراً في المناخة، تُشد الحبال، وتتصالب الأعمدة مشكِّلة أراجيح حمزة السريعة، تلك الّتي يدفعها عمّاله بجنون فتطير أجسادنا الصغيرة في الهواء حتّى نزعم أننا نرى قصر الملك على قمّة جبل في أقصى شمال المدينة.

كان يستأجر حوشاً ملاصقاً لمنزلنا، لكنّ جميل عم حماز الأكبر لم يكن فيما ذكرته، بل أثناءه، وهو أمر بَعُدَ به العهد ونسيه هو نفسه!

قبل أشهر قابلتُه في الحرم، وأصرّ على اصطحابي، لم أكن لأمانع فقد كنتُ في نوبة هجر لمينا، و مكثتُ ثلاثة أيام في ضيافته، بعدها اتصلت الزيارات حتى أصبحتُ صديقاً مقرّباً رغم فارق السّن.

تسلّقتُ هامة جبل عمر، أمشي في انحناء كما نصحني سامي المهوِّي، في خطّ منعرج كماعز جبل، ألهث و أنظر خلفي فلا أرى إلا جدران المنازل التي تصاحبني كعزف جماعي متصاعد، أدوس العتبات الصغيرة بفرح، تنتهي؛ فأصعّد جسمي فوق الصخور بملل، أرى شجيرات عم حمّاز وريحانته، تنثر عبيرها في السّماء، فأقول: يا للهول، ماذا لو لم يكن موجوداً؟

عند جلوسي لالتقاط أنفاسي انفتح الباب وخرج عم حمّاز، لم يلقِ إلي بالاً وشرع في إطعام قطط الجبل، بقايا غدائه تتدحرج على الصخور، تقفز خلفها القطط في فدائية؛ وحين استقرّت بقربي عظمة فخذ دجاجة، ملتصقة برباطها الغضروفي عارية من اللحم، وثب قطٌّ أسود وسحبها بخفّة من تحت موطئ قدمي، فصاح عم حمّاز:

- يا واد! أيش جابك الظهرية؟

ضحكتُ في تعب، نهضتُ مصعّداً، فذلك أسلوبه في الترحيب، انتحيت جانبه الأيمن داخلاً دون كلام.

لا شكّ أنّها لن تستيقظ قبل الغروب، ستكتشف هروبي، وستحدث مشكلة كبيرة بينها وأمّها، لن أكون هناك لكيلا تقول مينا إنها ليست بسببي.

أنا هنا في زمن التّيه، حيث تختلط الأزمنة في ذهني، تُخفقُ في تفكيري، بعيداً عن المدينة المنورة؛ وبعيداً عن المدينة لا تتعدّد الخيارات، أستطيع هناك أن أهرب إلى عشرات الأصدقاء، عشرات العِزَب، مئات البساتين، أو حتّى أنطلق في جموح إلى البرّية، كصعلوك، أو كعاشق، أو حتّى كإبل الصدقة في قديم الزمان.

أمّا هنا فالملاجئ إذا ساءت الأحوال مع مينا محدودة، إما أن أذهب إلى هذا المكان، أو أفيء إلى أمر الله وأقصد الحرم ثم ألتحف مفرشة في الدّور العلوي.

لا أعلم كم سينقضي من الزّمن في هذا التّيه، ولا أشعر بالرّغبة في اكتشاف مدى شوقي لانتهائه، إنّه هروبي الكبير، وكفاحي من أجل أن يخرج هذا الشيطان من عقلي وذلك المارد من قلبي

وأعضائي التّناسلية.

عم حمّاز ينظّف أوتار عوده بقطعة قماش جافة، يدخّن سيجارته بهدوء، وأنا ألتهم ما أحضره للتّو.

- هل ستُسمعني شيئاً؟

ضحك بود، ثم أضاف: أنت من جد مطوّع، الظهرية يا...؟

مهما كنتُ صديقاً، فأنا جديد على تقاليده؛ يدلف إلى غرفته السّرية؛ ثَمّ سرٌّ في تلك الغرفة إذا سأل عنه أحد يسقط من عين عم حمّاز، وثمّة حدود تبدأ من باب غرفته تلك من حاول اجتيازها ربّما يهوي من قمّة ذلك الجبل كفخذ دجاجة.

- الله على أيام المناخة يا عم حمّاز؟

- الله.. الله يذكرك بالخير، كانت أيام دهب يا ولدي.

ويسحب من سيجارته عبالة النّشوة، ويضيف:

- حتّى لو... الظهرية الطرب ما يصلح هههه

يكمل سيجارته، ويقفز:

- الساعة تلاتة.. الأخبار.. الجزيرة.

أتذكّر أن ثمّة أشياء معلّقة في هذا العالم لم تنتهِ بعد، أسأل بلا مبالاة:

- مسكو صدّام؟

- فَشَرْ يا واد... صدّام قاعد لهم هناك، ما راح يمسكوه، صدّام رجّال.

مع أنّ الغالبية تدعم صدّام حسين إلا أن أكثر من أسمعه لا يسأل إلا عن شيء واحد: هل أمسكوا به؟!

غاب تماماً في نشرة الأخبار، وأعدتُ فتح كتاب الرّدة... بحثتُ عن مرجعي الّذي تركته البارحة بذهني فلم أجده.

لو كنتُ أعرف العم حمّازاً قبل عام لأسلمتُه لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا شكّ أن لديه منكراً كبيراً في تلك الغرفة، تساءلتُ هل يكفي في ذلك الزمان أن أمسكه متلبساً بالعزف؟

شعرتُ باشمئزاز؛ حتّى مينا لم تكن لتنجو لو عرفتها في تلك الفترة، وكنت سأشعر بالرّاحة

لذلك الفعل، لا شك، فأنا محتسِب دون أجر، و الأجمل أنّه دون أجر، لم يعرض علي أحد من الهيئة مالاً طوال سنوات الاحتساب، حتّى حلّت الكارثة.

كنت أشعر أن ما أقوم به لله، عمل خالص، حتى تمرات السكّري الّتي كنتُ أتناولها في مكتب الهيئة عند التّحضير لمداهمة وكر ما، كنت أشعر أنها تمنحني القوّة والطاقة لفعل الخير، أما دعوات الإخوة المحتسبين مثلي فهي كقطعة الكرز الّتي تكلّل عملي، أشعر بالإنجاز حين ينظر إلي أحدهم متهلّلاً بوجهه المنير كالبدر- كما كنّا نصف- قائلاً: يا شيخ اللـــه يثيبيبك!

ذات يوم كنتُ وصديقاً شنقيطياً مثلي نجلس في الحرم النبوي الشريف، خلال استراحة بين درسين؛ فحدثني عن تلك الموجة اللعينة الّتي أخذت تتصاعد من بحار الجدب، جالبة الأسماك الميتة المتعفنة إلى أرض الحرمين.

- عجيب، أين دور القنصلية في جدة، أين دور الشناقطة والدعاة؟

قلتُ في إحباط: إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

- بعد أن كنّا جهة للعلم والورع والتقوى، أصبحت بلادنا مصدراً للبغاء والسفاح والسّحرة والتزوير!

- يا الله!

- صدّقني يزوّجون أي أحد.. أي أحد، دون وكيل شرعي، وربّما تتزوّج الواحدة منهن مثنى وثلاث ورباع من الرجال دون عدّة وفي وقت واحد!

صدح الأذان، وانقطع الحديث المر.

بعد الصّلاة ذهبتُ إلى درس في شرح بلوغ المرام، كان الشّيخ عطية محمّد سالم يعقد مجلسه الأثير؛ أشعر أن الملائكة تحفّه باستمرار، حتّى لأسمع أحياناً حفيف أجنحتها يحرّك التيارات المنعشة، فأرفع رأسي لأرى أشرطة فضّية ترفّ على فتحات التّكييف!

حضرتُ من أوّل الدرس، فبدأ قارئ الشّيخ يقرأ الحديث موضوع الدّرس:

- «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فبال في المسجد فزجره النّاس، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلّم، فلمّا قضى بوله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذَنوب من ماء فأهريق عليه».

وانطلق الشّيخ في بيانه، بلكنته الحميمة الّتي هي خليط من اللهجة المصرية، والحسّانية والحجازية؛ أخذني اللحن الحسّاني إلى أيام جميلة، فتذكّرتُ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، وكنت فرغتُ للتوّ من قراءة سِير علماء الشناقطة، وأحسستُ بحجم التّضحيات والمشقّات التي تحمّلها أسلافنا في هجرتهم تلك من بلاد السّيبة إلى أرض الحرمين، حين كانت هذه البلاد مجدبة مضطربة،

وكانت لأسلافنا مندوحة عن قطّاع الطّرق في حريّة صحرائهم وشهوات أنعامهم السّائمة.

الشّيخ عطية بعض هبات الشيخ الأمين، إنّه رمز إلى ميراث الأجدر بعلم السّلف، لم ينبغ من تلامذة الشّيخ مثل الشيخ عطيّة، وهذا يعني أن دوْرنا بدأ في الانحسار منذ أمد بعيد، لم نزد على أن كنّا خزانة علم في قرون مضطربة، وها قد آن أوان عود العلم لأهله.

ماذا يعني أن نكون خلفاً لأجيال عظيمة من التّركزي إلى أحمد الأمين ومحمد الخضير ابن مايابى والشّيخ محمّد الأمين الجكني وغيرهم؟

لا شكّ أن ذلك يعني في أقلّ معانيه التّمسّك بالدين، أحرى أن نكون مرتعاً للشهوات الرخيصة على يد حفنة من البغايا والمخنّثين، لماذا لم يذهب أولئك إلى لاس بالماس أو كازابلانكا؟ هل كان عليهم أن يهاجروا إلى الحرمين ليدنّسوا كلمة «هجرة».

في أثناء غيبتي تلك عن حديث الشّيخ فوجئتُ بالتقائه بأفكاري في استدارة حادّة! تركتُه قبل قليل في كتاب الطهارة فإذا به يستنبط من الحديث المذكور وجوب إنكار المنكر!

قال الشيخ بلغة محكمة:

- «الصّحابة رضوان الله عليهم رأوا منكراً فبادروا بالإنكار، وبعض العلماء يقول: كيف يبادرون بالإنكار والرسول صلى الله عليه وسلّم موجود؟ الجواب أن الرّسول صلى الله عليه وسلّم قد أذن لهم وقال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده» وهذا الأعرابي فعل منكراً، فهم عندهم إذنٌ بتغيير المنكر، ولكن لم يأتوه بالطّريقة الحكيمة التي كان ينبغي أن ينصح بها هذا الأعرابي ويراعى لجهالته»[4]

أحدث هذا بلبلة كبيرة داخلي، أثار فضولاً علمياً، وكبح جماح رغبة هائلة لديّ في تغيير المنكر، كان صديقي ينظر إلي بتفهّم.

همزني عم حمّاز برجله قائلاً: هذي السّيجارة هي الأخيرة قبل ما نروح الحرم، قوم رتّب نفسك عشان نلحق الصّلاة.

أخذ (يمزمز) سيجارة الصّلاة في مزاج، ويمتصّ آخر تفاصيل الأخبار قائلاً بحسرة: خسارة.. خديجة بن قنّة اليوم ما طلعت.

سألته: أيش الجديد في الأخبار؟ فردّ بودّ: إنت فين يا واد؟ ما شفت النّشرة؟ ههه! عموماً ما في شي مُهم، كلّو كلام صحافة.

انسحبت في كسل ودخلت الحمّام الصغير.

منزل عم حمّاز على هيئة غريبة، فهو مبني بين صخرتين

في أعلى الجبل، صالة ضيّقة ومرحاض صغير ومطبخ يفتح على غرفته السّرية، ولا شيء آخر، عدا أنه متوج بنباتات صغيرة يدأب على سقيها تحت وهج الشّمس، وعند الباب الخارجي تنتصب شجرة سنط مراهقة تحتها حديقة ريحان صغيرة، باعثة الطيب نهاراً جالبة النّاموس والكآبة ليلاً.

قبل سنين طويلة حسب روايته، كان منزله غرفة واحدة لعمّه الّذي أحضره من النّيجر مشياً.

إنها قصة عظيمة أخبرني بها ليلة على وقع دندنات عوده، كان يسردها في شرود، ودون دموع؛ ربّما جئتُ متأخّراً كي أرى دموعه الّتي بخّرها الصّيف منذ عقود.

وقد كان عمّه ذاك رجلاً عابداً، اختار الحجّ، وحين همّ بالرّحيل قفز إلى رحله فتى صغير كان يلاعبه ويعطف عليه، لم يكن أبو الحاج يملك عائلة ذلك الطّفل فقط، بل كان يملك عشرات العوائل المتوزّعة على ضفاف واديه؛ تزرع عند مجيء السّيل، وتسافر خلف الإبل في الأوقات الأخرى.

كان الطّفل شديد التّعلّق بهذا الآمغار النّاسك، أنزله الأمير برفق وسأل أمّه بورع: هل تسمحين له بمرافقتي؟

أجابت أم الفتى باكية: لا تتاح لعبد فرصة كهذه دائماً.. خذه إلى بيت الله.

تطلّعت عيون الوادي حزناً وحسداً إلى (مَغّاز) الصّغير يقفز فرحا و يطأ عقب البعير ليجلس خلف سيّده.

بعد الحج، قرّر الأمير البقاء بمكّة عاماً آخر لطلب العلم، فابتنى «عُشة» فوق هامة جبل عمر، لا يستطيع أن يصل إليها إلا آمغار ناسك، أو طفل حنّكته الصحراء بالسّوافي، أو نسر متبتّل.

بعد أشهر عديدة، وبينما كان مغّاز وسيده يطوفان بالبيت العتيق ضحوة، تحت هتّان جميل، أخذت الأحوال تسوء والمطر يشتد، قال النّاسك: مغّاز.. اخرج من الصّحن حالاً، اذهب إلى دّكة المؤذنين وحين أنهي الطواف سأجيء لأخذك.

أدرك الآمغار النّاسك بحسه الصحراوي، أن هذا المطر يحمل رغبة جامحة في معانقة الكعبة.

أخذ الطّفل يلهو بخيط المطر، يتزحلق على الصّحن المرصوف بالحجارة، ألقى إليه النّاسك نظرة أخرى فألفاه يصعد الدّكة بأمان، فأزال لثامه المهيب وأكمل الطّواف.

كان مغّاز الصّغير جالساً مدلّياً قدميه من أعلى الدّكة يؤرجحهما في المطر، حين سمع قرقعة رهيبة، فنظر جنوباً فرأى أحد أبواب الحرم يلعب به السّيل على لسانه الأسخم، كان السّيل القادم من جهة أجياد يحمل رغبة مجنونة تماماً كما توقّع آمغار.

رأى مغّاز الصّغير شماله حمامة كسيرة الجناح دامية القدم تنثر سائلاً أحمر في بركة ماء

صغيرة، قفز ليخلّصها فابتدره السّيل.

لم يجد النّاسك في الجهة الأخرى مهرباً سوى التّعلّق بأستار الكعبة، وأخذ يعلو مع الماء في أمان، لكنّه رأى (مغّازاً) الصغير يتطاير كدمية، أو كبطريق في فكّ فقمة نمرية، فارتمى سابحاً، كان يسبح ضد التّيار، لكنّ السّيل الأهوج حين وصل إلى مدى الكعبة ارتجّ.. أخذ يدور كطائف.

كانا في اتجاهين معاكسين في دوّامة، أمسك النّاسك ذراع الطّفل وطوّح به بعيداً، ليتبعه ويقذفه أخرى، حتّى إذا اقترب من حِجْر إسماعيل رماه إلى رجل واقف على الحِجر فالتقطه.

رفع الرّجلُ الطفلَ (مغّازاً) المغمى عليه ومدّده على كتفيه كما يفعل الرّاعي بالعصا.

حاول النّاسك الالتفاف والتشبث بالحِجْر، لكنّ باباً خشبياً هائماً ضربه على رأسه، فغاب في دوّامة طواف الماء.

بعد ساعات وُجد النّاسك ميتاً قُرب باب مراد شرقاً أسفل جبل المروة طافياً على لجة ماء هادئة.

عاد الطفل بعد أيام من التسكّع بين مقبرة المعلاة والصحن المليء بالطّين بحثاً عن شيء ضائع لا يعرف ما هو بالضبط، وأخيراً عاد إلى (عُشّته) تلك فشمله «العم حمزة المراجيحي» الذي يسكن أسفل الجبل بعطفه.. لم يمضِ وقت طويل حتى صار يناديه حمّازاً.. فأُنسي النّاس اسمه كما أُنسي آدمُ العربيّة حين أكل من الشّجرة!

- اطلع يا واد الأذان قرّب.

خرجتُ من المرحاض الضّيّق أكرّر أدعية علَقتْ من الماضي.. تعوّدتُ الجهر بها!

كان نزولاً حادّاً إلى الحرم، وعم حمّاز يسبقني بخطوات، لكأنّما يسحبني سحباً، بينما أثقل الماضي ظهري قرّرتُ أن ألحقه مهما كلّف ذلك، تكوّرتُ على وساوسي فأصبحت حجرا، من يسبق حجراً مثقلاً بالترسبات حين يتدحرج من طلعة «الحفاير»؟

جلستُ بعد الصّلاة في صحن الكعبة، وعم حمّاز يطوف ويلقي السّلام على زملائه في الحرم، من لا يعرفه هنا يصحّ له قصرُ الصّلاة.

ما زالت مينا نائمة؛ هذا مؤكّد، لكن أفكاري بدأت في التّشكّل أخيراً، هذا الصّحن ملهم حدّ الوحي، أي طريق سلكه المسلم وأوصله إلى هذا الصّحن هو طريق الله، معنى الطّواف حول كومة من الحجارة يسلب العقل تذاكيه، ومن هنا تبدأ الرّحلة.

هنا ألقى إبراهيم زوجه وابنه الوحيد، هنا تركتْ هاجر ابنها وحيداً بجانب الكعبة وأخذتْ تعلو الجبال الصّغيرة، هنا اكتشف محمد أنه يتيم الأب والأم، وهنا حين حمي الوطيس ترك عبد الله بن الزبير شؤون إدارة العالم لله، واعتكف عند هذا الرّكن، وهنا أسلم الحلاّج أمره لله فاعتكف عن

الشهود.

هنا طاف الخوارج وتعاهدوا على قتل علي والولاة، و هنا مرّ الحجّاج ابن يوسف حاجاً وغازياً، وهنا استوثق الرشيد لولديه فاحتربا، وهنا تعاهد محمد علي باشا والشريف غالب فغدر الأول بالثاني، وإلى هذا المكان قدم النّاس من كل نِحل الإسلام، حجّ ابن تيمية كما حج ابن عربي، وحجّ المعتزلة والشّيعة كما حج السّنة والإباضية.

من المؤكّد أن الله قبِل دخول الجميع إلى بيته، وإلا لأرسل عليهم طيراً أبابيل؛ و من المؤكّد أنهم جميعاً طافوا بالبيت العتيق يسْبحون في ملكوتهم ويثلمون إيمان بعضهم.

هذا الصّحن الرّحب يسع العالم، فكيف بدين الله الأرحب! أشعر أن صدري الآن يتسع، فلا ريب، هنا قريباً من هذا المكان حدثت مغسلة علوية لصدر النبي الأكرم، وهنا تفجّرت ينابيع الحياة حين أوشكت هاجر على اليأس.. و هنا يؤمّل المرء الحياة في واد غير ذي زرع، والرّي في أرض غير ذي نبع، لهذا لم يشعر إبراهيم بالدّهشة حين عاد وألفى ابنه كامل الفتوّة والصّحة!

أشعر بانزياح الضّيق، أشعر أنّني أكثر خفّة من جملة الطّائفين والجالسين، فهم يمشون رويداً، يدبّون في كتل تتقاتل على القُرب من ذلك الحجر الأسود، أمّا أنا فأجلس بعيداً بما يكفي لأبصر كل ذلك.

أتذكّر طرفة الأصمعي عن الأعرابي الذي يناصب قبيلة تميم العداء، حين فسّر بيت الفرزدق جالساً في الصّحن، وأحال كل شيء إلى الكعبة! أضحك، أشعر بالغرابة، منذ مدة لم أضحك بهذه الرّاحة، أضحك من طرفة قديمة، طرفة أضحكت آلاف الأدباء لألف عام، أشعر أن أي شيء الآن له طابع بريء!

لم يعد صدري حرجاً كما كان قبل قليل، لهذا لا أجد فرقاً بين الطّواف والجلوس ببهاء في هذا الصّحن.

لكن.. مهلاً، لم يكن الرسول الأكرم لينال نجاحاً لو بقي هنا! وكذلك كل أولئك العابرين، الدّارجين على هذا المرتقى!

إنّ هذا المكان يشكّل منطلقاً، تأسيساً لرحلة أهم، في مكان آخر!

عليّ أن أكتفي بهذا القدر من الإلهام، لقد ألقى إلي بكلّ أسراره، أما الأهم فلا شكّ أنّه ينتظرني في مكان آخر.

سأعكس الرحلة، كما ارتدّ موسى على آثاره قصصاً، سأجد الله في أمكنة أخرى، فقد ترك لي رسالة في بيته تخبرني أنّه في كلّ مكان.

## (3)
## نور في منتصف النفق!

كلانا احتسى كأس الغرام بكرهه

وكل عراه من هواه جنون!

إبراهيم المازني

ليلاً.. يغدو التّصعيد إلى «عشّة» عم حمّاز أسهل، النسيم التّهامي يداعب كيس الفول فيحدث رفيفاً لطيفاً؛ لكنّ العم حمّازاً لا ينتظر الرفيق ولا ينظر خلفه، اختفى أعلى الممر المصعّد، وأنا ما زلت في منتصف الجبل.

عقوده الخمسة منحتها الجبال المكية صلابة، وطالما أورثت صخور مكة لناشئتها صلابة في مكان ما، والحمد لله أن إرث «عم حماز» المكي انحصر في عضلاته القوية، فهو رجل حنّكته السوافي، وأعمدة الخشب المتصالبة، وجرانيت وبازلت جبال السروات.

يصعدُ لا يلوي على أحد، لا أهل ولا ولد، لا يلوي على شيء، لا خيل عنده و لا مال، هل يمكن أن أسبقه في الصعود، وهو الذي تهابه الجاذبية، هل يمكن أن أسبقه في الهبوط، وهو الحجر المكي الذي تدفعه رياح الصحراء الكبرى عميقاً؛ وأنا الرسوبي المثقل بأفكار مثبطة، المغناطيسي الذي يلتصق ببقايا المعادن في آثار أقدام الأولين.

لهذا ابتعدَ كثيراً، حجبَتْه الْتواءاتُ الصعود، وابتلعته ظلمة الأزقة، فتماهى مع الليل بلونه، وغبتُ في حلزون السلالم الصماء؛ فجأة ظهر طفلٌ صغير يهبط في رشاقة على دراجة هوائية فوق الدّرج العريض النازل من أعلى الجبل، اعترضتُ طريقه ارتباكاً، اصطدم بي ووقع جانباً، كنتُ منشغلاً بإسناده والاطمئنان عليه، حين استغربتُ من اهتمامه بقوارير المياه المعدنية الصّغيرة الّتي سقطتْ من حامل على درّاجته وأخذتْ في التدحرج نزولاً، لحقتُ بواحدة استقرّت في ركن غير بعيد، أحكمتُ إغلاقها وقدّمتها إليه.

- هل أصبت؟... معليش!

- لا، عادي.. خلاص خلاص.

يعتلي الدرّاجة ويختفي في ظلام الدّرج الهابط.

لعلّ المسكين مرتبك بسبب قسوة أهله، من المؤكّد أن أباه سيوسعه ضرباً لإفساد المياه المعدنية؛ أشمّ يدي.. رائحة «عَرَق» قوية تملؤها!

ضحكتُ للمفاجأة! إنّ الولد المسكين مجرد «عامل توصيل» للخمر الحجازي الشعبي، والقوارير هي شحنة «عرق» يجب تسليمها بأمان!

عند باب عم حمّاز استدرتُ؛ مكة بالأسفل، «الحفاير» غرباً و «الشبيكة» شرقاً، «المسفلة جنوباً»، والتيسير وجرول شمالا، تبدو مكة صاخبة، تملؤها الحياة، حارّةً كتنّور؛ أما هنا فتنشط النّسائم القادمة من جبال السّروات، تأنفُ الهبوط إلى الوادي الكبير، وتغازل قمم الجبال، تهدهد العشش والأخصاص والغرف الأحادية في الأعالي، تلك الأماكن الّتي يسكنها الهامشيّون والزّهاد، العظماء والأوغاد؛ تغازلها لأنّها الأماكن الموحَّدة في مكة.

بالأسفل تتوزّع الأحياء حسب المكانة الاجتماعية، حتى داخل الحي المطحون الواحد، هنالك مربعات سكنية للأقل سحقاً وتمريغاً، كما داخل الحي الثري ذاته، هنالك أيضاً مربعات أكثر بهاء للأكثر ثراء ونفوذاً، وبين كل ذلك، وأثناءه، تبرز القطيعة، وتنشط الدوريات والهيئة ورجال المباحث والبلديات لحماية تلك القطيعة!

الحواجز السميكة تخلق الثقافات، والأفكار القَبْلية تخلق الدول والأوطان والحدود، ومهمّة الفلاسفة والوعاظ تخفيف وحشة تلك الحواجز، نزع فتيلها، أما الشرطة ورجال الأمن فهم على النقيض، مهمتهم حراسة تلك الحدود اللامرئية.

قلة من الشجعان -كذلك الطفل صاحب الدراجة- هم من يصلون بين بعض النقاط المتمايزة وبعضها الآخر، وهوايات قليلة أيضاً، تلك التي ترغم كافة الأطراف على الالتقاء.

صحن الفول، الدافئ والتميز البخاري السميك كعجينة بيتزا (سوبر سويريم)، وبراد الشاي «التلقيمة»؛ عشاء سلطاني حين يتحلّق حوله البسطاء.

سامي المهوّي كان بانتظارنا كقط أزقّة، والمكيّف الصحراوي أطلق صافرة ترحيب ثم انخرط في نوبة سعال رطب.

سامي المهوّي ليس سيئاً كما يوحي اسمه، و تلك اللوثة الخفيفة في عقله هي ما يجعل منه آلة كوميديا، لا ينزعج «عم حمّاز» من بصقه، وصيحته المفاجِئة: وَرِّي..!

بل إنّ تلك الصّيحة التي يطلقها من آنٍ لآخر دون سبب معروف هي مثار دائم لضحك عم حمّاز.

لن يستطيع أحد معرفة معنى: ورِّي، فسامي نفسه لا يعرف، بل هي لازمة حسب قوله -في

أحسن أوقاته- منذ أن كان طفلاً.

بعد العشاء دلف عم حمّاز إلى غرفته السّرية وأغلق الباب، جلستُ وسامي نتحدّث، كنتُ أغيب لعدة ثوان عن جنونه، وحين ضقتُ برائحة شرابه السيئة، خرجتُ لأدخّن.

جالساً على تلّة، أنظر إليه يشرب «العرق»، أدخّن سيجارتي، يملؤني العجب؛ كان سامي المسكين أيضاً ليكون صيداً بسيطاً لي في ذلك الزّمان!

ما كان سامي ليخفي شيئاً، وما كنت لأتجاهل شارب خمر في مكة.

عدتُ إلى الماضي سريعاً بفضله؛ انقضت تلك الصّلاة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وانطلقت وصديقي المحرّض إلى مسجد الجامعة الإسلامية للانتفاع بمحاضرة للشيخ محمد المختار الشنقيطي، قال صديقي:

- ستتبيّن الأمر، ألا يكفيك رأي الشيخ الشنقيطي!

- بلى، أنا لستُ مرتاباً.. أريد فقط معرفة الطريق إلى ذلك.

- لا عليك، غداً نتواصل مع الشّيخ سلمان مدير هيئة الحرة الغربية، الأمر احتساب وجهاد.

كان مسجد الجامعة الإسلامية بسيطاً، خالياً من بهرجة الحرم النبوي، مبنياً على الطريقة النجدية، وهو خال كذلك من المبتدعة والمتصوّفة و العصاة على النقيض من المسجد النبوي!

عنوان المحاضرة «درجات تغيير المنكر» أليس هذا ما تبحث عنه؟ بادرني صديقي بذلك ونحن ندخل بوابة المسجد، أجبتُه: بلى.. والعلم يؤخذ من مظانّه.. صدقتَ.

أدركنا الشّيخ يتحدّث عن تغيير المنكر باليد، فجلستُ وصديقي في آخر الحلقة الكبيرة بين طلاّب الجامعة وطلبة العلم المتهلّلين.

انطلق الشّيخ:

«التغيير باليد يقطع دابر الشر، لأنه به ينعدم هذا المنكر ويزول، وبناء على ذلك فالأساس والقاعدة التي هي الأصل في التغيير أنه متى ما أمكن للإنسان أن يغيّره بيده، فليغيّر بيده؛ هذا الأساس والقاعدة.»

وكزني صديقي برفق، مبتسماً بدهاء، فدوّنتُ تلك النّكتة الرائعة الّتي قرّرها الشّيخ، وبدأتُ في رسم معالم الآتي:

غداً أصارح أبي برغبتي، وأستشير عمّي، لا أستطيع أن أقدم على شيء دون رأيهما!

عجبا؛ ها أنا بعد أعوام عجاف أعتلي صخرة جرداء بأعلى جبل عمر، عكس رغبتهما،

وبالقرب منّي سكّير هائم، وخمسيني مريب في سراديب غرفته المثيرة للشك!

عجباً ها أنا بعد انحسار ذلك المد في نفسي، لا أجد معنى للهيئة أصلاً، ولا مسوغاً شرعياً حتى!

ذلك مثير، من جهة ما تفعله القناعات بالمرء، ما تدفعه إليه، ما كان طريقاً أبلجَ إلى الجنة، أصبح مهبطاً سحيقاً في غور التشدد، ما كان جهاداً، أصبح بنظري فساداً، «من يدري»؟ تلك الكلمة الطاوية من يدري! ربما أعود إلى هذا الطريق أكثر إخلاصاً، ربّما أندم على هذه النظرة الآن إلى تاريخي.

ربما بالفعل يصدق ذلك العجوز الصيني لاو- تزو، فليس هنالك قوة خالصة، ولا طريق مستقيم إلى ما لا نهاية.

هذا لا يدعم عودتي إلى الماضي قطعاً، ولا يقدم لي دعماً للمضي قدماً.

لكنّني مستغرق في مقارعة كتائب الذكرى، وما زال عالقاً بذهني ذلك السؤال الذي وجهه أحدُ طلاّب العلم بعد انتهاء المحاضرة للشّيخ؛ سؤال مسّ همومي، قال:

- «يقول كثير من الناس إن التغيير باليد مقتصر على رجال الهيئة، فهل يكفي هذا إذا وجدتُ منكراً أن أتصل بالهيئة وتبرأ ذمتي بذلك؟»

كان السؤال مباشراً كلغة التّجار في الأسواق، ومستقيماً كطلقة نارية، تلك الطّلقة التي قتلت تردّدي، وأرسلتني إلى ميدان العمل؛ أجاب الشّيخ:

- «حين يكون هناك جهاز مختص بتغيير المنكر فإذا أمكنك أن تتصل به وأن تنسق معه فهذا أمر مطلوب، يعني، يحاول الإنسان قدر المستطاع حتى لا يؤذي أهل الحق ولا يتسلط أهل الباطل عليهم فلذلك يتصل بالهيئة لتغييره، لكن لو كان الأمر ممكناً للإنسان في حدود، يا أخي، ينكره ويغيره بيده وبلسانه مباشرة فليفعل... وألّا نترك الأمر بالمعروف نهائياً للهيئة فلا»[5]

طوّحتْ كلماتُه آخر تردّد، تذكّرت ما قال الشيخ عطيّة، وما أحدث من بلبلة في نفسي، وأيقنتُ أن هذا ما كان يقصده الشيخ عطية، وهو في النّهاية شيخ مسنّ يلقي درساً في المسجد النّبوي أمام العامة، وقد لا يأمن تحريف كلامه؛ أما هنا في مسجد الجامعة الإسلامية، مأرز التّوحيد والدعوة ينبغي أن يكون الكلام واضحاً كالصبح، جلياً كقعقعة الرّعد!

في اليوم التالي، أثناء الغداء أخبرتُ أبي وعمّي بعزمي على التعاون مع الهيئة، صمتَ أبي طويلاً، وتحدّث عمّي بثرثرة عن هذه الظّاهرة السيئة التي جلبت علينا العار، نساء ينسلن من المجهول وسحرة يدمدمون، دمّروا في سنوات ما بناه الرجال الصالحون قروناً!

- من حقّ أيّ شنقيطي وموريتاني أن ينتفض، ويكافح هذا العار، بارك الله فيك يا ولدي، لكن توخَّ الحذر ولا تظلم أحداً، لو كنتُ في سنّك لفعلتُ!

هكذا جاء ردّ أبي صريحاً ومؤيّداً.

صاح بي عم حمّاز وهو يجلس في الصّالة داخل منزله: تعال يا واد أبغي منّك خدمة.

أرجعني مباشرة إلى اللحظة، تحسّستُ حافة مهوى الجبل السحيق شرقاً، فأيقنت أنني في سنة 2003.

لا شكّ أن أمراً مهماً أخرجه من عزلته في غرفته تلك، ربما ملّ أشياءه السرية التي كانت تسرقه كل ليلة، لهذا انقطع تسلسل مشاهد الماضي بحدة، وحل محلّه الواقع الذي يثير الفضول والاهتمام.

جلس محتضناً عوده اللامع، بفضل طبقة الشمع الخفيفة التي تغطّي جرمه الخارجي، ودندن قليلاً، ثم قال في هدوء وجدّ تام:

- اسمع يا عبد الله... إنت دحين صاحبْ وعِشرةْ عمر من أيام المناخة.

أجبتُ في غرابة مستشعراً رهبة البدء:

- صُحبتك شرف و عزوة يا عم حمّاز.

- بس اسمع يا واد بلا شرف بلا هم، دحين أنا وايَّاك وسامي.. ما حد معانا، بِدّي أقولّك سر، وأبغي فزعتك!

- قول يا عم.

دندن قليلاً، ثم أوغل في الرّصد عازفاً لحناً سلساً، وسامي يمسك رأسه في طرب كمن حلّت عليه مصيبة، ربما تمنح الخمر حدّة في التصور، أو خمولاً، حتى يتخيل السامع أن أي دندنة هي مقام عتيد يستدعي الوجد.

رغم الفضول الكبير؛ سرقتني رنة الكردان، التي هبطت على الأوتار الأخرى وعادت في تنوع، فكادت أن تصبح لحناً صاخباً، لأتذكّر مينا وسلمى دفعة واحدة!

يا الله! لو أنّ مينا بطهر سلمى، أو أن سلمى بجاذبية مينا!

لو أن واحدة منهما ابتلعتِ الأخرى، كرّرتْها وأخذتْ أفضل ما فيها!

لا شكّ أن مينا الآن اكتشفت هروبي، وهي متعكرة المزاج، لن تتمتّع الليلة بدعارتها، فقد هرب حيوانها الأليف؛ أمّا سلمى فلا شكّ أنها نستني، تلك الراهبة البلهاء، تلك الخرقاء المتديّنة التي

تعشق الرجال المتديّنين، سرعان ما انصاعت لأبيها، أطاعته، وأظهرت لي جانب القوّة في الدّين.

- «تريد أن تفسخ الخطوبة... أعلم، أنا أصلاً لا أحب أن أرتبط بعاق لوالديه، لا أحب أن أكون امرأة لفاسق!»

مينا العاهرة لم تجرحني يوماً، أما سلمى الخجولة الصغيرة تنمّرت عليّ فجأة، حين أيقنتْ أنّني أصبحتُ خسارة مؤكّدة، نسيتْ أنها ابنة عمّي الوحيد!

- القصّة دي ما حد يعرفها غير سامي ده!

هكذا نطق عم حمّاز محضراً انتباهي من أنغامه وذكرياتي، هزّ سامي المهوّي رأسه موافقاً وهو في عبالة الخدر، ثمّ أكمل عم حمّاز:

- فيه بنت تحت.. في «الحفاير»... أحبّها. ثمّ أغمض عينيه كأنّما يغالب السر و تنفس بعمق، دوْزنَ قليلاً، وأكمل مستجمعاً كل حضوره وجسارته: البنت دي... أكلّمها من مدة.. بس... ما عمري شفتها ولا عمرها شافتني، دحين وصلتْ الحكاية إنها ملزّمة إلا تشوفني!

ثمّ.. تغيّرت ملامح وجهه الداكن المتغضّن بعمق كتينة جافّة، أطلق ضحكة ماجنة، و مسحها بابتسامة مضطربة.

أكمل عزفه، وبدا عالقاً في الوتر الرابع حتى تاهَ في الرّصد، يدخل دوْراً ما ويكاد يشرع في غنائه، ثم تلين أوتار عوده ويقول:

- أبغى منّك خدمة، أبغاك تروح معايا أورِّيك مكان توقّف فيه، ولا تتحرّك لين تعدّي البنت وتشوفك!

صاح سامي: وَرّي!

بدتْ كلمة سامي ذات وعي ودلالة شهوانية هذه المرّة؛ فرمقه عم حمّاز بنظرة حادة، رفع سامي إصبعه في الهواء ببراءة اعتذاراً، شعرتُ بالمفاجأة فقلت:

- تشوفني أنا!

- أجل تشوف...!

وضحك الاثنان كولدي شارع؛ ثمّ قال سامي: قايل لك من زمان الولد دا ما يفهم... بَلا فْشكلُه.

أكمل عم حمّاز متجاهلاً رأي سامي: شوف يَا وَلدي إنتَ ما شاء الله حِليوه وأبيضاني، خلّيها تشوفك مرّة يعني إنك أنا، عشان تكمّل معايا على التّلفون.

تدخّل سامي موضّحاً: ما ينفع تشوف العجوز المدقدق ده، افهمْ يا شنقيطي... ثم ضحك في

مجون.

- ماشي تحت أمرك... بس لو كلمَتْني أيش أقول.

- إصحك تكلّمها؛ وتوقّف عن العزف ونظر إلي بحقد، ثم أكمل: ما راح تكلّمك أصلاً بس تشوفك وترجع، أنا حكون قريب منك عشان أشوفها كمان!

فهمتُ الآن فحوى الأمر، وكان سامي المهوّي في جنونه وسكره، أبلغ من عم حمّاز الذي ألجم لسانه الوله.

- هيّا قوم هي حَتِجي الساعة 11.30 للبقالة، إنت تكون واقف قدام البقالة.

قال سامي: أروح معاكم؟ رمقه عم حمّاز بنظرة وقال في غضب: اجلس هنا اسكر يا معدوم لا تطبقنا دورية، ثم أكمل مشيراً إليّ:

- أستنّى أجيب لك الغباني الخضرا قايلّها إني راح ألبسها عشان تعرفني.

تذكّرتُ أول لقاء مع مينا، لم نكن بحاجة لكلّ هذه الحيل؛ ثم انطلقتُ وعم حمّاز نزولاً، تطوّقني غبان كشميرية خضراء تكاد تخنقني كلما نزلنا، لشدة الحرارة.

وقفتُ كتمثال أمام باب البقالة، بينما جلس عم حمّاز كأبي الهول على الجهة المقابلة، فوق دكّة تقبع تحت ظلام بلكونة كبيرة؛ حتى من موقفي ذاك يبدو عم حمّاز مخفياً في ظل البلكونة، مطفياً في إضاءة الحفاير المعتمة؛ وكان ذلك مكاناً يضمن له رؤية حبيبته بكل وضوح، ومتابعة ما أقوم به من رومانسية مستعارة.

بعد تجاوز الحادية عشرة والنصف ليلاً بدقائق رأيت فتاة تطالعني بريبة من آخر الشارع، أخذتُ بمراقبتها والتطلّع إلى عم حمّاز الذي بدا كالمجنون، كلّما نظرتُ إليه لوّح بيديه إليّ.

اقتربتْ في خطو وئيد، كانت ممتلئة، بيضاء كرخام الحرم المكي، تكاد تكون شفّافة كعرق الحفاير؛ تطلّعتُ إلى يديها حين اقتربت، فبدت في ظلمة اللّيل من كمّ العباءة السوداء كمنارتين تومضان في عتمة البحار، بدت في العشرين من عمرها!

توقّفتْ قليلاً بجانبي وطالعتْ خلفها، ثمّ مدتْ ورقة ملوّنة مطوية بإحكام ودخلتْ البقالة، لم أتحرّك من مكاني، وكان عم حمّاز يخترق باب البقالة بعينيه من بعيد، مكثتُ دقائق، وحين خرجتْ كشفتْ عن وجهها وابتسمتْ بارتباك، تحركتْ شفتاها باضطراب، رجفة خفيفة سرت على الشفة العليا، كخفقة مجذاف بهدوء على صفحة نهر، فشعرتُ برهبة، ألهذا الحد تعتبر الحفاير جنة!

وجهها دقيق الملامح، وحمرة شفتيها صارخة قانية، بينما أهدابها السود مرسومة بعناية، حتى كأن الكحل الشارد يظهر الأهداب مسافرة شرقاً وغرباً دون انتهاء.

ابتسمتْ، فغبتُ لثوان في لآلئها، سريعا تذكرتُ مينا التي أجرم النيكوتين قليلاً بحق لآلئها.. لكنّه منح عاجها لوناً رمادياً مثيراً، أها..؛ ما يعيب هذه الفتاة هو ما اكتشفته عند المقارنة، ميناء أسنانها شديد الحمرة، مشرب بالأحمر الناري، وهو عكس اللون الرمادي الشهي الذي يجعل قبلة مينا لا تنتهي أبداً، سريعاً خالطني الشّك بأن هذه الفتاة لم يمنح بعدُ الرّجالُ والقراصنةُ ميناءَها شهوةَ ولونَ الموانئ العظيمة الشهباء!

حين أنهيتُ مقارنتي السّريعة كانت الفتاة في آخر الشارع مسرعة الخطى، فعبرتُ متّجها إلى عم حمّاز الذي كان ممسكاً رأسه بكلتا يديه محملقاً في ظلها البعيد.

وكزتُه قليلاً، فتنبه، اختطف الورقة الملوّنة من يدي وقال: يااااا أله.. هيا، شكراً يا عبد الله.

لم ينسَ أن يشكرني في لحظته تلك! رغم أن لحظة الوصل الأولى تكون خاطفة للألباب.

لم يتحدّث كثيراً، كان يترك يده قابضة على الرسالة في جيبه، أتخيّله يمسكها بنعومة، أكثر مما تظهر يده من تغضّن في ظاهر الجيب.

حاولتُ أن أتحدّث معه، أستشفّ تأثره، في هذه اللحظة التي اعترف فيها بعجزه، عدم لياقته للحب؛ كان أمراً قاسياً أن تسأل أحداً بصلافة: لماذا لست مؤهلاً!

لم أسأله ببدائية كما كنت أودّ، ولم أتحدّث عن فتاته، بل كنت كمدين في مأتم دائنه، أتحدث في أشياء بعيدة تافهة.

كان يردّ باقتضاب، أصغيتُ لكلماته، تنبّهتُ لصوته، فأدركتُ موهبته تلك لأوّل مرة، من السّهل عليه أن يوقع فتاة بحنجرته تلك، ومن الصّعب على رجل أن يصل إلى جوهر هذا الصّوت إلا حين يستمع بقلب أنثى.

وصلت لبعض أسرار صوته، لأنني كنت أستمع بحيادية فقط.

كان طريق العودة طويلاً، مملاً، متعباً، حين بدأنا الصعود لم يعد ينطق بكلمة، بل كان سادراً في ألم بعيد، وكان جبله الأشم عالياً أكثر من المعتاد، شعرتُ بأنني أخفّ منه، أسبقه على غير العادة بعدة صخور، هكذا أثقلتْ تلك الفتاة الصغيرة خطواته التي كانت تقهر الجبال.

لم يعتد على حمل أحد فوق ظهره، وحين يحطّ أخفّ الأحمال على ظهر جواد برّي، أدمن الجموح في الشعاب والأودية، ويسيطر عليه، فإنه ينهار، يتئد فلا داعي للعجلة، قد يتحول ذلك الجواد البري لاحقاً، ليصبحَ بغلاً!

عم حماز الآن يلتفت إلى الحفاير على غير عادته، ينظر إلى تلك الدقائق المنصرمة، فيودّ العودة، يودّ تصحيح خطوة ما، يتمنى تصحيح كل خطوة قديمة... عم حماز يصبح مثلي، لكنني أمتلك رصيداً في معاقرة التعاسة، وحمل الماضي ببعض «الحرفنة» فأسبقه الآن إلى القمّة بفارق كبير.

حين وصلنا «العشّة» تنبّهتُ إلى سلك أسود رفيع يمر من فوق الجُدر ساقطاً خلف عشة العم حمّاز.. إنّه يمتلك هاتفاً في غرفته السّرية تلك!.. ماذا هناك من الأسرار أيضاً يا ترى!

استقبلَنا سامي راقصاً لشدة الفضول قائلاً:

- ورِّي.. بشّر... الصنارة غَمزَت؟

نحّاه العم حمّاز في صمت بيده، ثم بدا وجهه مكفهراً وهو يشق الطريق إلى غرفته، فأشرت إلى سامي المهوِّي واضعاً إصبعي على شفتي، فصمت.

كان وقتاً كئيباً، كدتُ أن أرحل عائداً إلى مينا، بينما ظلّ سامي سادراً في سكره، وعم حمّاز مغلقاً باب غرفته السّرية؛ لم أجد سلوة تأخذني من جحيم مراجعاتي، وأطياف الماضي الكئيبة.

تمدّدتُ في الصالة بعد ذهاب سامي المهوّي مترنّحاً، ودخلتُ في نوم عميق.

في السّحَر أيقظتني ترانيم عم حمّاز على عوده عند باب العشّة، تسلّلتُ إليه وجلستُ خلفه مشعلاً سيجارتي، أضاء القمر كتفيه الأسمرين، فتبينت من خلف بيجامته البالية عمق ندبات الحب.

بدا الكهل الجريح مكتفياً بوجوده، كسلطعون يقتات سَحَراً في عتمة المحيط؛ حرصتُ ألّا أحدث ضوضاء، لكن الوقت حرّضني على إشعال سيجارة ثانية، صوت قداحتي طعن قبة الهدوء الشفافة، وقتها شد عم حمّاز وتراً عالياً ثم هبط في هدوء، لم يلتفت مطلقاً، فقد كان منشغلاً ببوحه إلى أوتار عوده، صديقه الذي لا يهجره، صديقه الوحيد الذي يشاركه غرفته السرية.

كان يدخل بموهبة في مقام يماني الحجاز، ويدوزن الليل؛ وحين استتبّ له السّكون، وسالت تحت أصابعه الأوتار، أنشد أغنية بسيطة مفجعة، حاولتُ بوهن أن أصل إلى وجهه، لكنّه كان متكوّراً على عوده، فاكتفيت بالسّماع؛ غنّى بصوت ملتاع:

**دمعي جرى ع الخدودْ**

**عاف جفني الرقادِ**

**والناس عني رقودْ**

**مما جرى بالفؤادِ.**

عند انتهاء العزف، استدار داخلاً دون حديث، فزحفتُ ككسيح نحو فراشي في غرابة، كلانا يعيش في غربة كافية.

## (4)
## مقام الفقد!

إن كان منزلتي في الحب عندكمُ

ما قد رأيت.. فقد ضيعتُ أيامي

ابن الفارض

حين يجيء الحبّ خلواً من (اكسسوارات) المتعة، دون وصل، وعكس الريح كنفثة سيجارة، لا يرتد منه إلى النّفس سوى التعاسة.

لكنّه إذا هبط فجأة، في الوقت الخاطئ، فتلك حالة تسمم للرّوح.

أما حين يكون المرء على أهبة الاستعداد، وفي حال أفضل فالغالب ألّا يأتي الحب؛ ثم لا تبقى حسرة عظيمة لغيابه!

لكنّ الوحدة قد تقود الإنسان للدخول في مجازفات كبيرة.

أخطر أنواع التسلية أن يحاول أحد أن يجد في الأصوات عزاء داخل صحراء انطوائه المجدبة، فحين تتفتح الصحراء وتسلم أسرارها لصوت جنّي، فقد تظهر العيون والروائح فجأة فوق ما هي عليه، إغراء وفتنة، وتتراءى الجنان من كثب؛ وقد لا يقوى التائهُ في الصحراء عُمرَه على تصور كل تلك المشاهد.

قد يطيش، يبدأ في الإحساس بالعطش، ذلك الإحساس الذي نسيه منذ حقب، منذ تحوّل إلى سحلية، ينزعج من شمسه الحارقة؛ فيتسوّر حامية التّيه، يَعْلق، تهيم روحه في أسواره العالية، ويبقى جسده ممزقاً، بين عالمين: تائهاً في الخيال، سيئَ المنظر تحت شمس الحقيقة.

لكنّ الحب أخفّ أعباء الأنفس السامية، فهو أمر يجيء كملحق مع الإنسان حين يصل إلى الحقيقة!

إنّه أمر يُشقي الناس لأنهم يرونه تملّكاً، حيازة؛ أو حتى لقاء.

لا يعني الحضور شيئاً للكثيرين، ولا يعني حبس لحظة الحب، أو أسر عينيْ الحبيب ورائحته في قارورة دهرية لا تُمسّ ولا ترى؛ لا يعني كل ذلك شيئاً لعم حمّاز مثلاً.

لو برز الله لي للحظة كما برزت تلك الفتاة لعم حمّاز لَما عبدته.

لو تبدّت لي حقيقة هذا الدين الممزّق بين الطوائف في أزقّة الحفاير المزدحمة لَما طاردتها، ولو غابت بعدها في جبل ما لاشتريت قنّينة عرق لتمدّني بالشجاعة وصرخت في صحن الكعبة: يا قوم إن حقيقتكم التي تزعمون لا تقوى على البقاء.

كل ذلك لأني لست نفساً سامية!

لكن أين هي؟

هذا ما يجعلني مدمناً، أعتقد أن عم حمّازاً كان محظوظاً، فقد أتيحت له فرصة للتغلّب على حبه، رآها، احتواها بنظره؛ كان ذلك ليكون كافياً بالنسبة له.

وأعتقد أن تلك الفرصة التي مُنحت له، هي التي أوصلته إلى حافة الأمر، ما كان عم حماز يحلم بمثل هذا، كان يكتفي بالصوت في ظلام غرفته السرية، بالخيال في عتمة عقده السادس؛ كان يعلم أنه لا يقوى على مواجهة كل هذا، ولكنها دفعته إلى احتمال ما لا طاقة له به.

لو نظرتُ إلى مينا نظرة عم حمّاز لفتاته مرّة واحدة لاكتفيت.

عندما استيقظتُ ضحى كان قد أنهى فطوره منذ ساعة؛ تحسّستُ وجهه عن بعد، ساهمَ الطّرف، متأملاً فنجانه، تعلوه هموم الدّنيا.

بعد محاولات لفتح حوار تبيّن جلياً أنّه غير راغب في الحديث، ربّما تكون تلك حساسية ما بعد المكاشفة!

شعرت بضيقه مني، فتناولت كسرة (تميز) وصببت (بيالة) شاي في صمت.

مضت الدّقائق الكسول تنهش تواصلنا المتوجّس، أحسستُ عمق ما اجترأتُ، هل كان علي أن أمثل ذلك الدور القصير لأشعر عم حمّازاً بكل هذه التعاسة.

هل يضيق بسنّه أم بشبابي، هل يغار من رؤيتي لسرّه المكنون، و الأهم هل ارتكبتُ أخطاء دون أن أدري؟

كنت متعاوناً جداً، حسب رأيي؛ بل كنت أميناً في تمثيل شخصيته؛ وطالما جرّ علي تعاوني متاعب نفسية هائلة.

حتى المطاوعة المحتسبين أشعرهم تعاوني بالغيرة؛ وقد كان إدراكي لذلك مزعجاً كالنوم

على إبرة.

ربّما يعني ذلك أن كل أشكال التعاون التي قمت بها كانت سيئة؟

دوري كحبيب في مسرحية عم حمّاز، كان مبتذلاً لأنّه كان تعمية لتلك الفتاة، واستغفالاً لقلبها المغفّل أصلاً!

أما دوري القديم في التعاون مع رجال الهيئة فقد كان ملفّقاً وسيئاً؛ لأنني قمت بدور ديني مفترض بدوافع غير دينية، وإن كانت ثمة مسوّغات دينية!

لا يكون الأمر طبيعياً إلا إذا كان السّبب مشتقاً من مسبّبه.

كان علي أن أكون عاشقاً حقيقياً حين قابلتها البارحة ولا أنظر بدهشة حسية لأُسعد عم حمّازاً، وكان علي أن أكون مجاهداً حقيقياً حين انخرطتُ في جوقة هيئة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولا أتصرّف بحميّة لأَرضى بما قمتُ به.

الآن أشعر بأسف أن الدور الوحيد الذي يليق بي، أن أكون زنديقا، أعاشر مينا، أجدّف، و أنام حيث يدركني الوسن؛ لأن لا شيء آخر طبيعي و أنا على هذه الحال.

لكن العزاء الوحيد أنني إذا أصررتُ على عيش تيهي، سأصل؛ هذا مؤكّد، سيكون هذا موفّقا لأنه مشتق من مسبّبه!

أما الأعمال الأخرى فلن تسعد أحداً حولي، أحرى أن تشعرني بالزهو.

أبي وعمّي رجلان صالحان؛ فهما لم يقوما بأشياء متناقضة، كانا جزءاً من مصفوفة دينية، منذ علقا برحم أمهما في تيه الصحراء الكبرى.

كل ما قاما به من عمل كان متناسقاً، وكاملاً؛ لهذا هما الآن كهلان سعيدان في المدينة المنورة، ينتظران ميتة هانئة، وقد جهزّا جيّداً أجوبة مقنعة للملَكين.

حتى تاريخهما شديد الوضوح.. نوعاً ما؛ كانت أمّهما في طفولتها فتاة غافلة حين زوّجها أبوها قسراً لابن عمه العجوز، أفاقت على تلك الصدمة، رجل أكبر من أبيها يبرز لها أعضاءه الجنسية بوقاحة، يحتضنها بلؤم، والجميع يبتسم في وجهها بسخرية بعد تلك الليلة القاسية، كرهتْ ذلك الأمر، بل هامتْ في الغابات، وتاهتْ بين «أصباي»[6] تتحدّث إلى أعشاب «أم ركبة»[7]و تصغي لها آذان «تورجة»[8] الفضولية.

حين أقنع أبوها صهره الذي هو لِدَته وابن عمّه بدا أن طلاق تلك الفتاة يشكّل حلاً أخيراً لجنونها الذي تندر به «البجوان»[9].

شاع في «الملازم»[10] و المنازل الرّعوية أمرُ تلك الفتاة الّتي تسمي الأشجار بأسماء عائلتها،

وتطارد الركبان «بآمجاليد»[11] شبه عارية!

كان أبوها شديد الشكيمة حازماً كما كان في البدء: طلّقْها وسأزوجك أختها الأصغر عندما «تُبلّح» (تُسمّن) في الخريف القادم!

كأنّ هذا الصّهر الذهبي رجل من تَمر كي تنهال عليه عروض البدو بهذا السّخاء.

أمضت سنواتها الأولى بعد الطّلاق في حالة من الجنون الوديع؛ أسلمها لحالة تديّن عارمة.

الدّين في البادية حقيقة ملموسة، فهو يمنح الحماية والغذاء، وهو أيضاً يعيد تقديم الشخص أمام العالم وأمام ذاته.

كم من مجنون خرج من جنونه ولياً، وكم من صعلوك عاد من تيهه زاهداً، وأخيراً كم من امرأة يائسة تجاوزت قهر الذكورة بفضله.

بعد وفاة أبيها الغاشم، تذوقت -ذلك الوقت فقط- طعم انتصارها، لكنه أوقعها في حرج نفسي كبير، لم تستطع الحزن لموت أبيها، شعرت بحس غرائبي تدفعه نوازع الجنون والتدين أنها بحاجة إلى توبة، بحاجة إلى أن تفعل شيئاً خالصاً، بعد سنوات من معايشة الألم، في لحظات التعافي من الجنون، قرّرتْ الجدّة أخيراً أنّ ما تبقى من دورة حياتها البائسة يجب أن تكرّسه لشيء واحد ترغب عميقاً في القيام به؛ قررت الحج!

وحين يرغب من لم يرغب قطّ بأمر، ويقرر من لم يقرّر مسبقاً أن يقوم بعمل، هكذا فجأة، دون إملاء من أحد، فإن كلّ قوى العالم يتضاءل سلطانها أمام عزمه.

انطلقتْ من عمق دهشة الحيّ النّازل في أبّهة الخريف، في وسط ما يسمى الآن بجمهورية موريتانيا، تفري القيعان، والقِلَت، والمستنقعات الموسميّة، والسهوب شبه الصّحراوية حتى وصلت تمبكتو بعد أشهر دون زاد أو خطة للتّنقّل.

وهناك تشبثت بالقوافل الجنوبية المقتحمة سواد فولتا العليا، والمشرّقة بشكل حاد من هناك إلى حوض نهر النّيجر، وتنقّلت من قرية إلى أخرى شمال النهر وشرقه حتّى حطّت بمدينة «فور لامي»[12] بعد انقضاء حول على اقتحامها الهول منفردة، وبعد أن وَصلتْ دموعَ الخريف في موريتانيا بدهشته من عزمها في تشاد.

كانت هي الأخرى متناسقة منذ جنونها، منذ رفضها العظيم لزوج لا يحفر بوله المرتعش في الرمل غاراً، ولا يحدث سمته الملتوي في السماء شقّاً، تماماً كالخنساء الشهوانية المستقلة قديماً من الجهة الترابية، و تماماً كابنيها الخالصين الآن من الجهة السماوية!

في مدينة «فورتو لامي» تقطّعت السّبل بالجدّة، ليست هنالك قوافل تتّجه شرقاً، و نهاية حدود العالم قريبة جداً!

العالم الفرنسي ينتهي في شمال تشاد، لتبدأ إمبراطورية بريطانيا الاستعمارية عند تخوم دارفور، والتّنقّل بين هذين العالمين قديماً يحتاج لوثائق، وقبل ذلك يحتاج إلى نقود لركوب الحافلة الوحيدة الّتي تمخر جبال وصحارى تشاد حاملة الحجاج والتّجار والنّمل العابث جيئة وذهاباً.

حتّى عم حمّاز حين كان طفلاً يردفه سيّده مغّاز على جمل طارقي أصيل، تقوده خبرة ذلك الأمير، ترتسم الصحراء واضحة في رأسه كخريطة مملوكية مرسومة بالنار على رأس عبد، حتى هما كانا ليسلما زمام جملهما البازل في سوق فورتو لامي لمشترٍ جديد، كيْ يدفعا ثمن ركوب علبة الحديد المزعجة تلك.

تلك العلبة الحديدية المهترئة وضعت حداً لعصر الجمل؛ في تلك الربوع على الأقل!

ورغم غرابة الأمر؛ فلم يأتِ الجمل من ضفاف الأطلسي ليعجز كبغل عن وصل صحراء تشاد بدارفور، ولكن السياسة الاستعمارية وضعت حداً لكفاحه العبثي في وصل صحراء مجدبة بأخرى.

في الحقيقة، كانت الصحراء تحتضر حين عبر الأمير مغّاز وجدتي، أما الآن فقد أصبحت جثة كبيرة هامدة.

في قديم الزّمان كانت القوافل تنطلق من غرب الصحراء، تحت حماية أمراء المغافرة و سلاطين الطوارق أشهراً، لتدخل في حماية السونغاي ثلاثة أشهر حتى تحط في أرض إمارات صوكوتو وكانم وباقرمي أشهراً أخرى، تسلمها للفور في دارفور حيث تضمن مملكة الكيرا حماية القوافل سبعين يوماً حتى تصل ضفاف النيل الخصيب.

هكذا يجد الحاج والمغامر والتاجر أُنْساً وتنوعاً؛ يشاهد الأسوَد والأحمر والأبيض من الناس، يسمع ألسنة الدنيا، يعيش ثقافات تلك الشعوب، يحس بآلامهم، خوفهم من الغارة والجفاف، وفرحهم بالقوافل والأمطار؛ يخاطب الأدغال، يصغي لبوح الصحارى، ويعبر العالم الدنيوي، حتى إذا ركب البحر إلى الحجاز أكمل دورة العالم المشهود.

كانت الجدة الوحيدة رغم دهشتها من تقطّع السّبل، تعيش وقتها في فورتولامي، تعمل في السّوق، وقد أتقنت طحن الحبوب في مهراس خشبي مقابل مِلء بطنها!

لم تكن مرفّهة في حياتها السّابقة، غير أن هذا العمل كان متروكاً للجواري في حيّها البدوي، طالما أشعرتها أصوات المهاريس بالملل قديماً، وخلال رحلتها الطويلة حين كانت تنزل في قرية إفريقية فلاحية، تراقب الزنجيات يتناوبن في إنزال المدقات الخشبية العملاقة لطحن الحبوب تشعر بالخدر.. و تستسلم للنّوم.

لم تعد ثمة بقية من بورجوازية البدو، عليها الآن أن تتدبّر أمرها، وإلا ماتت جوعا في فورتولامي الفرنسية.

لم تكن جدتي ككل المسافرين، لا تظهر العجلة لإكمال الرحلة، ولا الشوق للقفول، لهذا لم تتألم كثيراً حين علمت أن عليها أن تدفع مبلغاً يصل إلى 50 فرنكاً لركوب الحافلة.

مبلغ كهذا لن تجمعه بالتأكيد من طحن الحبوب، لكن جدتي كانت ترى أنها بدأت الحج منذ انطلاقها في ذلك اليوم الخريفي، لهذا فكل ما يحيط بها هو شكل من أشكال الطقوس التي عليها تأديتها بصبر، هذا الحس التعبّدي العميق مصدره الجنون واللامبالاة بلا شك.

لهذا أمضت أيامها؛ لكن أهم جزءٍ كانت تحب القيام به، هو توديع المسافرين على متن تلك الحافلة كل مرة، وتزويدهم بالطعام الذي تشتريه بما توفّره من طحن الحبوب!

إن طريقة جدتي في كنز المال عجيبة حقاً، فهي تنفق كل مداخيلها الزهيدة على المسافرين الذين يفارقونها كل أسبوعين.

ربما هي طريقة صوفية على نحو ما، موحِّدة بطريقة مميّزة، لكن أي اقتصادي يؤمن بموازنة الدخل مع المصروفات يعتبرها حماقة توصل فقط إلى الإفلاس.

أي إفلاس أيها الاقتصادي... إنها امرأة هائمة!

بعد أشهر حطّت طائرة فرنسية على أرض المطار المهترئة، طائرة صغيرة بالية تحمل وجوهاً كالحة، خرج ضابط استعماري، أنزل أثقالاً كثيرة من خلفية الطائرة، وأشار إلى أربعة أشخاص بالنّزول، تسلّم كل ذلك الجنود الفرنسيون المحلّيون على أرض المطار وانطلقت الطائرة مجدّداً!

تم سجن أولئك الرجال لأسابيع، غير أن الحامية العسكرية لم تجد سبباً لإطعام وإيواء هؤلاء النفر.

حاكم فورتولامي العسكري يخاطب الخمسة الذين قذفت بهم السّماء في مقر مكتبه، وقد جلبوا إليه مخفورين:

- يمنع عليكم العودة إلى ذلك المكان، ابقوا هنا، وعليكم الحضور كل يوم إلى المخفر لتسجيل حضوركم.

كان جدّي ضمن أولئك النّفر، حظه الغريب خلّصه من أسر مميت؛ فقبل مدة قصيرة حكمت عليه السلطة الاستعمارية بالنّفي إلى مستعمرة بعيدة رفقة شيخه وأعيان آخرين اتّهموا بمقاومة الامبراطورية الفرنسية؛ ومنذ نطق الحكم، والشّيخ ساهم الطّرف في محبسه يخبر جدّي أنه من بينهم جميعاً سيخرج من هذا الأسر، ولن يتمّ نفيه، لأن الله قضى أن يخرج من صلبه من «يكمل نصف تيزيريت الآخر»!

أصبحت تلك البشارة أمراً معروفاً لتلاميذ الشيخ، رغم أن أحداً لا يعرف لكلمة «تيزيريت»

معنى، ولم يجرؤ على السؤال، ولم يساورهم شكّ في خلاص جدّي وإنْ أحزنهم مصير الشّيخ، لكنّ الطّائرة أقلعت!

وفي تجلّ مهيب لنبوءة الشّيخ شعر القبطان أنّ حمولة تلك الطائرة زائدة بشكل خطير، لم يكن ثمة بدّ من إنزال بعض الركّاب والأمتعة في فورتولامي تفادياً للسّقوط!

اختار القائد إطلاق سراح الأقل شأناً، والتّخلص من كافّة أمتعة الأسرى، الّتي كانت كتباً و ألواحاً خشبية وملابس ومفارش من جلود الضأن وأغذية تقليدية! كان من ضمن الأقلّ شأناً ذلك المتاع ورجالاً أربعة من ضمنهم جدّي رحمه الله.

وقع عليه الاختيار، فكبّر بقيّة الأسرى؛ أما عبارة «الأقلّ شأناً» و «نبوءة الشّيخ» فكانت تفاصيل في عباءة الزّمن تجهلها عائلتنا في الحجاز!

خلّصتْ قوانين الفيزياء وديناميكا الهواء بمساعدة حاسمة من القوى الغيبية جدّي من الأسر، رغم أنف أحفاد أسلاف الفرنسيين من علماء الفيزياء.

سرعان ما ألهم جدّي أرواح التّجار المحلّيين والعامة بعلمه وورعه، وتأكّد القائد الفرنسي من زهده لانقطاعه في المسجد قريبا من الحامية العسكرية، فمنحه استثناء بتسجيل الحضور اسبوعياً.

مكّن هذا الأمر جدّي من التّنقل في المدينة والمبيت في المساجد الصغيرة، ومع الوقت أصبح معروفا بتديّنه، مشهوراً بسماحته، فانهالت عليه الهدايا؛ كان الأمر بسيطا، يذهب خلال أيام الأسبوع إلى القرى القريبة، يقيم في المسجد المحلي للقرية يوماً كاملاً يعظ القرويين والمزارعين، ويُقرئ الإمام المحلّي بعض السور والنّصوص، وفي اليوم التّالي يحضر المحلّيون الهدايا إكراماً للشّيخ.

لكنّ كل ذلك كان كفّارة عن ذنب الفيزياء في تخلّيه القسري عن مشايخه، لم يكن سعيداً كمُخلَّص، لكنه كان مسلّماً كمؤمن.

كان هو الآخر يحمل دوافعه، رغباته، وليست بالتأكيد رغبة مازوشية في مناصفة العذاب، قد تكون إحساساً بالدونية لأن الأقدار خلصته من تلقي الصعاب كالبقية، وقد تكون محض شوق ووجد إلى شيخه، كل ذلك محتمل، لكن من يشاهده يدرك مدى انشغاله هو الآخر بشيء ما، إعراضه عن كل ما عداه، وهذا ما لا يفهم وجوده الآخرون أحياناً فيسيئون فهمه بشكل رائع! يضعون تلك الهالة الرهيبة فوق رأس ذلك الشخص، يفهمونه وفق حاجتهم إلى مثال أعلى، واحترامهم لمن لا يتورط في أمورهم.

عند عودته يوماً إلى فورتولامي ليؤكّد حضوره لدى مفوّض الشرطة، توقّف في السّوق لتناول الغداء، وبيع بعض الهدايا، فالْتقى جدّتي الكادحة.

لم يلقِ كيوبيد بينهما سهماً، ولم يسعّر العشق بينهما أخدوداً، فقد كان كلّ منهما منشغلاً بما وراء النظر والرائحة!

لم يكن جدّي كعم حمّاز، ولا جدّتي كمينا، فكلاهما كان يسعى إلى شيء لا يريد امتلاكه.

عُقد اتّفاق خطير، بلغات مشتركة، وبلهجة حسانية واضحة، وعهود توصل كلاً منهما إلى شيء يرغب فيه دون إكراه من الآخر.

أدرك جدّي أنّه متى ما خرج من ملكوت فرنسا فسيتخلّص من عقدته المزمنة، أما الحج فسيكون اغتسالاً من كلّ جهد ناقص قام به، وهناك على ظهر ذلك الجبل الأجرد يمكنه شرح إخفاقه لآخر مرّة.

أما هي فكانت تريد أن تكمل رحلتها فقط!

- أتزوّجك، وأوصلك بحول الله إلى بيت الله الحرام.

- جزاك الله خيراً يا طالبي.

كان ردّاً بليغاً، فهو لم يمنح حبّاً، بل عملاً لا تستطيع ردّ جميله بقلبها الممسوس أو فرجها الغر، دعوة صالحة هي كل ما ألهمت قوله، وكان ردّاً موفّقاً آنس جدّي.

أما كلمة «طالبي» فهي كلّ ما تشير به جدّتي في حكاياتها إلى زوجها حتى أدركتُها عجوزاً خَرِفَةً في حي السيح بالمدينة المنورة تتحدّث عن شجر أفرنان (اليتوع) وحشائش «أم ركبة» و «طالبي» ومن يكمل «نصف تيزيريت الآخر»!

خطّط جدّي للهروب الكبير طوال أشهر، وأخيراً أحسّ أن صاحب الحافلة الوحيدة المغامر اللبناني، لا يمانع في نقله إذا ضاعف الأجرة؛ حين قابله في السّوق وعرض عليه الفكرة فاجأه «الشامي» كما يسمونه باستعداده، كان يمتلك خريطة محكمة للهروب، لكأنّ هذا العمل هو الجزء الأهم من عمله:

- وقّع حضورك غداً وانطلق إلى قرية تسمّى «جامكو» صبيحة الثلاثاء انتظرني على الطّريق وتنكّر في زيّ الطّوارق... لكن عليك دفع الأجرة الآن مئتي فرنك!

- حسنا، والزوجة؟

- ما بها؟... حسناً، ادفع أربع مائة فرنك وستجدها في الحافلة.

كان السّعر مبالغاً فيه، وهذا يبرّر حماسه، فربّما يكون هذا هو الجزء المربح من عمله؛ لكنّ جدّي كانت لديه عوائد جيّدة من بيع هدايا المؤمنين.

أقلعت الجدّة تماماً عن طحن الحبوب، متّخذة من ظل الحافلة بيتاً، وفي اليوم التّالي حطّ في مدينة فورتو لامي موكب مهيب لشيخ بيظاني قادم من موريتانيا مع تلامذته وأمير من بني حسّان.

استفتتْ جدّتي الشّيخ في أمور تخص الانتفاخ الّذي بدأ يتصاعد أسفل بطنها، وأخبرها أنّ حملها مبارك بحول الله، وعقدها صحيح صحّة وجوب الحج على المستطيع!

كان الشّيخ والطّبيب في ثوب واحد، أما جدّتي فكانت عديمة التّمييز لأنها تنظر إلى جهة واحدة منذ أعوام.

صباح الثلاثاء، فجراً، اللبناني السّكير يصرخ:

- اللعنة على ذلك العجوز أين هو؟ لن أنتظر هنا ليلقي علي الجنادر القبض بتهمة تهريب مجرم ويصادروا حافلتي.

جدّتي تطالع بفضول وتسليم عبر شبّاك الحافلة في اليباب، قفرٌ على امتداد البصر، سهب أحمر يمتد في كل اتّجاه؛ وسائق مخمور يسبُّ كل الأديان السّماوية في المقدّمة، وشيخ وقور يكبّر خوفاً من صاعقة تسحق الحافلة، أما الأمير المغفري فقد غطّ في نوم عميق حين وجد المقاعد وثيرة مقارنة بوطاء الجمل.

انطلقت الحافلة بعد توقّف قصير، تمْخر القفر بعد شروق الشمس، وكانت آخر ذكرى من «طالبي» أن أخلف الموعد.

لم يُذكر في أدبيات العائلة بعدها، هل أعدّ خطّة معاكسة للهروب غرباً والعودة إلى صحرائه، مستغلاً تمويه رحلة الحج الشّرقية ليكمل «نصف تيزيريت الآخر»؟ هل ألقي عليه القبض؟ هل تاه؟ هل أخذته سِنة آخر الليل؟

لكنّ ما علِق منه ببطن جدّتي كان أكثر من ذكرى، لقد أسّس عائلة في الهباء، على ظهر راحلة حديدية؛ وستكمل تلك المرأة الفصل المغاير من جهاد «طالبي» في مسار معاكس تماماً، ستتمدّد بقاياه في فجٍّ آخر يلعن كل ما أحبّ «طالبي» يوماً.

إنّها لحظات عابرة، منحت جدّتي كل ما هو باقٍ من جدّي، واختفى!

وهكذا هي الحقيقة لا تُمتلك، لا تحتبس، بل تلوح اتفاقاً، فتترك أثراً يغذي كفاح الملهمين لتصوّر حقيقة مغايرة!

حين ظهرت تلك الفتاة لعم حمّاز في ظلمة الحفاير، وأججتْ عشقه، أدرك استحالة امتلاك الحقيقة!

أدرك قصور أدواته عن التعامل مع هذا المستوى من الجمال، وفقر مواهبه أمام هذه الظاهرة، لم يكن تقدّمه في السن أكبر هواجسه، ولا جذوره، ولا حتى صحته التي بدأت في الاهتزاز، أو سمْته الذي أخذ في التقوس أكثر حين يصعد جبل عمر؛ لم تكن تلك كل منغصاته... ولا حتى كونه بلا هوية تقريباً، لا عائلة، لا مجتمع يقدم له البدائل.

كان الأمر بالنسبة إليه يصعد فوق هذه العراقيل التي تكفي لقتل روح أي مقاتل، فهذه الفتاة تعتقد الآن أنه غير حماز العجوز، تؤمن بغيره، ولا يمكن بحال ردها إلى درك الكهولة، أو إقناعها بحماز العجوز، بعد ذلك تَشخُصُ الاعتبارات السابقة... تسدّد آخر لكمة لقلبه.

كان رجلاً يرغب في امتلاك شيء أحبه، و ها هو يعجز أخيراً عن تصور هذا الامتلاك.

لقد رأى حقيقة أخرى مغايرة!

يمكن أن يكون هذا هو ما حوّله إلى كومة تعاسة، فقد أنفق أياماً دون كلام، قاطَع الحرم!

وفي يومه الثالث كسر عوده، مزّق تلك الأوتار اللذيذة، التي تعلّمتُ من وقعها الفروق الطفيفة بين المقامات الحجازية المتداخلة؛ سحب أيضاً في سوْرته تلك السّلك النحاسي وألقى بالهاتف من هامة جبل عمر، ترك الغرفة السرّية مشرعة، رأيت ما بداخلها، سريراً وملابس معلّقة.. عدا مكان الهاتف المحطّم، كانت تلك أسمال الحقيقة.

كان ذلك سره المصون في غرفته السرية، وكانت تلك نخبة أوقاته حين يتحدث عبر ذلك الهاتف، يعيش واقعاً مختلفاً، مع فتاة تؤمن به.

تغيّر كثيراً هذا الرجل المنقطع عن التغيير منذ عقود، في سحابة أيام قليلة عَبَر قنطرة النهر الراكد.. إلى نهر متجمد!

أقلع عن التّدخين، انطوى داخل همومه، توقّف عن متابعة خديجة بن قنة... وفي يومه الرابع حدثت انفراجة غريبة انتظم من جديد في الذهاب إلى الحرم، هذه المرّة من السّحَر حتى صلاة العشاء.

قام في هزيع ليلته الرابعة بعد الكارثة، كمسيح في قيامته، أو كفينيق ينفض جمر الأيام السالفة؛ بدّل ملابسه لأول مرة، تعطر بدهن العود البيتي، مشّط ذقنه المتلبّد كحلوى غزل البنات... وذهب إلى بيت الله المفتوح 24/24.

تركني وحيداً، وتعلّق بالله! تركني وحيداً في داره، إطلالات سامي المهوِّي لا تؤنسني.

ها أنا أعترف الآن، على العكس منه، أشعر بفقده، أشعر أن غيابه الطويل هجر، ونسكه الجديد ضيقٌ منه بي، لم أكن لأعبر لأحدهم عن تمسكي به يوماً، وأخيراً، أحسستُ بالفقد في هذا الرجل العجوز الصامت!

أدركت أنني آخر صلة لعم حمّاز بزمنه الرديء، فكوّمتُ شوقي إليه، وحزمتُ أطناب خيمة الفقد، وقررتُ ذات مساء أن أغادر أيضاً!

كنت حزيناً لأني أدركت مقامي لديه، رغم كل أشكال التفهّم، كنت حزيناً لأنني ظهرتُ أخيراً كإضافة هامشية مبتذلة في حياة عم حمّاز!

## (5)
## حلقات العزلة!

ولّوا المدينة وجهَكم ودعوني

أنا في هوايَ وعزلتي وجنوني

عودوا إلى البلد الأمين وغادروا

بلداً لبعد الناس غيرَ أمين!

خليل مطران

وحيداً في (عشّة) عم حمّاز والشمس أوشكت على الغروب، فوق هامة جبل عمر ألمح غمزتها الأخيرة وهي تحتجب خلف الجبال الغربية؛ أما المكّيون أسفل الجبل فقد لفهم الغروب بعباءته الثقيلة.

عليّ الرّحيل؛ لقد استنفدت ضيافة عم حمّاز، وكدت أن أستنفد سماحته، لقد أصبحت إحالة إلى أحزانه، علي الرحيل فعلاً، ولكن إلى أين؟

تحسّستُ جيبي، بقيت أربعون ريالاً، هل تكفي لإكمال تيهي؟ وهل يحتاج التّيه لمال أصلاً!

تذكّرتُ بعض قراءاتي القريبة وأبا نصر الطّوسي يضع مقام الفقر أولاً ضمن مقاماته السبعة، تذكّرتُ اعتصام الحلاّج على جبل الصفا في أجيج فصل الصّيف، واحتجاب ابن تيمية في منارة جامع دمشق؛ وأخيراً تذكّرتُ رباط عبد الله بن ياسين في جزيرة (تيدرة) الأطلسية.

كان أولئك بالمعنى الاقتصادي عاطلين عن العمل، لكن شيئاً دعاهم للالتقاء في نقطة واحدة.

نقطة غير سلفية أو أشعرية، وغير حلولية، ولا صوفية، وإن كانت تبدو دائماً ميالة في ذهن أحدهم إلى واحد من هذه الأشياء.

العزلة وضع لاجتلاء الحقيقة، أما الفقر فهو تخليص لهذا التجلي من مؤثرات المادة؛ على أن النتيجة قد تغدو على يد آخرين آلة مادية محاطة برهبة الحقيقة فقط!

هل علي أن أعود بلا سبب إلى مينا؟ ومن أية زاوية؟

مينا مدينة ألعاب، ليس من الصّعب دخولها، لكن علي أن أبقى بعيداً لكي لا أشعر بالدوران، ويقتلني الضجيج.

هبطتُ الجبل، درجاتُ القرويين التي بنيت خلال عقود طويلة، وبجهد تراكمي؛ تشعرني بالهبوط إلى درك التّعاسة، كلما أهبط درجة تزداد الحُلكة من حولي، تماماً كطقوس اللعن التي أقامها الحاخامات للعن المرتد سبينوزا، كلما تلا الحاخام لعنة في حقه أطفئت شمعة ضمن ألف شمعة.. أو ألف لعنة؛ حتى لف محفلُ الكنيس ظلام مرعب؛ أشعر أنني أتردى في الظلمة، لكن ذلك بفعل زحف الغروب غالباً!

لم أعين وجهة محدّدة، ولا خريطة في ذهني، حتّى ما علي القيام به بدا ثقيلاً.

قرّرتُ القيام به على كل حال، دخلت كبينة اتصالات مزدحمة؛ النّاس هنا تقف بالطابور، ولغات العالم تتدافع من الغرف الصّغيرة.

يمنيّ يحادث أهله، يسأل عن حال الثّور، وتيس العيد الّذي يخضع لعملية تسمين، أندونيسي يتحدث بنغم طفولي مع ذويه، وأفغاني يخلّل لحيته البشتونية بأصابعه ويتحدّث في هدوء.

مكة تَألَف ألسنة العالم، لغة قريش التي بترت ألسنة القبائل وطمست مفرداتها الغريبة، تنحني الآن أمام مدّ اللغات غير الشقيقة.

واللهجة الحجازية التي تمرّدت على لسان قريش تهضم مفردات كثيرة، جلبها المهاجرون والحجاج، كلمات تركية فرضتها السلطة العثمانية، مفردات مصرية جلبها الأُنس والثقافة ومدّ البحر الأحمر، وأخرى يمنية فرضها الجوار؛ ومفردات إفريقية وأوردية وجاوية و حبشية.

أحرى بعادات كثيرة، أصبحت من صميم الثقافة المكية، رغم تميّز اللحن الحجازي الموسيقي وعراقته، إلا أنه يدين للمقامات الصنعانية والدانات الحضرمية بتهذيب ألحانه، كما تدين الفنون الشعبية التي اشتهر بها المكيون كالمزمار لفنون الرقص الحربي الإفريقي الذي جلبته هجرة الفلاليت والهوسة والبرنو إلى مكة.

ما زالت بعض أهازيج «المزمار» ومصطلحاته باللغات الإفريقية كما هي دون تعريب.

مكة هي من يضغط على البحر الأحمر كي يقترب من إفريقيا، ربما يختفي هذا البحر يوماً إذا استمرت مكة في الضغط.

مكة هي من تختطف ألباب الآسيويين والهنود والفرس والترك، تسرقهم من جنانهم الخضر وتزرعهم عميقاً في هذا الوادي الذي لا ينبت الزرع.

وقفتُ كنبات لين العود في الصف الممتد بجانب الباب الضيّق، وحين جاء دوري حددت قيمة

المكالمة بريالين فقط، ثم أجريت المحادثة التالية:

- ....

- أنا بخير، كيف حالك أنتِ.

- بخير، أبوك ما زال على حالته، عبد الله حاول أن تتنازل وتعود إلى البيت.

- أتنازل عن ماذا؟ أطلق لحيتي؟ هي الآن طويلة لأنني لم أعد أهتم بحلاقتها هههه هل ألبس ثوباً قصيراً؟.

- هداك الله، رحم الله ماما لو كانت هنا لَما حدث هذا؛ كانت لتنهي خطبتك من سلمى دون مشكلات.

- المهم قبّلي الأبناء نيابة عني.

- هل لديكَ نقود؟

- طوط.. طوط..

بالطّبع ليست لدي وإلا أكملتُ المحادثة؛ لم أطلب دقائق إضافية رغم الثمانية والثلاثين ريالاً في جيبي.

بعد جلسة على منحدر جبل عمر قرّرت الذّهاب إلى مكان مضياف؛ اشتريت علبتي سجائر وقنينة ماء بلاستيكية بسعة لترين، أوقفت سيارة أجرة وقلت لسائقها:

- جبل النّور!

في الطّريق تأكّدتُ أن هذا ليس هو الطريق الذي سلكه النبي المكرّم إلى غار حراء، كانت شعائر صلاة العشاء تغلق الدّكاكين، والمآذن تصدح باسمه؛ هل كان ليترك كلّ هذه الأصوات التي تناديه ويذهب إلى غار!

في كل مكان من مكة تختلف الوجوه والاهتمامات، هنا أسفل جبل النور مستعمرة للطوارق، الوجوه المألوفة تشعرني بالأنس، ما تركته الرمال في جينات الطوارق لا يمكن أن تطمسه صخور مكة.

الجميل في مكة المكرمة أنها تمنح للشعوب فرصة للاحتفاظ بشيء من أنفسهم، بل هي في عصرها الحالي تفضلهم كذلك؛ ما زال البورميون في (قوز النكاسة) يجدون صعوبة في نطق اللهجة الحجازية، أحرف طريفة مثل الحاء والعين وأدوات التعريف في الأسماء غير المعرفة، فعندما يقول لك أحدهم كنت في المكة، فهو لا يعبث باللغة بل يعلن أنه مكاوي من (قوز النكاسة).

كذلك الطوارق لم يستطيعوا اعتياد نطق حرف القاف بشكل سلس، أما الهوسة والبرنو والفلاليت في أجيالهم الحديثة فقد تجاوزا أكثر ذلك.

لكن كل من يتحدث في مكة، أو يطلق سراح مفردات قليلة، يمكن تحديد هويته بشكل من الأشكال.

في مهبط جبل النور تنمو أجيال من الطوارق، ترتسم (غاو) و(آغا دز) والصحراء الكبرى في عيونهم، تتماهى هويتهم مع الشتات، لم يشعر كثير منهم بوجود وطن على نحو جبري في إفريقيا.. ولا في مكة.

منذ أن ماتت الصحراء تيتّم أبناؤها، نمت في عيونهم عروق الأحزان المالحة، وفي أطرافهم تمدّدت عاهة الكساح المتكلّسة، كانوا قديماً يجوبون تلك المتاهة من شرق القارة حتى ضفاف الأطلسي، يعرفون كل غَرفة ماء مخبوءة في ألم الرمال، كل قالب ملح بين تيهيْن، مَدرجَ كل سافية، مهبط كل حصاة، ووجهة كل ناقة شرود.

الآن، استوطنوا العجز، تكلّست حاسة الرحيل الأبدية، فأصبحوا محكومين بمسافات قصيرة، والطارقي كالجمل تماماً، غيور شديد النزعة إلى الجموح.

لا أعلم لمَ لا يسكن عم حماز في هذه المنطقة؟ هنا سيجد العزاء، سيجد امرأة تنظر إليه بندّية، يمكنه البروز إليها حاسراً دون خجل، هنا ستنشط تلك الغدد المتيبّسة تحت لسانه، سينطق لغة آمغاره الراحل، هنا أيضاً جبل كجبل عمر.

لكن ماذا سيفعل بإرثه المكي؟ ماذا سيفعل بعوده الحجازي، بثقافته، طعم سوبيا الخضري، وفرموزا التيسير، والغباني الكشميرية، والعمامة الصفراء، ماذا سيفعل بنقرزانه، وخاتمه العقيقي، وذكريات مراجيحه، وتجواله في عيون الصبية الدافقة بالفرح صباح العيد!

يصعب التخلص من كل ذلك، يصعب الفرار من مكة.. حتى ولو كان إلى داخلِها، إلى أين تفر من مكة ما دمت في مكة؟... لا يسعك وأنت في مكة إلا أن تكون مكياً أصيلاً، أو تصبح مكياً تائهاً فحسب.

من حقه أن يختار منفاه الداخلي، كما اخترت منفاي الخارجي، كما هجرت أهلي في رابعة الزمان.

تجاوزتُ تلك المستعمرة الحزينة، أشحذ عزيمتي حين طالعت هامة الجبل، كانت قمّة مهيبة محبطة للعزم.

حين تسلّقتُ الجبل الأشم، توقّفتُ في السفوح لألتقط أنفاسي، (يووه) أين هذا من جبل عمر؟

يرتفع الجبل قرابة نصف ميل على شكل رأسي، لكأنّي أتسلق شجرة مشياً!.

من الجيد أنني تسلقت ثلثه في نفس واحد، ربما أفادني تسلّق جبل عمر كثيراً، ولم يحبطني ذلك التركي الذي قال لي عند سفح الجبل: يستغرق الصعود ثلاث ساعات!

اكتشفت أمراً مدهشاً، هنا في الأعالي، تبرز حياة أخرى مخالفة لتلك التي في أسفل الجبل، تماما كما تنمو أشجار المرتفعات في تباين إحيائي عن أشجار السفوح.

إنّه الجزء المهاجر من باكستان، جمهورية المؤمنين والتجار الصغار وباعة المرطبات، دكاكين على المرتفعات، تبيع كل ما يحتاجه المصعّد بأجر مضاعف، منبوذون ومتسوّلون في الانحناءات يغطون في نوم بسيط، يفيقون منه ابتغاء صدقة حال مرورك بجانبهم، وحمّالون أشداء يعتِلون قوالب الثّلج وكراتين المشروبات إلى هامة الجبل.

ثمّة أيضاً ورشة بناء دائمة، جانب مشرق، هؤلاء المنبوذون يعكفون كرهبان على تمهيد الدرجات المصعّدة، وترميم كسرها بالاسمنت؛ لا يمكن لموظفي البلدية البدناء الوصول إلى هذه الجمهورية العالية.

في استراحتي الثانية جلست خائر القوى، تدور برأسي فكرة جادة حول الهبوط وقطع المهمة؛ في أثناء ذلك مرّ بجانبي كهل باكستاني حفر الزمن أخاديد في وجهه، ونحت الجوع جسمه، هزيلاً ناحل الجسم، لكن ما هالني هو ما يحمل فوق رأسه: قالب ثلج يزن أكثر من 20 كلغ!

لم أستطع النظر إليه كثيراً، استحييت... ثم نهضت ألهث وألعن فيليب موريس.

حين أوشكت أن أصل تنبّهتُ لمغامرة أخرى، علي أن أهبط بطريقة حادة من صخرة بارزة لأصل إلى الجبل.

هذا ما كان يقوم به الرسول الأعظم في ليال كثيرة، كان عملاً بدنياً شاقاً يجعل الرياضة الروحية عملاً يشبه الاسترخاء.

هبطت كغيمة مثقلة، أنفث النيكوتين، أنزّ بالعَرق والإرهاق.

أخيراً، أنا أمام غار حراء!

حميم جداً، صغير، وشديد الارتفاع، أضاء قنديل السّماء المكتمل كل جوانبه، الرسوم السندية والخطوط الفارسية على جنباته والزخرفات تشعرك أنك تطالع وجه شاحنة باكستانية (مدلّلة)!

سجّادات صلاة مهترئة ملقية، رجل وحيد يصلي في جوف الغار، جلستُ على صخرة ناتئة وشربت جرعة ماء، ثمّ أشعلت سيجارة!

هل جئت لأكون ثاني اثنين؟ ما زال الرّجل يصلّي دون أن يوجّه إلي كلمة!

مكة بالأسفل مضاءة بالإيمان، و النور الإلهي، والكهرباء.

«الصّلاة في هذا المكان بدعة» كنت أعتقد هذا، حين كنّا نطارد المتصوّفة في شعاب جبل أُحد، كنت أعتقد أنني أحمي حياتهم على الأقل فربّما سقط أحدهم أو زلّت به قدمه من قمّة الجبل.

(أووووه) كان علي أن أتعاون مع الهيئة لأدخل في تيهي الكبير!

خلال سنوات قبل ذلك كنت شاباً شديد التديّن، ذهبتُ بالدّين إلى نقطة تحمّله القصوى، كان عليه أن يتشكّل في قالب جديد كي لا يفقد إثارته.

أحسستُ، الآن، أن الهيئة كانت أخف الضررين، فلو تحوّلت إلى مقاتل أصولي لَما عاد في مقدوري تصحيح تلك الوجهة.

لأن بعض وجهات الفكر لشدّة صدقها تكون دون عودة، إنها توصلك بسرعة إلى هدفك أو تصطدم بسرعة هائلة في جدار نهاية الحقيقة!

وهل للحقيقة نهاية؟ هذا ما على آينشتاين روحي أن يحدّده، من المؤكد أن لها نهاية، لهذا يحتال بعض المستشرفين فيصوّرها كدائرة، كي يمحوّ كلتا النقطتين، تلك التي انطلقت منها، والأخرى التي لفظت أنفاسها لديها.

حين أوغلت في التّديّن كان علي أن أكون عابداً، أذوب في الطّقوس وأموت فيها؛ أو أجد طريقة أخرى!

أتذكّر الآن رأي معاوية في عبد الله بن عمر (رجل وَقَدَهُ الورع)، بمعنى أنه ميّت لا يدرك الحقائق التي تستقر حوله لقد سلبه الورع حرية الإرادة؛ لا خطر منه عليك يا يزيد!

الغريب أن ما يعيبه معاوية من فناء في المعبود تمنّاه الحلاج، وتمنته رابعة، وتمنّاه آلاف المتأملين؛ لكنّ معاوية ألهمني هنا!

كان يجب عليّ أن أغيّر رتابة العبادة، البكور إلى الحرم مع والدي، حضور الدروس الفقهية، الصّلاة، انتظار يوم زواجي من سلمى.

بدت مغامرة الهيئة واعدة بالإثارة، خلال أسابيع تسبّبتُ تقريباً في وقف تجارة الزواج السرّي الّذي كان يحترفه الكثير من جماعتنا.

مداهمات لشقق داخل مناطق السّيح، تبليغ عن كل مظهر اختلاط بين الرّجال والنّساء؛ كان الأمر بسيطاً، أتجوّل في السيح و أسجل الملاحظات، أبلغها للشّيخ سلمان مع وصف (العناوين) فيقول: يااااشيخ الله يثيبيبك!

لو كنت سعودياً كعمّي أو ابنته سلمى لوظفني الشيخ سلمان بشكل رسمي في فرعه، لم أتحسّر كثيراً ولم أسعَ للمال من خلال ذلك العمل.

كنت أجيش بالحمية لاسم الشناقطة، أما الدين فكان يشدّ أزري، لقد كنتُ أخلط أمرين طالما اختلطا: الهوية والدين؛ ومتى كانت لي هوية أصلاً!

ربما لو كنت موريتانياً عادياً دون عقد لَما اكترثت كثيراً لأمر الهوية، ولو كنت سعودياً عادياً لكان عملي أكثر تناسقاً وإقناعاً لي.

تنبّهتُ مرة أخرى إلى الرّجل الوحيد في الغار، ما زال قائماً يصلّي.

تبيّنت ملامحه الباكستانية، كان صوفياً بلا شك، من تلك الفرق الصوفية وسيمة الأتباع، فهندامه الجميل، وعمامته الخضراء أوحت بذلك؛ أعلم منذ مدّة أن لكل نزعة سمتاً، إنه أمر يزيد في الخلط، فالسّمتُ يهب الحقيقة هويّة.

أما الحقيقة السافرة، تلك الّتي لا سمت لها فهي ما يبحث عنه الجادّون حين اعتزلوا العالم، هي ما جئت لأجله.

تختلف دوافعي الآن، وهذا ما يعزز الثقة لدي في وقت أكاد فيه أن أفقد الإيمان بكل شيء، تلك الحقيقة السافرة لم تكن هي ما دعاني للتّوغّل في عمليّات التبليغ قديماً عن النّساء والرّجال.

أما السّمتُ والهويّة فلم يمنحاني يوماً شيئاً ذا بال، أتذكر شماغي الأحمر «السادة» وثوبي القصير، هندامي البسيط وشعرات ذقني الفتية، ذلك المظهر الذي كان يسعد أبي، أتذكّر كرهي الشّديد للمبتدعة، عزفتُ عن علْم بعض الشناقطة من جماعتنا لأن بعض أولئك كان يضمر «فساداً في الطّوية» كما كان بعض الإخوان يقول.

كانت أولى بذور الاستغراب، في الجامعة الإسلامية، خلال سنتي الأولى والأخيرة، أستاذ اللغة العربية يستشهد برأي أحد أعلام اللغة العربية في عصرنا فيقول: والراجح في هذا الإعراب ما ذكره الشيخ «احمدّو» الشنقيطي لعنه الله!

كنت أتفق معه على أن الشيخ «احمدّو» صاحب بدعة، فقد سمعتُ أنه يدرّس كتاب «إضاءة الدّجنة»[13] لكنّني عجبت من استشهاده به.

لاحقاً زال العجب، فقد أدركتُ أن تفسير الزمخشري المعتزلي يعتبر عمدة لدينا من جهة اللغة، لكنّ ما وخزني أن كافّة المشتغلين باللغة قديماً يصنّفون ضمن فئة الفسقة!

هكذا بدأ الوخز!

أمّة يلعن آخرها أولها، لو أمكن أن أصل إلى معرفة الطّبعة النّهائية من رأي (المشايخ) في (المشايخ) لَما حدث كل هذا.

في المنزل أبي وعمّي يسيران في الرّكب نفسه؛ لهذا كنت أنطوي كل يوم على وخزي الخاص، وسرعان ما بدأ في التّضخم.

الآن في وقت متأخّر من دخولي تلك المتاهة أجلس على قمّة هذا الجبل، بجانب الغار، لا أرى نوراً كهربائياً داخل الغار سوى ما يسقط رأسياً من السّماء، البدر المشعّ ينير لي عتمة الجبل، وفي الأسفل مكة كتلة من نور.

الصّوفي العابد يصل ناشئة الليل بوهنه، وأنا أشعل السيجارة تلو الأخرى، كلانا في عزلة، هو لا يبالي بوجودي، وأنا لا أبالي بوجود العالم.

إنّها حلقات العزلة الرّهيبة، تتضاعف حولي وحوله، وكلانا يشعر بالرضى كلما التفّ أكثر في شرنقته.

هي حالة لاجتلاء الحقيقة لا ريب، فالحقيقة لا تظهر للأعداد وإنما تصِل الآحاد بسرها، هو الآن في محرابه، يخلص إيمانه، يقوم بالتواصل مباشرة مع حقيقته، ربما يبكي الآن، أو يضحك، فكتفه يتحرك بشكل لافت.

وأنا أمور بالفراغ، أطالع جدران الغار، أتخيّل عزلة النبي فيه، تركه لمكة الوثنية هناك على مرمى البصر، تأمّله دون وحي، دون دليل، حتى وصل أخيراً إلى الحال المناسب، في تلك اللحظة هبط إليه المَلَك الأعظم.

لاحقاً حين أصبح رسولاً، صار المَلَكُ الأعظم يدخل بيته متى أراد؛ أصبح على صلة مباشرة بالملأ الأعلى.

لا أطمح إلى نبوءة جديدة هنا، أرغب فقط في اجتلاء الحقيقة التي ستريحني، فهمها على وجهها الصحيح، بعدها يسعُ الحقيقة أن تطيف بي في الأزقة، وتغشاني في المجالس.

لا أرغب هنا في تملّكها، بل فهمها، وتلك غاية ما أودّ، فقد رفضت فهم الآخرين لها، وتملّكهم عليها، لا شك أنها تحتفظ بأسرارها لكل من يبحث عنها، وتمنحه منها ما يستحق!

لهذا لا أجد غرابة في وحدتي هذه، إحساسي بها، رغم وجود الصوفي الذائب في صلاته.

حتى أيامي الصّاخبة تلك، حين كنت على طريق واضح، أؤمن بشيء واحد صلب، كنت أضاعف عزلتي يقيناً؛ الآن أشعر أنّنا جميعاً نسكن في عالم مزدحم خال!

أبي السّلفي المتديّن شارك عمّي بطن أمه، طفولته، دينه؛ وحين بلغا افترق مصيرهما القانوني، ومنذ البدء كانا في حالة فراق قانونية لكنّ أحداً منهما لم يكن يعلم.

حين ولدتهما جدّتي في دارفور وتخلّفتْ عن قافلة الحج، أخبرها الشّيخ الوقور أن كل أمرها يسر، وعليها أن تكمل رحلتها من قابل، وأخبرها كذلك أنّه ينوي الجوار بالمدينة المنوّرة وسيرسل إليها من يوصلها إليه!

بعد عام صارت جدّتي زوجة للشّيخ في المدينة المنوّرة، وقد وهب اسمه القانوني لعمّي

لتتسنى له الدراسة النّظامية، أما أبي فقد آثر المكوث عند الشّيخ وتلقي العلوم التقليدية منه.

بعد سنوات منح الملك سعود الجنسية للشّيخ فأصبح عمّي سعودياً، شاءت رغباتُ عمّي أن يعود لتلقّي العلم من الشّيخ وترك المدرسة، وتحرّك والدي في الاتجاه المعاكس، درس وأكمل كل مراحل التعليم.

تمت تنشئة والدي وعمّي على يد الشيخ الذي تحول بزاوية حادة في معتقده من الأشعرية إلى السّلفية، وفي علمه من الاعتماد على الفقه المالكي إلى كتب الحديث والحنابلة.

تقريباً تخصص الشيخ في العقيدة، وترك لوالدي وعمي تراثاً هائلاً من مناظرة المتصوّفة، والشّيعة والفرق الكلامية التراثية الّتي لم تعد موجودة كالمعتزلة والجهمية.

منذ اتخاذ ذلك الإجراء البسيط في تحديد جنسية كل منهما، كانا يدخلان في إجراءات العزلة دون علمهما.

الآن؛ يعيش عمّي وأبي في جوّ واحد، مبنى واحدٍ، بأفكار موحّدة، ومظهر متقارب، وهويتين.

من الصّعب أن أشرح ما يتبع ذلك من فرص وتفاوت، ومشاعر سلبية.

كلّما أدركتُ حقيقة تاريخ عائلتي أشعر بعظمة ما يمكن أن تحدثه الشيزوفرينيا إذا تملّكت شخصية العائلة.

أعتقد أن ثَمّ نقاطاً غامضة بعد، وهذا ما سيشكّل لي الصدمة الأكبر لاحقاً.

الغار موحش جداً، غادره الوحي قبل أكثر من ألف عام، وهذا العابد يكمل صلاته كأنّ قطة مرّت بالجوار.

أنا بحاجة لمجالسة مينا تحديداً، هي مدينة ألعاب لن ترفضني، دقائق من صخبها تعيد ترتيب هدوئي الممل.

أدرك الآن أنّ لحظات قليلة فقط بإمكانها فكّ عزلتي!

لم يصلني الإلهام في هذه الوحدة هنا، أحمل رغبة في الكلام، أو الاستماع... أو حتى الاحتضان.

فلثوان قليلة حين ألتحم بمينا، أوغل في تخومها أغفل عن العالم، أفكّ حلقات العزلة الرّهيبة حلقة إثر أخرى.

أشارك شخصاً ما شيئاً عميقاً، وأنفتح عليه بكامل مشاعري الأصلية، أغفل عن العالم، ألقي

بأفكاري وتوجّساتي بعيداً، لكأنّما أضغط زرّاً فيتوقف دوران الأرض، وأنسلخ من أسمالي ودروعي لألتحم بها عارياً، أشعر أن العالم كلّه في قبضتي.

أكره المشاركة، لكن تلك اللحظة الحميمة هي التي يتصف فيها كل إنسان بالكرم، ببذل كل ما لديه، في تلك اللحظة يصفو الذهن... يصبح فارغاً تماماً، في تلك اللحظة تشترك مع آخر في أعمق نقطة من ذاتك، بكل كرم وصفاء، وهكذا دون مبررات تصبح الذاتان ذاتاً واحدة!

ربّما في تلك اللحظة الاستثنائية تحديداً ألغي وجود العالم؛ أعلن أن الكون هو أنا.

أعلن أنني أنا هو مينا.

أن مينا هي أنا.

ولا شيء آخر سوانا ليس في هذا الكوكب فحسب، بل في أي مكان آخر في الكون.

في تلك اللحظة يسْبتُ الذهن تماماً، تصبح الحواس ذهناً، ويصبح الذهن حاسة، يستغرق في الخدر، والذهن هو من يتعبني للبحث عن أجوبة.

يصيح به جسد مينا: هيه... أنا الحقيقة، هل تشعر الآن بشيء آخر سواي؟ كلا، هل تقدس شيئاً آخر سواي في هذه اللحظة؟ كلا، أنا كل شيء؟ أجل... أنتِ كل شيء!

إنّها عبقرية الحديث النبوي ودقّته في تصيّد معاني السلوك البشري كما لم يدركها النووي: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»!

وهي عبقرية الجسد، فهو يردّ بكل عنفوان على نزق الوعي، حين يحطم حلقات العزلة!

## (6)
## وكر الشكوى!

أتحسبني باكرتُ بعدك لذة

أبا الفضل أو رفّعت عن عاتق خدراً؟!

أبو نواس

أسفل العمارة، أراجع كبريائي المصنوع من الهلام؛ هل علي الصّعود؟

لا أملك خياراً آخر، أنا بحاجة إلى مينا، وليكن آخر لقاء!

أقنعتُ نفسي بذلك، ليحدث أي شيء فأنا لا أهتم، ملابسي المتّسخة، ثوبي المبقّع، مظهري الكئيب، كلّ ذلك يجعلني مهيأ لمغامرة، أنا كاميكازي حقيقي من الناحية المظهرية لألقي بنفسي على وكر العرسان المهندمين هذا.

أجلس قليلاً لأشعل سيجارة في آخر الليل أمام باب العمارة، الدّوريات تنشط حولي، منظري كرجل يائس سيثير فضولهم عن قريب؛ تتوقّف سيارة أجرة، تنزل نسوة عائدات من رحلة ما، تنوء إحداهن بأكياس تسوّق مليئة فتسقطها وتهرول نحوي:

- عبد الله! عبد الله! و تنخرط في البكاء

احتضنتني بفجيعة، بينما ابتسمتُ في رسمية لصديقاتها؛ وكرجل ينتشل من منجم منهار أخذت مينا تساعدني في صعود سلّم العمارة.

ماذا لو علمتْ أنّني صعدت جبل النّور هذه الليلة في نشاط!

كانت عودة باهتة، رغم دموع مينا؛ كعودة راهب كاثوليكي إلى الحياة المدنية فجأة، لم أكمل جانباً مهمّاً من تيهي، لم أتأمل كثيراً في ذلك الغار، كنت أتوقّع أن أمضي الليل هناك، ولم أصل في نهاية الأمر إلى إلهام.

حين دخلنا الشّقة بدت غير معتادة بالنّسبة لي، غرفة المجلس مكتظّة بالفتيات، لا شكّ أنهنّ

حديثات القدوم.

ألوانهنّ المستفعات بيباب الصّحارى، أجسادهنّ النّحيلة، عدا اللّكنة الحسّانية الفرانكفونية، وأعمارهنّ الغضّة، كل ذلك أوحى إلي أنّني أمام عمليّة استيراد نوعية.

الرّقيق الأسمر هو أقرب تعبير... الأسمر الطّفولي.

إحداهنّ في جانب الغرفة القصي تمسك خدّها وقد بدا ورمٌ صغير أسفل فكّها، وبيدها الأخرى سيجارة (دافيدوف).

والبقيّة منخرطات في تفحّص جوال نوكيا 6210، بدت الدّهشة تعلو وجوههنّ، ولم ينتبهن حتّى لدخولي الفاجع متأبّطاً ذراع مينا.

جلستُ في زاوية، أحضرت مينا بيجاما تركتُها هنا من قبل، ارتديتُها، وأخذتْ صرّة ملابسي إلى مكان آخر.

غابت في دهاليز الشّقة الواسعة، ابتسمتْ لي إحداهن حين عدتُ من الحمّام ببيجامتي السكرية النّظيفة، بدأت الفتيات تستكشف وجودي؛ والصّغيرة السّمراء تمسك بخدها الملتهب.

- اطفئي السّيجارة واشربي كأساً من الحليب، ستشفين في الحال، هكذا خاطبتها.

ردّت في جفاء: شربتُ لتراً من الحليب، لم يحدث شيء.

دخلت مينا مكملة الحوار:

- بسيط... ما تحتاجه هذه الفتاة أن تتزوّج بفحل فقط هههه

موجة ضحك عارمة، والفتاة المتألمة تبتسم بسمة زرقاء وتشعل سيجارة أخرى.

جلستْ مينا تخلط الحليب بالبيبسي، رغوة سمراء تطفو أعلى الكأس؛ تسأل:

- أين ذهبت.. ولماذا؟ ظننتك عدت إلى المدينة.

- كنتُ بحاجة إلى تغيير الجو، ذهبت لأصدقائي.

- هل أزعجتك أمي ذلك اليوم؟

- كلا، على الإطلاق.

- اشتقتُ إليك كثيراً، لن تذهب.. صحيح؟

- لا أعلم حقيقة، علي أن أجد عملاً على الأقل.

نظرتْ كأنّما لمعت برأسها فكرة، ثمّ أكملت: اسمع أنا ذاهبة إلى المطار لتوديع صديقتي، سأعود بعد ساعات، لا تذهب سأخبرك بشيء.

استغرقتُ كثيراً في تذوّق الحليب الممزوج، ومسحتُ الرّغوة الباردة، حين حرّكتُ رأسي كهندي علامة للقبول، استطردت مينا:

- غرفتك ما زالت بحالها، سأرتّبها، وحين ترغب في النّوم ستجدها جاهزة، بالمناسبة أمّي سافرت إلى المدينة، وأنت لن تذهب من هنا مطلقاً؟

كان سؤالاً بصيغة الأمر، أكملتُ ذلك الشّراب الغريب، وأشعلتُ سيجارة ناظراً إلى شجار الفتيات.

حين نزلتُ بعد دقائق برفقة مينا وصديقتها، وودّعتُها عند أسفل السّلم أمسكتْ بيدي، حدّقت بي بشكل مباشر؛ كم تعجبني تلك النّظرة المباشرة الخالية من الحياء! ثمّ طبعت على شفتيّ قبلة بشفة لاهبة، وقالت: لن أتأخّر كثيراً حاول ألّا تنام قبل عودتي.

صعدتُ السّلم بثلاثة أرجل، وأنا أشعر بنزعة سفليّة تجاهلتها لأيام.

كان تجمّع الفتيات مشهداً مثيراً بالنّسبة إلي، أقصد من النّاحية الإنسانية، إنّني أنظر إلى الجانب القوي من أرواحهن.

مقدرة أنفسهنّ الطّرية على تجاهل الفقر، والغربة الجنسية التي يعشنها، و تنحية الشّعور بالسّوء جراء امتهانهن، وطائفة من المشاعر السلبية تحيط بهنّ من كل مكان؛ مقدرتهنّ على التمتّع بالمكاسب.. الطّفيفة، بل والتّافهة أحياناً، كجوال نوكيا 6210.

من يحدّد معالم التّفاهة؟ من يحدّد قيمة الأشياء؟ إنّهنّ لا يعرن بالاً لحجم الطموح بل لنوعيته؛ لهذا هنّ يظهرن قوّة خفية، سعادة بالراهن، مقدرة هائلة على القفز فوق حواجز التعاسة؛ قد تكون التغيّرات الطفيفة ذات أثر أعمق مما كنت أظن.

أحدث هذا أثراً ليّناً في نفسي، شعرتُ بقدر ضئيل من الفرح؛ طالعتُ وجوههن اليافعة، ضحكاتهن حين يستجيب جهاز النوكيا لأمر صوتي، استغراقهن في دهشة اللحظة؛ فأشعلتُ سيجارة أخرى بسعادة طارئة.

لا يوازي شعورهن في بساطته سوى ما أحدثته أول عملية تبليغ قمتُ بها قديماً للهيئة ضدّ عاهرات موريتانيات!

هذا مؤسف حقاً، أن أكون الآن بين جيل جديد من العواهر اللواتي يأخذن هذه المهنة القديمة إلى آفاق جديدة، مؤسف من جهة أنّني تمتّعت قديماً بالعمل، وتمتّعت الآن باكتشاف أرواحهن؛ وفي المحصّلة أشعر بالسوء لتواجدي في الموقفين.

لمطالعة صلافة ما كنت أقوم به بالجملة، و مشاهدة أجيال جديدة تسلك المسار نفسه.

سيكون بالمرصاد آخرون ليقوموا بدوري القديم.

ستظل تلك الحرب دائرة، ليس لأنّ الرذيلة والفضيلة توأمان، بل لأن حاجة الإنسان للالتزام بقواعد لا توازيها إلا حاجته لخرقها حين تضيق- تماماً كالعبارة- عمّا يعانيه.

مؤسف؛ لأنّني لم أعد مؤمناً بصلابة الدّين، ولم أستطع تفهّم هذه الحالة الّتي أعيش فيها من وجوه كثيرة.

مؤسف تماماً كأول وخزة قويّة فيما كنت أقوم به، كأول شكّ طاف بي في سلفيتي، كأول ألم روحي يعتامني؛ ومؤسف كاكتشافي لضآلة أدواتي حين حاولت اكتشاف الحقيقة.

ما زلت أتذكّر أول الأمر، قبل سنوات، انكبابي على التّعلّم في السّنة الأولى من الجامعة الإسلامية بكلّية اللغة العربية؛ بحث ومناظرة لكلّ مخالف، تنقيب في الأدلة، تضارب النقول، وانعدام المعقول، ثم الانهيار العظيم!

أحسستُ أن جلوسي بين الفتيات في ذلك الصّباح أمر هامشي، فانسحبت إلى غرفة مينا، الّتي تعتبرها غرفتي.

في هذه الغرفة المظلمة، أشعر بالراحة فهي مسرح شهواتي وآلامي الفكرية، هنا مكان عزلتي، غار تبتّلي وتحلّلي؛ فأهلاً بعودتي قالتها الجدران اليابسة، شهق بها المكيّف البارد، وهمست بها الخيوط البواكر من ضوء الشّمس وهي تتسلّل من فتحات التّكييف.

شخصتْ في عيني طيوف الماضي، طالبٌ في سنته الأولى، شعرات سود غضة تتدلّى بقدسية من لحيتي كأول الطّلع، شماغي الأحمر كهالة قداسة، وثوبي النّاصع يقف التزاماً عند منتصف الساق.

تذكّرتُ زياراتي لصديقي العائد من الدّراسة في الخارج، عاد بجسمه وبقيت روحه حيث كان؛ كان ملحداً، كنتُ أعتقد أنّني مهيأ لمناظرة كل أشكال المبتدعة، جهمية، معتزلة، وجماعتنا الأشاعرة!

لكن اصطدامي بملحد عصري جعلني أراجع الكثير من خططي؛ وما أحدث بلبلة هو ما كنت أعانيه في الجامعة من بعض الأساتذة من جهة حصر الرأي في الدين بجهة دون أخرى.

صرتُ في حالة جهاد؛ صباحاً في الجامعة ومساءً مع صديقي الملحد.

لكنّ أقوى الضّربات في حقيقة الأمر أتت من إسقاط ما أقرأ على ما أعيشه بشكل يومي؛ طبعاً لأزمة الهويّة المتأججة في أعماقي دور، فأنا في نهاية الأمر موريتاني دخل الجامعة خارقاً قوانينها في الابتعاث، وطبعاً اصطدمتُ بفئوية المطاوعة، واعتبار كلّ ما هو خارج عن إقليم نجد

محلّ نقد وتمحيص، وكلّ ما هو قادم من هناك محلّ تسليم.

حتّى أن نقدهم لأعلام السّلف مقبول، ونقد غيرهم تطاول على السّلف، وما ينقلونه عنهم بطرقهم المنقطعة ثابت مقبول وإنْ نقل من مخطوطة تائهة في الصّحراء، وما ينقل غيرهم مكذوب منحول إنْ خالف.

لكن حين قبلتُ مراجعات (المشايخ) لابن تيمية وابن القيّم مثلاً من الناحية التاريخية، لم أتمكّن من معرفة أسباب تلك المراجعات من ناحية عقدية!

ما يقوله ابن تيميّة في العقيدة من خلال (لاميته) مثلاً عن التوسّل بآل النّبي مؤوّل، أو مدسوس؛ أو حتّى يستطيع أن يقول قائل إن تلك القصيدة ليست لابن تيميّة أصلاً.

لهذا شعرتُ أن هنالك استهدافاً للأسس يجب تمحيصه؛ لم أكن لأطلع أبي أو عمّي على وساوسي، فتلك مخاطرة بحضرة سلفييْن صلبين، وحين أستفهم من (المشايخ) أشعر بوأد السؤال داخل حلقي.

لأن الأسئلة كانت تطال الأصول، وقواعد النقل التي هي عمود كل ما يقال لاحقاً.

أهملتُ مقرّري الدراسي وانكببت على مراجعة أُمّات الكتب، وضعت جدولاً ذهنياً، عليّ أولاً معرفة كلّ ما قاله السّلف في العقيدة، بعد ذلك رأيهم في الفرق؛ وكانت تلك أخطر خطّة نفّذتها في حياتي!

وكانت المحصّلة كارثية، فهذه الأمة تدور في حلقة مفرغة! تمارس عبثاً صوتياً منذ ألف عام!

غاية الأمر ما نطق به حقاً صاحب تلك الأمنية العجيبة أن يموت على دين العجائز!

ألهذا الحدّ عجز أولئك عن فهم كلمة سواء؟

كنتُ أطرح أسئلة مثيرة صباحاً في الجامعة، حول السّلف واختلافهم، بل واحترابهم أحياناً، وعلامات استفهام حنبلية كبيرة حول التجسيم، والتسليم، ونقد الأسانيد، وأسس التّعامل مع الروايات المخالفة، وما هو الموقف إزاء الأدلة المتضاربة.

بينما كنت مساء أحاول الإجابة على أسئلة الملحد عن فكرة الإله أصلاً، وفائدة الدّين أساساً، وأخيراً حين يهادن: إذا كان الإله موجوداً فعلاً فما هو الطّريق المؤدّي إليه في متاهة الطّرائق هذه.

طبعاً؛ أحياناً أهرب إلى ممارسة العمل الميداني والاستطلاع، فأرى سلوك النساء الموريتانيات في حي السّيح وأكتشف من جديد تشابك العلاقات الاجتماعية؛ وأحياناً أشعر أن رفاقي في الهيئة أسعد النّاس فهم يتمتّعون بصلابة التديّن والسّلطة الإلهية معاً.

عثرتُ في أثناء بحثي على رسالة لابن تيميّة أشعرتني بالمفاجأة، كنتُ قد قرأت قبل أيام عن الكتب الموضوعة عليه، والملفّقة التي احتوت على آراء مدسوسة.

كانت رسالة في الموقف من الجهاد، وقد أفتى خلالها بأن الجهاد دفعي وليس طلبياً، مما يتقاطع تماماً مع ما كنتُ أقرأ منسوباً إليه، ويتّفق مع طائفة قديمة من المواقف لدى الفرق الأخرى[14].

كنت أعلم أن الجهاد من الأبواب الفقهية التي نقلت إلى مجال العقيدة؛ لحساسيتها، لهذا انطلقت إلى مكتبة الحرم لمزيد من التحرّي.

هناك قابلت صديقاً سلفياً متفقّهاً، بادرته والفضول ينهشني:

- أحمل إليك هذا الكتاب، هل اطلعت عليه قبل؟

- هههه أجل، ربّما تكون أنت آخر من يعلم.

- انظر إنّه مطبوع رسمي ومن جهة رسمية في المملكة!

- أجل.. أجل، في منتصف الأربعينيات الميلادية انتدب الملك سعود الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم لجمع تراث شيخ الإسلام من كافّة أقطار الدّنيا، وقد طبعت في 37 مجلّداً، لكن الشّيخ وابنه لاحقاً أهملا هذه الرّسالة لاحتوائها على ما يخالف الرأي السائد في أن الجهاد للطلب؛ ولَما رأوا أنّها منحولة عليه لم يذكرها ابن القيّم في مؤلفات الشيخ وهو أعلم النّاس به، وقد ألف مشايخ كتباً عنها منهم الشيخ سليمان بن حمدان في السّتينيات.

- لكن هل اكتشف أحد الآن سنداً آخر لتطبع من جديد؟

- لا، لا أعتقد أن الأمر تغيّر لأن الدّين مكتمل منذ انتهاء الوحي، فهي رسالة مدسوسة قطعا، يمكن أن يكون بعض ما فيها صحيحاً، أو هي رأي مرحلي تبدى للشّيخ خطأه فيه، فصحّح في الفتاوى ما ذكره هناك، والعمدة هو ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله فيها: «حقيقتها أن بعضا منها محذوف ومدخل فيه شيء آخر»، و للشّيخ عبد العزيز بن باز محاضرة في الرد عليها بعنوان: «ليس الجهاد للدفاع فقط» وقد ذكر أن معنًى من معانيها يصحّ، إذا كان المسلمون في حالة ضعف فعليهم الأخذ بالآيات المكية التي تؤكد جهاد الدّفع، أما حين قوّتهم فالأصل أن الجهاد جهاد طلب، حتى تكون كلمة الله هي العليا.

- لكن يا شيخ هي مطبوعة وتوزّع بمباركة الجهات الرسميّة، هذا ما أسأل عنه!

- عليك أن تتبصّر الأمر، أنت طالب في الجامعة الإسلامية، وتعلم أن الجاميّة أحكمت سيطرتها على الدّولة!

- الجاميّة، هداك الله يا شيخ!

لمحتُ في عينيه بعض الحرج والارتياب، فهو وإن كان صديقي فقد دخل منطقة خطرة؛ في المقابل شعرتُ ببعض ما قال، هل يعقل أن تكون الدّولة قد قلبت ظهر المجن للدعوة حين شذّ رجال كأسامة بن لادن وغيره فسعتْ إلى محاربة الأسس، هل يعقل أن من يسمّونهم بالجاميّة -وهم مشايخ أجلّة- يتآمرون الآن مع الدّولة لهدم ركن ركين من الدّين وإن استغلّه خوارج على الإمام؟

هل من حقّ الإمام أن يعطّل الجهاد، ثمّ ما الذي دعى الشيخ ابن باز لتحكيم الآيات المكّية في آن، والمدنيّة في آن، هل عاد هذا الدّين غريباً إلى الطّور المكّي، أم إننا أصبحنا نؤمن ببعض الكتاب ونرجئ بعضه؟

أسئلة شغلت المسافة بين الحرم ومنزلنا في السّيح، ذهبتُ بأسئلة وحنق كبيرين إلى صديقي الشّيخ، وعدتُ بأسئلة وحنق أكبر.

زادت عزلتي في غرفتي بأعلى المنزل، أصبحتُ كثير التّغيب عن الجامعة، قليل النّزول إلى أهلي؛ طاردني رجال الهيئة في منزلي:

- وينك يا شيخ، تركت الجهاد الكبير لمين؟

أكّد حضورهم لمنزلنا ما كان يروج أن عبد الله بن محمد مخبر شرّير يسعى للإضرار بالشّناقطة، زاد هذا من عزلتي أيضاً، وفي المرات القليلة التي أخرج فيها، كانت النّسوة تهربن عند ظهوري في فزع، حتى العجائز المتّسخات يتلطّمن حين يروننني؛ إحداهنّ ترسم تعويذة في الهواء عند ظهوري!

كانت تلك أيامي الأولى التي أقف فيها مع نفسي، أتساءل، أنقّب بأداة صغيرة في أديم هائل من التراث يمتد لألف عام.

لم يكن ما أحدثته حتى ذلك الوقت من أثر في ذلك الأديم مهماً، وقد لا يكون مهماً في يوم من الأيام؛ لكنّه كان كافياً لِلَجْمِي عن العالم، لدخولي في متاهتي الحالية.

حين وضعتُ تلك الخطّة كانت ترتكز أساساً على البحث في العقيدة ورأي السلف في مختلف الفرق؛ وبما أن المصادر بدأت في التضارب باكراً، فقد أحسستُ أن البحث في القسم الثاني من الخطة يبيّن مدى التضارب بشكل فادح!

كانت غرفتي على سطح المنزل في تلك الأيام تضجّ بالهمهمة والصلاة، فحين أشعر بالحيرة الشديدة أنخرط في الصلاة، وحين أهدأ أعود إلى البحث!

أما مصادر العقيدة التي اعتمدت عليها أساساً هي كتب ابن تيمية، والعقيدة الطحاوية، وحين احتجت بشدة لقراءة كتب الفِرَق عمدت إلى أكثر الكتب مقتاً بالنسبة لي، فقد سئمت ما ينقله الآخرون، لم تزدني كتب «الملل والنحل» و «الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» إلا فضولاً لقراءة ما يكتبه القوم بأنفسهم.

عمدت إلى صديقي الملحد؛ وحين سمع طلبي، انخرط في الضحك وسألني:

- ألم تقرأ كتب الأشاعرة؟

قلت بحرج: كلا؛ فأكمل ساخراً:

- كيف تنتقدهم إذن؟ هههههه

دخل مكتبة والده وأخرج إليّ كتباً صفراء، مطبوعة بشكل رديء، أوراقها الصفراء وحرفها المغربي تذكّرني بدلائل الخيرات ومطبوعات الحصن الحصين التي كنا نحرقها في مقر الهيئة بعد مصادرتها من بيوت الموريتانيات اللواتي يحترفن زواج المسيار!

كانت أياماً حافلة قادتني إلى توسيع القراءة، وتوسيع دائرة التّيه!

ما زلتُ حتى هذه اللحظة في غرفة بشقة مينا في حي الزاهر بمكة المكرمة، أتعجّب حقاً من كم سوء الفهم الهائل الّذي كُتبتْ به حقائق الدين البسيطة؛ حتى أنني لم أستطع تمييزها، رغم يقيني بوجود تلك الحقائق، وإحساسي ببساطتها.

لم يكن هذا الأمر بهذا التّعقيد، أعتقد أن الدين لو كان معقّداً إلى هذا الحد، ما كان الله لينزله إلى الناس، كان ليكون جزءاً من علمه اللدني الكبير، وكان ليستبدله بأشياء أكثر قابلية للتصديق؛ أشياء يشترك في فهمها أعرابي من هذيل و ابن رشد مثلاً؛ ولو كان الأمر بتلك الصعوبة حقاً وقرّر الله أن يوضّحه للناس فإنه كان بالفعل -كما اقترحت قريش- ليرسل مَلَكاً رسولاً!

تنبّهتُ لرسومات الضوء التي أصبحت أكثر وضوحاً وبشاعة، بل وإزعاجاً، فقد حنّطت هذه المرّة مخلوقات مشوهة كرسومات أخناتون القبيحة على جدران تل العمارنة، لا شكّ أن الضوء أصبح أكثر انزعاجاً، أو أن العالم بالخارج بهذه البشاعة فعلاً.

تحرّك الباب قليلاً واندفعت مينا كإعصار على عادتها:

- حبيبي نايم؟

تبسّمت بود، وتوقّفتُ عن المراجعات القديمة فجأة:

- هل تتوقّعين أن أكون نائماً وأنا بهذه الحال!

بعد عناق طويل، غبت في روائح عطرها، خصوصاً تلك النبيذية المنبعثة من فمها بشكل مدهش، داخت الغرفة، تحولتْ إلى دوامة، وأصبح الكون شديد الضآلة، كانت كل المجرات تسبح على عانتي، كنت ذلك الثور الذي يحمل الأرض على قرنه؛ بل كنت أحمل الكون على قرني؛ وتساقطت حلقات العزلة.

لم يتمكن هذا العالم المشهود من الصمود في تلك اللحظة، فقد زال.

زالَ برجاله، و أطفاله، و أفكاره وأسماله.

ثم انهار كل شيء، أصبح قرن الثور رخواً.. يرتجف في بلادة.

ودخلنا برزخاً يفصل بين عالم الدهشة و عالم التفاهة.

رأيت روحي مكوّمة عند الباب في ظلمة الغرفة كجلد أفعى تالف، كنخلة محروقة، كبئر معطلة، أو كمنارة بحر قديمة أكلتها الملوحة.

صمتٌ لدقائق، ودخان السجائر يهيم على وجهه.

تسلّلت حالة من البؤس إلى روح مينا؛ بدأ الفصل السيّئ والجانب المظلم من شخصية كل عاهرة.

قادها الحديث عن أمها إلى الحديث عن نفسها، كان مدخلا بسيطاً:

- هل هجرتَني بسبب معاملة أمي لك؟

تبسّمتُ، فألحّت: أجب؛ حسناً... لم تُفصح لي أمك عن شيء، فقد أحسست بأنني بالفعل ضيف ثقيل.

- أنت لا تعرف أمي، لا تستح قلها، إنها سيئة بالفعل؛ ما تتخيّله عنك ليس أسوأ ما في حياتها، تقول إنّك بلّغت عنها الهيئة قبل سنوات، تخيّل! لكن أنت لا تعرف ما تفعله أمي حقيقة.

صدمتُ قليلاً، واتضحت معالم الدهشة في ذهني، إن العالم قرية صغيرة يملؤها الأوغاد.

- بالفعل، بلّغتُ عنها قبل سنوات، هذا محتمل جداً ما دامت أكدته لك، أنا لا أتذكرها تحديدا.

- أياً يكن، هي تستحق.

لم تشعر بالسوء من تصريحي، وكانت جملتها الأخيرة شديدة السواد.

أشعلتْ سيجارة، واتكأتْ على الحائط عارية إلا من صدرية فيروزية مرحة ترفد نهديها الأسمرين الراغبين في الانحناء:

- أمي أكبر قوّادة عرفها التاريخ.

تفاجأت، طبعاً بصراحتها فقط.

- أمي مشعوذة.. عبد الله بإمكانك قول ما تشاء عن أمي، لن تصفها كما هي.

أشعلتُ سيجارة من عقب أخرى، وأكملتُ استعدادي لبوح مينا:

- أمي قبل أن تصل إلى السّعودية، ملّتْ من التجوال في كازابلانكا والمغرب، منذ أن طلّقها أبي وهي تجوب شمال إفريقيا، ما رستْ تقريباً كل أشكال الدعارة و الجرائم، ما تمارسه هنا يعتبر فضيلة قياسا إلى ما كانت تفعله هناك؛ ما لا تعلمه أنّها زوّرت الوثائق وكانت تبيع الطوابع المزيّفة في المغرب وموريتانيا، وكانت أيضاً تهرّب المخدرات من المغرب إلى لاس بالماس، إنّها مطلوبة من الأنتربول في الكثير من الدّول، وما يمكّنها من الإفلات دائما هو أنّها تمتلك الكثير من الجوازات الإفريقية المزوّرة.

شعرتُ بالدّهشة، ليس من صراحة مينا بل مقدرة تلك العجوز وتاريخها القوي، قياساً إلى شكلها التقليدي البسيط:

- عندما اكتشفتْ السعودية مطلع التسعينيات اكتشفتْ فردوسها الكبير، وهي تجني الكثير من تزويج الفتيات وعقد صفقات السحر المالية الوهمية، رغم أنّني أعلم أين تخبئ بعض تلك النّقود!

لمعتْ بعينها فكرة خبيثة، وابتسمتْ في أعماق تلك المأساة وأمسكت بخدي بكلتا يديها قائلة:

- عبد الله، اسمع لدي فكرة، لمَ لا نسطو على كنز أمي ونهاجر معاً أنا وأنت ونبدأ حياة جديدة؟!

تبسمتُ في استغراب، وقلت:

- هل أنت جادة؟ هل هذا ما تتوقّعين أنني بحاجة إليه فعلاً؟

- أووه، أنت «طالب» فعلاً، أنت لا تعرف حجم ما علي القيام به لنسيان ما حدث؟

- ما الذي حدث؟ أنت تبالغين يا مينا.

- عبد الله، كنت أسكن مع أبي في نواذيبو، في منزل بسيط، زوجته الطّيبة لم تمسح من روحي ذلك الحنين الساذج إلى أمي الحقيقية، أمضيتُ سنوات الطفولة أنتظر اللحظة التي أدسّ فيها وجهي بصدرها، أصيح بها: أمي، كما أرى في الأفلام الهندية، وبعد وفاة أبي بأيام قدّمتني زوجة أبي إلى امرأة أنيقة تحمل حقيبة جلدية وتضع نظارة شمسية، قائلة: هذه أمك يا مينا!

فغرتُ فاها وقد بدأ الأمر يشدّني أخيراً، ها هي مينا تنتج ميلو دراما ذات قيمة على عكس مثيلاتها:

- يا لغبائي، إنني عديمة التمييز، لم تشعرني دموع زوجة أبي الصادقة بأي رغبة في البقاء، و بعد دقائق كنتُ بجانب أمي في سيارة متّجهة إلى نواكشوط، وبعد أسابيع من مرافقتها من صديقة إلى أخرى، أصبحتُ أمضي أسابيع لدى صديقات أمي، انتظاراً، وسوءاً، بدأت أكتشف ضياعي، كانت أمي في قمّة مجدها، ما تحمله إلي من هدايا حين تعود يعكس ذلك، ولم يكن ليعوّضني عن فقدها، ولم تكن تقدّمه حتى بأي حنان.

- احمدي الله، كان أهلي يشعروننني بالحنان بطريقة أقل رفاهية ودون هدايا.

أحسستُ بضيقها من مداخلتي، أكملتْ:

- كنت أمضي أسابيع لدى صديقة لها في أسوأ مكان يتخيّله المرءُ لفتاة تشارك عاهرة غرفتها الوحيدة، دون مصروف أو حماية؛ طبعاً، في الغالب كانت مضيفاتي مومسات، وتخيّل ما يمكن أن أجد من معاملة هناك، دعك من كلّ هذا حين أتتْ بي إلى هذه الدولة المسعورة بالجنس كنت أيقونتها الخاصة، فأنا ابنتها من بين كل الفتيات اللواتي تزوّجهن، زوّجتني لكل من تريد، وكانت تنتزعني من أي زوج طيب يحسن معاملتي.

ثمّ أطرقت قليلاً لكأنّما تحدّق في زوج معيّن من أزواجها:

- كنتُ غبية أيضاً؛ لكن كلّ ذلك انتهى وقد حانت الساعة الّتي عليّ فيها أن أغيّر هذه الحياة.

نظرتْ إلي كأنها تكتشف وجودي:

- عبد الله إن لم تهرب معي سأهرب من دونك؛ هل تودّ البقاء في هذه البلاد التي لا تشعر بوجودك؟

انطلقتْ من حلقي حمحمة لا إرادية واعتدلتُ، فأكملتْ:

- أحبك يا عبد الله... لكن لن أبقى هنا.

- إلى أين تنوين الذهاب؟

- موريتانيا طبعاً، هناك سأعمل على تكوين شخصية جديدة؛ كلا سأعود إلى شخصيتي الحقيقية، فأنا ابنة عائلة محترمة، أجدادي شيوخ في قبيلتهم، جدّي ما زال حياً وهو شيخ كبير ذو مكانة مهمة، وأعمامي أيضاً، وهناك لن تتمكّن أمي من استرجاع أي شيء مني، فهي لم تعد كما كانت فقد أنهكتها أمراض السكّر والضغط والروماتيزم.

تحركتْ أيضاً بذهني أفكار أخرى، ولمعتْ بُروقٌ حين ذكرت اسم موريتانيا، فقلت بهدوء:

- أنا أودّ فعلاً أن أذهب إلى ذلك المكان، لكن لا أستطيع مساعدتك في الهروب بأموال أمك.

- هههههه أنت طيب فعلاً، أنا أمزح، هل تتخيّل أن تلك العجوز تخبئ مالها في مكان محدّد، أعتقد أنها تخبئها في مؤخرتها أو في مكان تؤمّنه مردة الجن، حسنا نذهب في أقرب وقت.

- كلا، علي أن أعمل قليلاً لأحصل على بعض المال.

- لا نحتاج إليه، لدي الكثير من الذهب وبعض المال يكفي لكل ذلك، كل ما عليك القيام به هو الذهاب معي لحجز التذاكر والرحيل قبل عودة أمي، إنّها ساحرة إذا اكتشفتْ نيتي في الرحيل فقد «تضربني بجدول» فأتحوّل إلى شاشة تلفزيون.

- هههههه هل تمزحين أيضا؟

- كلا، إنّها مشعوذة، هي ليست ساحرة لكن علاقاتها بالسحرة قوية جداً، طالما تغيرتْ أفكاري وعزائمي على الرحيل فجأة بعد أن أخبرها بأيام!

- هههههه حسناً، لا تخبريها وارحلي فجأة... هذا بسيط.

- أمي داهية، أنت مجنون، إنها امرأة جابت العالم، تستطيع فك كل الأحجيات، لا يمكن أن تفوتها فكرة تمرّ بذهني، علينا الرحيل قبل عودتها من المدينة؛ أتعلم كنتُ أنوي الرحيل بعد الحج مباشرة، لكن مادمتَ معي فلنرحل حالاً.

- كيف لم تكتشف تلك النّية أيضاً؟

- أنت تعاكسني؟ ربما لم أفكّر بها كفاية، لو اشتريتُ حقيبة سفر مثلاً لتوصلتْ للفكرة.

- حسناً عندما نستيقظ نتّفق على التفاصيل.

صمتتْ؛ وبعد دقائق انخرطت في الغناء كأن شيئاً لم يكن، ثم أخذت في التأوه من الصداع، وحين حاولتْ الوقوف لم تتمكن من المشي فسقطت وأخذت في التقيؤ.

كنت أعلم أنها في حالة سكر منذ دخولها، وكنت أعلم أيضاً أنها لم تكن في المطار.

## (7)
## انعدام الوزن!

... والْتظى الجريُ عند مفترق

عنده قد تشعبتْ طرقُ

عدتي وحدي، تكاد تقتلني

عزلتي، بل أكاد أختنق

طالب الحيدري

ماالذي يحدث بعد البوح المرير؟!

حين تنفتح بشكل غير اعتيادي على شخص ما، وتذيب حلقات العزلة التي تؤمن لك الاحترام العام؛ وتبوح له بأشدّ أسرارك خطراً، أو حقارة!

ربما يكون قريباً من شعور الضّحية في عملية اغتصاب، أو شعور الفضيحة، و الإحساس بالعري.

إن للإنسان جسداً حقيقياً لا يودّ أن يراه أحد، جسداً غير الذي نراه، هو أديمه الحقيقي الذي تندمج فيه مشاعره بالفيزيقيا، هو ما رأيته مكوّماً في عتمة الغرفة ذلك الصباح بعد الفراغ من جَوْب تخوم مينا.

والأدهى؛ أنّه متى ما أفقتَ من تلك الحالة التي أفضتْ بك إلى البوح المرير، تشعر بتغير الأرضيات، فقد أصبحتَ في موقف أضعف، بالنّسبة إلى شريكك، الذي أصبح مشرعاً للتأويل حولك.. أو الانتهاز حتى.

باقة طويلة من الاحتمالات تثير جنونك الآن؛ قد يشهّر بك، قد يستغلك، أو قد يحتقرك؛ إن كان هذا أشدّ ما تخشاه!

ذكّرني هذا ببعض ضيق عم حمّاز وتجاهله لي في الليلة الأخيرة، ربما يكون قد شعر

باهتزاز صورته كرجل ملائكي في نظري!

لكن مينا كانت تعلم يقيناً أني لا أنظر إليها كملاك؛ غير أنّ ما قالته هو ما لم تكن بحاجة إليه، فقد أصبحتْ شديدة الوضوح بالنّسبة إلي، وهذا ما لم تسعَ إلى تحققه يوماً.

إنّها الآن في ذهني -كما تتخيّل- تلك الفتاة السيئة، النبتة الشوكية اللاحمة التي نمت في أقذر قطع الأرض.. لم تكن تطمح إلى أن تكون نخلة باسقة، بل كانت تود أن تبقى نبتة كريمة متوّسطة الطول.

لهذا حين استيقظتُ وجدت مكانها فارغاً بجانبي، جَلَبةُ الفتيات في الغرفة الأمامية أزعجت منامي، متى تنام تلك الفتيات؟

خرجتُ منتصب القرن، يسوقني حامض اليوريك سوقاً إلى المرحاض، وعند عودتي جمعتُ إكسسواراتي الصغيرة وذهبتُ إلى المجلس.

بحثتُ عنها بعيني المتعبتين، كانت الفتيات مثل البارحة يتجاهلنني؛ وما زالت الفتاة المتألمة تعاني ألم ضرسها، بل أصبحت في حالة سيئة، شبيهة بما يصبح عليه الرجل الأخضر حين يستفز في أفلام هوليوود!

أخيراً لمحتني إحداهن فصرخت: أوه... استيقظت! مينا قبل أن تذهب أوصتني بتقديم غدائك.

وانطلقت كالسهم، أحضرت بعض الأرز البخاري في صحن من البورسلين، تتمدد أعلاه نصف دجاجة مشوية.

قرفصت الفتاة بشهامة وسحبتْ أدوات الشاي الأخضر إليها، وقالت:

- مينا ستعود قريباً كما قالت.

انهمكتُ في قضم فخذ الدجاجة، وتحاشيتُ النظر إلى الرجل الأخضر كي أشعر بالهناء.

بعد ساعة سمعت صوت مينا عند الباب، أحسستُ بالحرج قليلاً، لم تدخل المجلس، أخذتْ تطوف في الشّقة، ثم استدعت إحدى الفتيات، وبعد لحظات عادت الفتاة لتطلب من كامل الطقم الحضور بسرعة إلى مينا.

هناك في غرفة أخرى ربما تكون غرفتنا الحميمة تحادث الجميع، وبقوا حيث اجتمعوا.

شعرتُ بالرّيبة، أنهيت غدائي، و تحرّكتُ نحو أدوات الشاي، أوقدت أسطوانة الغاز الإيطالية الزرقاء فانبعث خيط بخور قديم مترسب.

دخلتْ مينا، ونظرتْ نحوي في تجاهل لعيني، قالت بحزم:

- عبد الله هناك ضيوف سيأتون، إحدى الفتيات عثرتْ على عريس وسيأتي لرؤيتها الآن، إن كنتَ تشعر بالحرج يمكنك الذهاب إلى غرفتك.

كانتْ تنظر في الأرض، وسطح الغرفة، والتلفزيون وأطقم الشاي لكنها لم تنظر في وجهي، أحسستُ بالغرابة، وأجبتُ بقرف:

- ليأتِ من شاء، لا أشعر بالحرج، وحين أشعر به سأذهب.

لم يكمل الحديث حتى رنّ جرس الشقة، فارتجّتْ مينا وخرجتْ مسرعة.

يبدو أنها حديثة عهد بمهنة أمّها، فقد أتقنتْ دور العروس أكثر من دور الخطّابة.

سمعتُ تلك الجلبة البغيضة، مينا تحاول التّحدث باللهجة الحجازية بشكل يثير الضّحك:

- مرحباً بكم... يا أهلاً وسهلاً اتفضلوا... اتفضلوا.

دخلتْ يتبعها رجلان، حين رأياني ظهر عليهما الارتباك، سلما عليّ باهتمام، هممتُ بالقيام فقط ولم أقم، وتحاشيتُ الدخول معهما في سلام لا داعي له.

الرجلان القصيران صامتان، لحيتاهما تشعرني بالرهبة، فسمتهم الديني يتحرّش بي، إنهما مطوعان، وجليٌّ أنهما يبحثان عن بعض الترفيه.

خرجتُ لجلب النعناع من الثلاجة، صدمتني موجة عطر قادمة من غرفة بجانب المطبخ، روائح بودرة ومستحضرات تجميل؛ هل هي غرفة كوكو شانيل؟ آه هنالك ورشة تأنّق الآن في هذا المكان.

- الشاي الأخضر زين... يجب أن تتعودا عليه هههه

هذا ما قالته مينا حين قدمتُ للرجلين كأسا شاي أعددتُهما بتعاسة.

على وجهيهما غرابة وخوف، فهما دخلا مكاناً خطراً على من ينوءُ تحت سمتهما الملتزم، لذلك أدركت أن هذين الشخصين الآن يقومان بشيء ملحّ، ملحٌّ جداً، هرمونياً ونفسياً وإلا ما خاطرا بكل هذا.

لا شك أن زوجاتهما- وقد يكونان من أصحاب التعدد- من نوع قديم، قد تكون زوجاتهما بدويات تقليديات ذوات ركب سود، أو حتى معلمات يعانين من البَخر أو أمراض نفسية.

لكن ماذا عن الرجلين الجالسين أمامي نفسيهما؟ هل هما هيو غرانت ونيكولاس كيج وسامة؟!؛ ربما يكونان الآن يعانيان ضعفاً جنسياً سبّبته الرتابة، يريدان التغيير فقط، شبهة نكاح خير من سفاح كما يقول بعض الراغبين، طبعاً إذا تجاهلتُ أن العرائس فتيات في عمر الزهور.

إنها حالة استشفاء، لكن دوافعها من كلا الطرفين واضحة لا غبار عليها.

ماذا لو خرجتُ الآن واتصلت بالهيئة كما كنت أفعل قديماً؟

ستكون ضربة قوية تتحدث عنها صحيفتا المدينة وعكاظ، تكتبان بالخط الأحمر: ضبط وكر دعارة في مكة بفضل أسود السنة.

طبعاً سيسعد الشيخ سلمان صديقي القديم في الهيئة، وسيسر العلمانيون في الصحيفتين بضبط رجلي دين متلبسين، وسيزعم الجميع أن الله راضٍ تماماً.

لكن الأساس الصلب الذي كان يحركني لهذا الأمر أصبح الآن رخواً، وهو الهوية والدين!

كنت أغيّر المنكر حقيقة لأنّه يضر بسمعة الشناقطة، يلوّث سمعة قومي وعشيرتي من هذه الناحية؛ ثم لأنّ هنالك أمراً صريحاً بتغييره.

كم يبعد الآن ذلك اليوم في مسجد الجامعة حين استمعت إلى تلك المحاضرة، وكم تبعد الأيام التالية حين بدأت العمل بجد؛ وكم تبعد أيضاً تلك الأيام التي بدأت فيها الحيرة والتردّد حين لم تعد النصوص واضحة بما يكفي!

أعتقد أن هذين المطوّعين الجالسين أمامي ما كانا ليقوما بهذا لو أن جذوة الدين السلفية الحقة ما زالت متقدة داخلهما، لكنّهما لا يستطيعان المجازفة بمكانتهما ومظهرهما لمجرد شهوات عابرة، ولحدة المأزق لا يستطيعان تجاهلها!

لقد خرج أسلافهما من «إخوان من أطاع الله» من هجرهم في مجاهل الجزيرة العربية لهدم الشرك، وإقامة التوحيد في أرض الله؛ هل تتخيّلون أن سلطان بن بجاد وفيصل الدويش المطوّعين الأبرزين في تلك الحقبة، يمارسان خفية طقوساً صوفية، أو يكاتبان شيخاً مكياً صوفياً طلبا للبركة حين هما بغزو بادية العراق؟!

كلا، بالتأكيد؛ ذلك لأن الأعرابيين السابقين كانا يقطعان كل صلة بالخلق، وبصلافة شديدة، وللغرابة فالصوفية أيضاً يزعمون قطع تلك الصلة بذوق رفيع؛ فما يروى عن جلال الدين الرومي مثلاً من حديثه مع إمام أنطاكية حين طلب إليه أن يدلّه على الطريق إلى الله عجيب؛ عجيب لأن الشيخ أمر إمام الصلاة ببيع الخمر عند باب مسجده بعد صلاة العصر، وأمام العامة! طبعاً رفض الإمام، وبحدة؛ لأنّه لا يعبد الله بهذا وفق رأي الرومي، بل يعبد أعين العامة، وما تعنيه نظراتهم له من تبجيل وتقدير!

هذان الرجلان من نسل إخوان من أطاع الله وللسخرية مشركان بدرجة ما!

لأنّهما لا يستشعران نظر عين الله التي لا تنام، بل يخشيان ضياع ما وصلا إليه في الإكليروس الديني من مكانة رفيعة حين تتكشف رغائبهما الدهم!

قد يكون كل ذلك مبالغة، لكنّه ما يوصل إليه الإغراق في سحب الدين إلى الفلسفة المثالية والمنطق الأرسطي؛ بينما الأمر بسيط جداً، إن من يعبد الله كأنه يراه، ليس مسلماً فحسب بل هو في مرتبة أعلى؛ وليس لزاماً أن يكون المرء مؤمناً أو مشركاً، حسبه في هذا الزمان أن يبقى مسلماً فقط!

ما كنت لأصل لحل هذا الأمر البسيط وأنا في تلك السنوات؛ فقد كنت آخذ الأمر لمداه، وكنت شديد الربط بين الحقائق العامة وأنماط تطبيقها، فهذا ما تعلمته منذ الصغر!

كنت أحفظ عن ظهر قلب أن أفضل من طبق الإسلام على الإطلاق هم أهل القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

وكنت طبعاً أستثني من تلك القرون حسب ما يستثنى لي، وحين اشتد عليّ الأمر في خلوتي تلك أعددت خريطة بالشخصيات وأقوالها تبين لاحقاً ألّا اتفاق على رأي نهائي في أكثر من تسعين في المئة من الشخصيات العامة لدى السلف.

وجدت مثلاً أن شيخ الإسلام يذكر الجيلاني بخير في كتبه ويضرب به مثلا للصوفية الحقة، والجيلاني يزكي آخرين يلعنهم ابن تيمية؛ هذا على مستوى الفرق.

أما على مستوى العقيدة فالأمر شديد الاختلاط، فمثلاً الأهوازي الحنبلي الذي ألف كتاباً طويلاً انفرد فيه بذكر حديث «عرق الخيل» شديد الإساءة للذات الإلهية؛ وهو أمر في صلب العقيدة لأنه يتعلق بوجود الله، هذا الرجل يزكيه ابن تيمية وابن القيم ويعتبرانه من أهل السنة، ويرفعانه قدراً علياً دون الإشارة إلى تلك الخطيئة وهما المختصان في العقيدة تقريباً.

لاحقاً عرفت أن المساكنة و المذهبية يمليان أحياناً نوعاً من الود بين الخصوم، فتلك آداب عامة مقدّرة نلحظها في تاريخنا؛ فالجيلاني والأهوازي حنبليان أولاً، و لاحقاً أيضاً لاحظت على مستوى الشناقطة والموريتانيين القدامي قدراً من الود في الخصومة بين أعلام سلفيين ومتصوفة كبار، بل وتقديراً أحياناً، أرجعت كل ذلك إلى المذهبية والمساكنة.

أما في الطرف المقابل فإن الحلقة تتسع، فالنقد الجارح لا يتوقف، أعني النقد الذي يمسّ مصداقية المصدر؛ صدمت حين رأيت ما يكتبه بعض السلفية في نقد أعلام السلفية!

كانت أول ضربة موجعة سددت لقناعاتي ما قرأته من رأي الألباني في بعض سقطات ابن تيمية، كان ردّه شبيهاً بردٍّ على زنديق؛ أعني من جهة الحدة وعدم الاكتراث لصنمية ابن تيمية في الفكر السلفي.

هشّمتْ أوصافه بعضاً من جدراني الغليظة حول قناعاتي.

كانت ليال وأشهراً عاصفة في غرفتي تلك في أعلى منزلنا بحي السيح في المدينة؛ حين تبدّت لي مآخذ أساسية في صلب العقيدة، يثبتها السلفيون اللاحقون في حق أعلام كابن تيمية وابن القيم.

فعلى مستوى العقيدة طالعت رأي شيخ الإسلام بقدم العالم من حيث النوع، والقول بحوادث لا أول لها!

وهو تناصٌّ مع تهويمات الفتوحات المكيّة في أسماء الله الحسنى، حين يتحدث عن الأزلي اللازم!

وحين طالعتني العبارة الرهيبة: إنه لم يكن هنالك إجماع على أن الله لم يزل وحده ولا شيء معه غيره!

وقد قرأتُ ردوداً عاصفة تندد بهذا الرأي للزركشي و الحافظ العلائي والسبكي وابن حجر وابن دقيق العيد... وأخيراً الألباني.

أخذتني هذه الخلافات إلى مكتبة الحرم، كي أقابل صديقي الموفّق دائماً للآراء المتضاربة، فلم يسعفني بجديد:

- ما معنى هذا ألا تجد أن الأمر مسيء؟

- كلا، هذه آراء جرفت ابن تيمية خصومتُه مع المتكلمين إلى القول بها!

- لا أجد معنى لهذا يا شيخ بارك الله فيك!

- اسمع، بارك الله فيك، هنالك هفوات لشيخ الإسلام في العقيدة لا ينبغي الخوض فيها، لأن بعضا منها جرى في أول كتبه وهو بعد شاب كما قلت لك سابقاً، وبعضها مدسوس في كتبه التي مرت بعصور ساد فيها سلطان البدعة!

- وكيف نثق ببقية السند في الكتب الأخرى وقد مرت بالعصور نفسها؟

- هداك الله؛ إن كان ولا بد لك من الخوض في هذا فاعلم أن شيخ الإسلام إن صحّ ما نسب إليه -وهو موجود في بعض كتبه!- فقد قال أشياء أخرى مثل هذه، وهو أيضاً يقول «بعقيدة القعود» وهي قعود الله جل جلاله على عرشه وتركه مكاناً فارغاً منه -جل علاه- وإقعاد النبي صلى الله عليه وسلم بجانبه! ذكرها عنه الحافظ أبو حيان في تفسيره النهر البارد، وقد نسبها لكتاب مفقود لابن تيمية يسمى «العرش» كما نقلها عنه ابن القيم في «بدائع الفوائد» ونسب هذا القول إلى ابن جرير الطبري ومجاهد وأبي الحسن الدارقطني؛ وقد ردّ عليه الكثير من السلف مبطلاً هذا القول، وأثبتوا أن هذا على الأقل لا يصح عن مجاهد بل صح عكسه! أما ما عزاه للدارقطني فهو ضعيف السند، وأما جعْله قولاً لابن جرير الطبري ففيه نظر.

- عجيب يا شيخ!

- لا تتعجّب، فقد ذكر شيخ الإسلام في «بيان تلبيس الجهمية» أن الله لو أراد أن يستقر على

ظهر بعوضة لفعل! أضف إلى ذلك ما ذكره رحمه الله في «الرسالة التدمرية» و «شرح حديث النزول» من قياس صريح للخالق على المخلوق، والعمدة في هذا أن العقيدة ثبتت بالسند، وما ذهب إليه الشيخ في الرد على الخصوم جنى عليه -إن صَحَّ- جناية كبرى شوّهت طريقنا القويم، وانتهزها الخصوم والمبتدعة فوصفوا طائفة من أعلامنا «بمجسمة الحنابلة»!

- لكن كيف أوفّق وأميز؟ لا أخفيك يا شيخ فأنا أعكف على مراجعة كتب السلف، وقد أمسيت في حيرة شديدة.

- استعن بالله، وواصل قراءة الكتب الصحيحة!

- لم يزد صديقي أن فجّر ينابيع الفضول والحسرة في رأسي، طالعت كتاب «مختصر العلو» للحافظ الذهبي بتحقيق الألباني فأضاف نزقاً جديداً لحيرتي الفتاكة.

حين راجعت أقوال الألباني في أسانيد شيخ الإسلام، أوشكت على إدراك ما يريد الألباني قوله؛ فهو حين يصفه بالتسرع في تضعيف الحديث الصحيح وتكذيبه أحياناً لمجرد الخصومة مع المبتدعة يوشك أن يصدر حكماً قاسياً بحقه! هذا ما حدا بابن تيمية في رأي الألباني -أي التسرع- لتكذيب الحديث الصحيح: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

كما يرى في سلسلة الأحاديث الصحيحة أن شيخ الإسلام وهِم حين وصف حديث: «لو أراد الله ألّا يعصى ما خلق إبليس» بأنه «موضوع باتفاق أهل المعرفة» بينما هو برأي الألباني صحيح السند خالٍ من المتهمين غير منكر المتن.

وتصحيحه لحديث سماع النبي صلى الله عليه وسلم سلام من يسلم عليه في قبره كما في حديث ابن داود، وقد أورده في كتاب «التوسل والوسيلة» وسار على نهجه ابن القيم في كتاب «حادي الأرواح».

تبين لي أن الألباني يوشك أن يصف ابن تيمية وصفاً غير لائق!

أما الجدل الأكبر الذي استغرق مني ليالٍ فهو حديث «فناء النار» وقول ابن تيمية «فإذا قدر عذاب لا آخر له، لم يكن هناك رحمة البتة»!

فلسفة بديعة أحكم بناءها شيخ الإسلام، لكنها لم ترق لي وقتها فقد كانت تطعن في الصميم.

وكانت ثَم حواجز رهيبة تمنعني من تأمل بنائه المنطقي الرهيب، فقد كنتُ محاصراً بكتب هامشية أخرى مثل «كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار» وكتاب «القول المختار ببيان فناء النار»، إضافة إلى مناظرة العلامة محمد الأمين الشنقيطي للشيخ ابن إبراهيم كما وردت في كتاب «مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي - رحمه الله تعالى «لتلميذه الشيخ أحمد بن محمد الأمين الجكني، وتلك المحاججة الأصولية المنطقية البديعة التي رافع بها العلامة الشيخ الأمين

بين يدي سماحة المفتي الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مستخدماً أداة «السبر والتقسيم» الأصولية، والمستمدة أصلاً من المنطق، والتي فنّدت الاحتمالات المنطقية الستة لفناء النار، وأكدت في نهاية المرافعة أن النار خالدة، وغيرت رأي المفتي ومقرر المعهد العلمي الرسمي حول فناء النار، لكنها لم تبين بشكل قاطع ما علينا فعله بالحديث الذي أكد الشيخ الأمين -بموضوعية- أنه صالح للاستدلال! ولا بالآيات الأخرى التي نسخها عملياً بأدوات المنطق العقلية!

إن تلك الأداة الأصولية منطقية جدلية بامتياز، لكنها تتجاهل المنطق ذاته! منطقية لأنها تضع كافة الاحتمالات، وتعرضها على محكّم معتمد؛ ثم تعمد إلى ضرب أقوال المحكّم بعضها ببعض، لتنسف بعض أقواله ببعض أقواله، ثم لا تحدد أخيراً مصير أقواله التي تمّ التخلّص منها؛ فبعد كل ذلك الجدل بقيت آية صريحة علينا أن نتلوها دون معنى، ونقف منها منزلة بين المنزلتين، فلا هي محكمة صريحة الدلالة، ولا هي أيضاً منسوخة المعنى محكمة اللفظ!

إنها صورة من المزج الرهيب للأدوات المنطقية الرواقية، وأساليب المعتزلة العتاة، وتطلّعات الأصوليين السنة؛ لكنّ كل ذلك يحدث نتيجة في أفضل أحواله شبيهة بمعضلة «كذاب كريت» المنطقية أو بالجدل البيزنطي التاريخي!

ولأنها قاعدة منطقية، فهي تحمل عيب المنطق الأرسطي الأبرز، وهو التسليم بالمقدمات، مع إغفال حقيقة أن المقدمات قد تتغير، أو لا تكون على حالها من القوة، حين الفراغ من مناقشتها.

إضافة إلى سحب العقل إلى موضوع روحي، وخطاب ميتافيزيقي لا يعوّل على العقل كثيراً، إن ذلك الخلط الذي يستغيث فيه الأصوليون بالمنطق يغفل نقطة التقاء اللاهوتيين في مختلف الأديان وبعض الفلاسفة، وهي أن العقل أساساً غير مهيأ لاكتشاف الحقيقة، ولعدّة اعتبارات عند كلا الطرفين.

أصبحت ثملاً تماماً من آراء السلف، فجنحتُ إلى معاصريهم من الأشاعرة والمتصوفة لأقارن، وساعتها اكتشفتُ أن شيخ الإسلام ابن تيمية -المنظر الأبرز للقطيعة المذهبية- يلتقي في كثير من تلك الآراء مع عتاة المتصوفة كابن عربي، والفلاسفة كابن رشد، أحرى ببقية الأشاعرة، وأخيراً بالمعتزلة والشيعة أيضاً!

إنها لعبة جدل تقود المتابع من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار!

وتسخر من طرق الفهم، فالسخرية الكبرى أن الجميع متفقون، والجميع محتربون، والعمل الوحيد الصائب -من وجهة نظر عدمية- هو ما فعله التتار حين قاموا بإغراق الكتب في نهر دجلة، أو ما فعله أبو حيان التوحيدي حين أحرق مؤلفاته!

إذا كان الجميع متفقين ومختلفين، فلماذا إذن كل هذه الجلبة الطويلة لألف عام!

قررتُ أنّه قد آن الأوان للذهاب إلى أبعد مدى في تقصي الحقيقة.

واتجهت دون تحفظ إلى قراءة كل شيء متاح، أستعرتُ من صديقي الملحد كتباً شتى في

التصوف والفلسفة والأدب؛ وسرعان ما بدأت علامات انعدام الوزن تظهر علي، إذْ أصبحت أطفو على هلام التاريخ الفكري نظرياً، وغير قادر على الالتزام بما كنت ألتزم به عملياً.

كانت تلك أياماً رهيبة بحق، فقد أصبحت في سحابة أشهر قليلة منقطع الصلة تماماً بأي عروة كنت أمسك بها.

إنّها أشد آثار القراءة الجانبية فتكاً على شاب اقتحم مجاهل التاريخ الكلامي والفلسفي.

ومرة أخرى راق لي إيماني القديم، المسلّم دون نقاش، وأدهشتني أمنية أبي المعالي الجويني على فراش الموت بعد أن سلخ عمره في «الكلام» ورغبته في الموت على دين «عجائز نيسابور»! غير أني لم أعد قادراً على الرجوع إلى ذلك الإيمان القديم بنفس صافية.

أن أمارس حياتي بازدواجية كهذين الرجلين، دون أن أشعر بمرارة المفارقة؛ وراق لي كثيراً أن أكون من جملة «البُلْه» الذين هم أكثر أهل الجنة، أو أكون زنديقاً صرفاً كما يوصف ماني العظيم، أو صريحاً كقول أبي سفيان -في روايات الشيعة- لعثمان: «قد علمتَ أنْ لا جنة ولا نار»!

هذان الرجلان إذن غير متناقضين، وإنما أنا المتناقض، تاريخياً وعملياً، وقد لا يهمهما كل هذا الزخم الذي فكرتُ فيه، فمخاوفهما أقل شأناً، المهم حقيقة ألّا يضبطا في هذا الوكر، والله غفور رحيم!

سرعان ما بدأ العرض فجأة، دون إعلان، دخلت الفتيات في صف متناسق، كقافلة أزوادية، أو كعرض أزياء باريسي؛ وجلسن على الكنب البني الممتد برحابة في أرجاء الغرفة.

ذهلتُ؛ إنهنّ جميلات حقاً، الله ما أروع ما تحدثه الكيمياء حين تتلوّن بافتتان على أجساد العذارى، مُسحت تماماً لأواء الصحارى، ونَسلتْ وعثاء الفقر من وجوههن، فبدت كل واحدة منهن أجمل ألف مرة من الأخرى.

**فتاتان أما منهما فشبيهة الهلال**

**والأخرى من-هما تشبه الشمسا**

**فتاتان في سعد السعود و لدتما**

**ولـم تلقيا يومـاً هواناً ولا نحس-ـا**

**تكـــنّـانِ أبـشاراً حسانا وأوجها**

**مـلاحاً وأطرافـاً مـخضـبـة مُلـسا**

إنه تقريب لما أمسين عليه من بهاء وقد غدت السمراوات منهنّ أنضر سمرة، والبيضاوات أزهر بياضاً، ثم طلتهن نضرة النّعيم، وتمرّدت سيقانهن الموشّاة بالحناء والطلاء اللامع على جلابيبهن المشققة عنوة، لكأنّهن كما وصف أحمد شوقي قصور الكرنك:

كعذارى أخفين في الماء بَضّا  سـابـحـات بـه وأبـدين بـضـا

رأيت حسنهن المصقول، فأدركت حجم إخفاق المتنبي في ذم الحضريات حين أثار الغرائز بذمهن:

ولا برزن من الحمام مائلة  أوراكهن صقيلات العراقيب

هذا ما بدت عليه الفتيات الحضريات الآن!

حتى الفتاة/الرجل الأخضر، بدت منتعشة، لم أكد أعرفها فقد علتها بسمة كبيرة وتورّد خدها المنتفخ قليلاً!

نظرتُ إلى مينا، فأدركتُ ملامحها لأول مرّة، إنّها في هذه اللحظة تبدو أكبر سناً، وأشبه بأمّها، وأقل جاذبية من ليلة البارحة بسنوات جنسية طويلة.

فغر المطوّعان فميهما، وزال الإحراج، وبدأ المزاد بشكل مباشر.

- ما شاء الله.. ما شاء الله مليحات يا أبا صالح.

- ما شاء الله.. الله يحفظهنْ، موريتانيا بلد الجمال.. ليست بلد العلم فقط هههه

تدخّلتْ مينا بصرامة منهية عبث المطاوعة، وتكلّمت بلغة التّجار:

- جميع الفتيات أبكار، إنّهن قادمات للتوّ من موريتانيا.

عجيب، كان الأمر قبل ساعة يتعلق بواحدة فقط!

تدخّل أحد الرجلين بحماس:

- أنا أريد هذي، الزينة هذي.. أنت وش اشمس؟

صمتت الفتاة خجلاً، ثم تنحنحت وقالت ببسمة صفراء: «لمْنيّه» فأكمل الرجل: ما شاء الله اسم زين.. كلكنْ زينات.. ما شاء الله.

أسرّ إليه صديقه بكلمات، فقال ضاحكاً:

- لا أنا سبقتك يا أبا تركي، بس البنات كلهنْ زينات... الله يحفظهنْ.

أدركتْ مينا بحسّها المومسي أن تلك الفتاة هي أيقونة المحفل؛ وحقيقة لم يكن هذا يحتاج إلى كبير إدراك!

تلك الفتاة المكتنزة، تدعى «لمْنيّه منت الدامي» تحمل مقدّمة ضافية، مليئة بالتفاصيل، كما أنها في حال الجلوس تشرف على رؤوس الفتيات بشكل لافت، وذلك يعني شيئاً مهمّاً لمحبي الخلفيات الناتئة، وجهها شبه مستدير وعيناها واسعتان وشفتاها متورّمتان، كل هذه التفاصيل أمور إضافية قياساً إلى جسمها الذي يتمرّد على حالة جلوسها ويظهرها كساعة رملية، أو بالون وردي مخصّر.

- تلك الفتاة تطلب أمّها مئة ألف ريال!

أدلت مينا بهذا التصريح، كنتُ أول من صدم، مئة ألف ريال أتصوّر أنها تكفي في بورصة الرقيق الأبيض العالمية لشراء عشر سوريات، أو خمس روسيات، وقد تكفي لشراء أوكرانيتين دوّختا شرق وغرب أوروبا!

أحسستُ أن المزاد الكبير يلقي عليّ كآبة لا أتحمّلها فانسحبت إلى غرفتي بخمول، لم يعر أحد انتباهاً لخروجي عدا نظرة دافئة من مينا.

وحينما أوصدت باب الغرفة الحميمية كان الوقت عصراً، وكان مرسم الضوء في أوج انشغاله يعكس المخلوقات المشوهة.

كانت تلك المخلوقات بصمتها أكثر حفاوة بوجودي الهلامي من محفل المسيار في غرفة المجلس؛ وبعد وقت قصير سمعت زغردة جماعية، أدركت أن إحداهن تم تعميدها أخيراً في سلك المسيار بشكل رسمي.

## (8)
## قطع الصِّلَات!

... فلست لهم وإن قربوا أليفا

كما لم تأتلف ذال و ظاء!

أبو العلاء المعري

تثاءب الملل داخلي وأنا في تلك الغرفة، بدأت سوداوية العالم تطبق على مسائي ذلك؛ ما الذي علي فعله، وأنا على هذه الحال منذ مدة طويلة؟

لم أستطع أن أحدّد سبباً حقيقياً لنزوعي عن الحياة، وتمسّكي بها!

رغم أنّ مينا كانت ثملة حين باحت بسرّها، إلا أن فكرتها في الرّحيل راقت لي كثيراً.

يجب أن أرحل، لقد بحثت عن الله كثيراً في هذه الأرض، علي الآن أن أبحث عن نفسي، إذْ بتّ مقتنعاً أن ذاتي هي الحقيقة الكبرى الّتي أثبتّ وجودها حتى الآن، وإن كان هذا الوجود لا معنى له بشكل مخيّب للآمال.

منذ أن أوغلتُ في هذا الجنون وأنا أسترجع تلك الحياة، وتلك المفارقات الحادة، تلك المواقف التي شكّلت نوافذ تسرّبتْ منها روحي إلى الهباء، لعلّ إحدى تلك اللحظات التي أضرمتْ نار تيهي وأشعرتني بالحرّية كانت لحظة انكشاف أمري لأبي وعمّي!

في تلك الليلة بعد أن أخفيت أمر طردي من الجامعة عن أهلي لأيام، دخل والدي الغرفة مكفهرّ الوجه، وجلس عند الباب، كنت منهمكاً في القراءة، تنبّهت عندما حمحم، وأردف:

- لم تقل لي إن الجامعة طردتك!

- آه.. أبي... السلام عليكم... فعلاً.. حدث ذلك للأسف.

- لكنّك لم تخبرني!

- أجل... فعلاً، كنت أنوي معالجة الأمر قبل أن تعلم به، هنالك محاولة للعودة.

- ما الذي تقرأ؟

- كتاباً، كتاباً استعرته.

- أرني... وتقدّم بحزم منتزعاً الكتاب من بين يدي ليقرأ العنوان الصادم: قصة الفلسفة! ثم يرمي به بعيداً، ويحتد:

- أها، كنت أتوقّع مثل هذا منذ تأمّلت مظهرك قبل أسابيع، لم تعد تواظب على الصلاة في المسجد، ولا تحضر للغداء أو العشاء معنا، وتغيب عن الجامعة وحين تحضر تشعل الفصول جدلاً و كلاماً، حقّ لهم أن يطردوك، فأنت نبتة فاسدة توشك أن تفسد الجامعة، منذ متى تقرأ هذه الأشياء؟

- آه منذ... منذ مدة قصيرة فقط.

- قل لي من أوصلك إلى هذا؟ هل تشكّ في عقيدتك، هل تبحث عن الحقيقة عند الفلاسفة؟

- أبي، أنا لا أشكّ بشيء.

- أنت زنديق، لقد بلغني من طلاب العلم الكثير حول أسئلتك وشكك، وقد كلّمني أحد الإخوة بسبب طردك الحقيقي، إن عمادة شؤون الطلاّب تعتبرك زنديقاً، اسمع، إنّني رجل حازم، إن من آوى محدثاً في هذه المدينة فعليه لعنة الله، لن أسمح لك بإفساد إخوتك ونشر هذه الفلسفة الشيطانية التي أصبحتَ خاضعا لها، عليك أن تغادر هذا البيت ولن تعود إليه إلا إذا تُبتَ وأشهدتَ على نفسك أنك تائب، هيا اخرج.. اخرج، لا تحمل معك شيئاً سأحرق كل هذه الشرور التي خلفتها.

كنت مأخوذاً بالمسار الذي سار عليه الحديث، لم أكن أتوقّع يوماً أن يطردني أبي من بيته، وأقابل عمي خارج غرفتي مصغياً إلى حديثنا، ثم ينظر إلي باستهزاء؛ لا شك أن عمّي هو من حرّض أبي، ولا شك أنّ أمي رحمها الله تتقلّب الآن في قبرها.

نزلتُ الدرج دون وعي، سريعاً، تستحثني مشاعر الغضب، كانت أختي تسترق النّظر إليّ من خُلل الباب، لم أودّع أحداً، ولم يمسك بي أحد.

أسفل العمارة توقّفت قليلاً، ثم تساءلت لأول مرة: إلى أين أذهب؟

كانت لحظة حرّية وضياع نادرة حين تقطّعت بي السّبل أمام دار أهلي، لم أعد منذ تلك الليلة الفتى السّلفي المطيع، ولم أعد قادراً على أن أكون شيئاً محدّداً.

كل ما فعلته في أيامي الأولى كان سخيفاً، ذهبت إلى صديقي الملحد وأقمتُ لديه في غرفة مماثلة تماماً لغرفتي؛ واتصلتُ بسلمى ابنة عمّي وأخبرتها بما حدث، وصارحتها بأن أباها هو السّبب الأول، وفي المقابل احتدّت في الدفاع عن أبيها، وفي نهاية المحادثة القصيرة صرختُ بها:

- هل تظنّين أنني بعد هذا سأتزوج بك؟

- طوط.. طوط.. طوط.. كان ذلك محاولة فقط لنقل صوت الهاتف الذي صدمني!

أغلقتْ الخط الهاتفي، وكانت تلك آخر جملة أقولها لسلمى، ولا أعلم هل كانت تلك الجملة تساؤلاً بريئاً عن إمكانية الزواج أم سؤالاً استنكارياً وقحاً، لكنّها أضحت كذلك منذ أن شكّلت نهاية لعلاقتنا.

أُصبتُ في أعماق إيماني؛ كنت حتى تلك اللحظة متمسّكاً بكوني على الطريق القويم، وأكملتُ بحثي رغم ضياع أكثر المصادر التي كانت بحوزتي.

وعندما استبدّ بي القلق جراء الحيرة في فهم بعض النّقاط انطلقت إلى من أثق به، صديقي راهب العلم في مكتبة الحرم، أدين لهذا الرجل بجرعات هائلة من المورفين المعرفي، فطالما خدّرني بشروح ضافية، وفجر في اللحظة نفسها تساؤلات لا تنتهي!

سألته مرة: صراحة، يا شيخ، الطريق الذي نسير عليه شديد الوعورة، ألا تعتقد أن الخوض في علم الكلام بدعة بحد ذاته؟ فأجاب وقد نحى نظارتيه جانباً:

- اسمع هداك الله، جاء هذا الدين مكتملاً، عندما نزلت الآية {اليوم أكملت لكم دينكم} وما تكلّم الصحابة ولا التابعون ولا حتى تابعيهم في العقيدة، وإنّما حصل اللغط عندما تفرّق الناس في الأمصار، ودخل العجم في دين الله، فحملوا معهم بعض الفلسفات والهرطقات أملت على أهل السنّة الرد عليها، وإخراس ألْسنة الفتنة التي لهجت في كل قطر.

- لكن يا شيخ أرى أن الخلاف الدائر في علم الكلام مزّق الأمة، ولم نعد نعلم هل الغرض من العقيدة معرفة الله أم معرفة من يعرف الله!

- الغرض من العقيدة هو معرفة الله، وتحديد من يعرف الله من الناس يتضح من خلال ما يصرح به من معرفة الله.

- لكن أنت تعلم أن جماعتنا (المشايخ) خصوصاً من أهل نجد يجعلون العقيدة أساساً لكل علم وهي نقطة تؤوب إليها كل العلوم.

- نعم، صدقوا، فالعقيدة هي مثابة الدين، وهذه الدعوة قامت على هذا الأساس.

- أحسستُ بجرعة الصرامة في حديث صديقي، فرفعت سقف المحاورة:

- بهذا المعنى لن نجد أحداً يخلو من مطعن، فكل واحد من علماء الأمة الذين نقلوا القرآن والحديث وشتى العلوم، يجب التدقيق فيه على حدة، ليقاس على مقياس أهل نجد!

- أستغفر الله يا شيخ فهذه حجج المبتدعة!

- كلا، هو كلام رجل طرده أبوه وعمه من رحمة الله لأنهم وجدوه يقرأ كتاباً مخالفاً.

- حسبنا الله ونعم الوكيل، تب إلى الله من تلك القراءة وصالح أبويك!

- لكني ياشيخ أجد الآن فيما أقرأ وأسمع من أشرطة نقداً ولمزاً في عقائد السلف الذين نقلوا هذا العلم إلينا، كيف يستقيم ذلك مع أخذ بعض علومهم وترك أخرى؛ فها هو أحد المشايخ يصرح أن ابن حجر الهيتمي مثلاً من حاملي لواء بعض البدع العملية وداعيا إليها؟

- نحن لا نعبد الأشخاص، ولا نعرف الحق بهم، بل الحق بيّن ولا أحد يعلو عليه.

- المشكلة الكبرى أن الحق يصلنا بسند الرجال في كتب الحديث، لكن، دعك من ابن حجر وهو من هو؛ انظر إلى سماحة المفتي يقول إن ابن حجر ليس وحده بل كافّة الشراح كابن بطال وابن التين وأبي جمرة، جميعهم، لم يوفّقوا (لمشايخ) ينشئونهم على عقيدة أهل السنة، ولهذا اجتهدوا وظنوا أن ما قالوا به هو الحق، فلا يؤخذ منهم!

- هذه آراء تتعلّق بعقائدهم وليس ما ينقلونه من شروح للحديث.

- كيف نأخذ عنهم حديث رسول الله ونطعن في عقائدهم! ألا يحق لنا أن نوسّع دائرة الرواية لتشمل الشيعة وشتى الفرق ما دامت العقيدة ليست أساساً؟ ثمّ هو يقول إن ابن حجر والنووي ليسا من أهل السنّة!

- اطّلعت على رأيه وهو يرى أنّهم من أهل السّنة فيما سلّموا فيه دون تحريف.

- يا شيخ دعك مما قلتُ أيضاً، وانظر إلى رأي الشيخ ناصر الأحمد في الشاطبي في أنه فاسد العقيدة، ورأي الشيخ ابن جبرين في السيوطي، ورأي سفر الحوالي في ابن السبكي ونقده لكتابه طبقات الشافعية وكلامه حول عقيدة ابن السبكي وأبيه، والكلام حول ابن الجوزي والباقلاني والذهبي وغيرهم الكثير، ألا ترى أن هذا يطيح بالثقة في السّند العام، إذْ إن أكثر العلم نُقل عن هؤلاء وهم متّهمون في عقائدهم؟

- هذا من سنن العلماء، أن ينقّح بعضهم أقوال بعض، والجرح والتّعديل من العلوم الشريفة، وهو ديدن العلماء وقد جرح البخاري وغيره الرّجال وأبرزوا مطاعنهم كل ذلك لا يعدّ تجريحاً بالمعنى العدلي في الشّريعة، وإنّما تقييداً للرواية وضبطاً لنقلة الحديث، انظر ما جرى في كتاب «السنّة» لعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في حقّ رجال عدول كأبي حنيفة النّعمان رحمه الله.

- هذا خلط واضح يا شيخ، فما نقله عبد الله عن أبي حنيفة النّعمان في كتابه تم اجتزاؤه، فقد حذف الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ هذا الفصل حين طبع الكتاب لأنه كما رأى من جهة الحكمة الشّرعية كان له وقت وانتهى!

- لكنّه أعيد في الطّبعات الجديدة، وهو موجود هنا لدينا في مكتبة الحرم.

- أعلم، لقد أعيد في طبعات أخرى بسبب احتجاج طلاب العلم وشيوع خبر الحذف، وحين حذف أولاً وافق كافّة المشايخ على حذفه، تماماً كحذف الجزء العاشر من الفتاوى لشيخ الإسلام بسبب مواقف ابن تيمية من التصوّف، وتماماً كما أخبرتني أنت يا شيخ عن استغنائهم عن رسالة «قتال الكفار».

- العبرة بالمقصد، فحماية النشء من الالتباس أولى، أما الباحثون فبإمكانهم العثور على النّصوص المطلوبة دون حذف.

- ما أعنيه أننا أمام عملية شاملة لتكييف السّلف، وتمحيص أقوالهم وكتبهم لتتوافق مع ما نرى نحن الآن.

- أنت تقول كلاماً خطيراً يا شيخ، أعتقد أن هذه هي نفسها دعاوى الخصوم.

- هي بالفعل كذلك، لا أخفيك، أصبحت أميّز تماماً بين العقيدة في تركيبها البسيط الذي جاء به محمد بن عبد الله، وبين علم الكلام، وما جرى من ربط للعقيدة بالجهة والامام منذ مئة وخمسين عاماً.

انطلق الحديث في مسار تافه، وودّعت صديقي أيضا لآخر مرة!

كنتُ في أيام أغلق فيها نوافذ الماضي، وأبحث عن كوى يتسلّل إلي منها ضوء الحقيقة.

توالتْ عليّ التساؤلات حين اكتشفتُ أن السلفية التي آمنت بها، وكانت مسلّمة لا شية فيها، قد لا تكون كذلك، فكثير من جوانبها صيغ في أزمنة لاحقة، بل ما تزال حتى يومنا هذا تحت الصياغة، تضاف إليها كل يوم فصولٌ، وتحذف أخرى.

وكم كان الأمر مفاجئاً لصديقي الملحد حين اكتشف أرضية مشتركة بيننا لأول مرة، لكأنّما لمح انفراجة في حائطي السميك، فأسرع إلى دعم تحوّلي، وتيهي، لقد كان رفيق سوء جاداً تماماً.

في غرفته تلك كنّا نتحلّق كل ليلة في نقاش طويل، وينهمل رواده إلينا طلباً للمتعة والجدل، منهم الصوفي العامي، والجاهل اللاهي، وكنت حتى تلك اللحظة أمثّل ما كنت أمثّل من رأي، لكنْ أمسيت أقل نزقاً، وأكثر قبولاً للرأي، لم تمض أسابيع كثيرة حتّى بدأت المصائر تفترق بفعل القراءة الفوضوية والنّزعات النفسية.

خلال تلك الأسابيع حدثت ثلاثة أمور مهمّة عمقت عزلتي عن العالم، الأوّل محاولة فاشلة قمتُ بها للعودة إلى المنزل، عنوة، ودون أسباب اتّجهت إلى دارنا، استقبلتني أختي عند الباب، فرحتْ بعودتي واحتضنتني بحنان، شهقتُ لتذكّر أمي فقد أمستْ شبيهة بها على وجه غريب.

بعد دقائق دخل عمّي العمارة وانتبه إلى حذائي عند مدخل الشقة، فناداني:

- عبد الله، تعال.

خرجتُ مرتبكاً، فقد عرفت صوته الأجش، بادرني:

- اعلم يا ولدي أن هذه العائلة لا ترغب في أن يكون للشيطان نصيب منها، ما قاله أبوك هو موقف عائلي، لن تعود إلينا ولن تتزوّج من سلمى حتى تعلن توبتك عن هذه الضلالة، وتعود إلى الجامعة.

كنت مطرقاً، أتخيّل أنّني على جواد أبلق أمسك بحربة من القرون الوسطى أطعن بها عمي طعنة، فيعلق برأس الحربة، فأنطلق به على حصاني أحمله كأسمال وأدكّ به أقرب حائط؛ كانت تتناهى إلي في اللاوعي تنهّدات أمي رحمها الله من أعماله، وسيطرته التامة على أبي، ودلاله لامرأته وبناته وأولاده وقسوته علينا؛ تنبّهت إليه مصعّداً:

- لقد شاع في النّاس خبر ضلالتك، وما تتفوّه به من كلام الفلاسفة والمبتدعة، وتغيّر سمْتك، حتى توشك أن تشرب الدخان الخبيث، هداك الله يا بني.

حدثت ربكة قويّة داخلي وأنا أصغي بحقد، حين سمعت وقع خطى أعرفها جيداً، إنّه تصعيد أبي المعتاد على الدرج، فهو يتوكّأ على الحدائد الداعمة للسّلم ويتنفّس بعمق، وغالباً ما يقول: الله، لكنّه صاح قبل أن نراه:

- من هناك؟

- إنّه عبد الله، لقد عاد.

- عبد الله، ماذا يريد هذا الزنديق في بيتي، ألا يكفيه أنّه دنّس الحرم ومكتبته بسبّ العلماء والمشايخ!

علمتُ وقتها، أن المجتمع قد تحالف، وسرق أخصّ أصدقائي، لقد أصبحتُ مستهدفاً بشكل تام، أوشك أن أكون حلال الدم.

- اخرج من بيتي حالاً، لمَ عدتَ؟ لا أريد أن أراك البتّة.

انسحبت ذليلاً كما أتيت، وأسفل العمارة استوقفني عمي وألقى إلي مئة ريال، نظرت إليها بابتذال وانطلقت مخلّفاً دهشة عمّي وجثة مئة ريال؛ ما كان مطلقاً يتوقّع أن أرفض... يا للهول!

هذا الأمر قطع صلتي تماماً بعائلتي، فكرّستُ كامل وقتي للقراءة بأعلى منزل صديقي، لكنّ الأمر الثاني الذي حدث أشعرني بحدة المفارقة.

حين بدأت التّوجه إلى البحث، بدأ صديقي الملحد السّير في طريق آخر، بدأ البحث بطريقة أخرى غير متوقّعة، لقد أصبح صوفياً دون مقدّمات!

صار همه الشاغل التسبيح والتأمل، وبدأتْ علاقاته بالناس تأخذ طابعاً قدسياً، فيا للعجب، من قمة الإلحاد، إلى الإيمان بشيء شديد التمويه، ومن الديالكتيك الصاعد إلى الديالكتيك الهابط حسب وصفه!

إنّ تحوّل صديقي أشعرني بمرارة المفارقة، وأعلم أن لتاريخ عائلته دوراً، كما أعلم أن لظروفه الصعبة دوراً آخر في البحث عن سلوة من توكّل أو محبة للفقر.

ما رأيت من ارتياحه حثّني على التنقيب في عوالم التّصوّف، و أكثر ما أعجبني أن تحوّله الفكري لم يسلبه روحه المرحة، وتدخينه، وولعه بالغزل؛ فأنا القادم من صحراء العاطفة، كنتُ على أعتاب ترف الفكر، وكنتُ حفياً بكل أشكال الحرّية.

ذهبت معه إلى أقصى حدود الاندماج، بدأت أتعاطى الدخان، قليلاً قليلاً، ما زلتُ أحتفل في أعماق بصيلات التذوق داخلي بطعم أول سيجارة (ميريت) دخّنتها لديه!

وما زلتُ أحتفل عميقاً في أبعد هرمون داخل فقرات صُلبي بأول صورة إباحية شاهدتها لديه.

لكنّ صديقي رغم كل هذا الترف صوفي ممارس لأوراده، مناقش لأفكار الفلاسفة بسماحة، مقيم للصلاة، وكان حتى وقت قريب يسخر منّي حين أقوم لتأديتها!

لقد حيّرني نمط الحياة ذلك، وأصبحتُ أتعجّب من أيام الهيئة، وأعمل الفكر في كل ما أقرأ، وأبعد كل يوم ميلاً عن جذوري السلفية.

ذهبتُ معه مرّة إلى ما يسمّونه «حضرة»، أجد الآن أنّ أروع ما وجدته هناك كان النغم الحجازي الجميل -الذي كنا نسميه قديماً لحن الفسقة- و العشاء الفاخر؛ أمّا ما دار من تجمهر وتمايل عند ذكر المنشد لمولد النبي فكان أمراً محبطاً، إذ وجدته تافهاً ومشيناً، بينما وجده صديقي قمّة الحفل من الناحية الروحية.

بكل يوم يمضي أبتعد عن جذوري، ويتوغّل صديقي في الإيمان، إنّها مفارقة أشعرتني بالرّهبة!

هزّتني، لكنّها لم تثنني عن السّير قدماً، أصبحتُ لا أجد الطريق إلى الله واضحاً كما كان، بل أصبحت مؤمناً أن الطريق إليه قد لا يكون موجوداً البتة!

ما أخطر ذلك الإحساس، حين ترى العالم بلا رب!

أصبح النّص الذي كان مدار الحياة لاغياً، وقد صنّف صديقي تلك الحالة بأنّها ردة فعل طبيعية لحياتي السابقة، فنحن كما يرى لا نؤمن «بمنزلة بين المنزلتين» وهذا ناتج عن اعتماد الفكر السلفي برأيه على المنطق الأرسطي الذي يعتبر الحقائق ثابتة، ويقسم العالم إلى أبيض وأسود، وحق وباطل، وظلمة ونور!

أعجبتني فكرته، غير أنّه لم يقدم لي شيئاً صلباً -كما كان لدي- أؤمن به!

كنت وإياه على طرفي نقيض، تماماً كالسفسطة والمنطق، لكن أجمل ما جرى أنّنا لم نحترب، بل كان كل منا يختبر أفكار الآخر حتى آخر نقطة، ثم يتأكّد أنها لا تصلح له!

هذه القيمة ما زلت أحفل بها حتى الآن، ضمن باقة صغيرة جداً من القيم التي صمدت.

ما كان تصوّفه ليقنعني، وما كنت على نهج واضح لأجذبه إليه، كنت أتسلّل إلى الإلحاد لواذاً، وغادره صديقي إلى التصوّف بقداسة.. غير أنّه لم يفقد اهتمامه به كما فقدت اهتمامي بالسلفية!

ذات مساء رغبت في صحبته إلى الشيخ محمد علوي المالكي، فلطالما سمعت به، وكنت في أيامي الخوالي أشمئز من وقع اسمه؛ قرّرتُ بمشاعر تشبه الرغبة في (التّكفير عن فعل ما) أن أذهب معه إلى مجلس الشيخ الصوفي الأشهر في الحجاز.

دخلنا منزله في حي سلطانة، أو دار ضيافته، فإذا به مجلس عادي كأي مجلس علم، لم أرَ من يتلوّى وجداً أو جذْباً كما كنت أتوقع، الناس متحلقون في مربع كبير في مجلس تحفّه الكنبات، وقد جلس عن يمينه أعيان المدينة من تجار ومتقاعدين -عرفني بهم صديقي بحماس نفْساً نفْساً عن بعد- بينما افترش الأقل شأناً مساحة المربع من الأبواب حتى أقدام الشيخ.

جلسنا أقصى المجلس، وكان الشيخ يشرح حديثاً في الموطّأ عن جامع الأيمان.

لم أسمع في كلامه ما يناقض المعنى الواضح للحديث، ولم أجد أيضاً عمقاً روحياً كنت أتوقّعه.

في أثناء شرحه وقف شيخ موريتاني سوّد وجهنا يومذاك، وصرخ بأعلى صوته:

- أنا شريف يطلب هدية جده، أنا شريف يطلب هدية جده، وأخذ يلتفت يمنة ويسرة كالمؤذن، وأشار عليه التجار بجانب الشيخ أن اجلس فسوف نقضي حاجتك.

أسرّ إلي صديقي أن أغلب التجار أشراف أيضاً، وأغلب المريدين كذلك، أحرى بالشيخ، فأحسست أن هذا الموريتاني يبيع الماء كما يقول المثل الحجازي في حارة السقائين!

حين انتهاء الشيخ من شرحه هجم النّاس عليه للتبرّك، ولوَى صديقي عمامته وانطلق نحوه، فتبعته، لمّا رأيت الجميع يطلب حوائجه، دوّنت أسماء كتب في ورقة ودخلتُ الصف لألقي عليه السلام.

كان يجلس على كرسيه، وأسفله مريدون يدلّكون قدميه، بينما آخر واقف يدلّك أكتافه، وكل المسلّمين حينما ينتهون إليه يقبلون يده، بينما يبالغ بعضهم فيقبل ركبته أو ما تحت ذلك.

تحت وطأة ما أحمله في اللاوعي لم أنحنِ بتاتاً، بل وقفت على رأسه كغفير ومددت يدي في

صلافة، توقّف مدلّك كتفيه عن التدليك ونظر إلي بحدّة، ورفع الشيخ رأسه بسماحة ونظر إلي وقال بعد أن قرأ الورقة الصغيرة التي مددتها إليه:

- يا ولدي إنت عاوز مكتبة كاملة... أنا نفسي ما عندي الكتب ألّ طلبتها هههه.

سرت موجة ضحك من الجميع تجاوباً مع ضحك الشّيخ، وقال لأحد المريدين أعطه كتبي وموطأ الإمام مالك وبعض الكتب الأخرى.

خرجتُ يدفعني برَم المريدين الذين أزعجهم سوء أدبي، وقد ندمتُ فعلاً على ما فعلتُ، وكان سوء أدب حقيقي، فماذا يضير لو انحنيت قليلاً لشيخ سمحٍ طاعنٍ في السن يعظمه مريدوه؟

بعد عودتنا تفحصتُ كتبه فألفيت فيها كتاباً ذا عنوان بارز: «منهج السلف في فهم النصوص»! انهمكتُ في قراءته ليلتي تلك، وفي مساء الليلة التالية خضتُ مع صديقي حواراً طويلاً حوله، وحول دفاع المؤلف التوفيقي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقوله أنه يبيح الاحتفال بالموالد ثم قادني الحماس أكثر:

- أتعلم، أشعر بالرغبة في إهداء هذا الكتاب للشيخ سلمان مدير فرع الهيئة؛ أعتقد أن الشيخ علوي هنا كان يحابي الحكومة برأيه.

- لا أعتقد، فالشيخ يحسن الظن فقط.

- انظر إلى احتفائه بفتوى ابن تيمية والشيخ محمد بن إبراهيم في تارك الصلاة.

- نعم يعرضها للاستئناس فقط.

- وهل يعرضها في مجالسه أيضاً، أم إن هذا نص موجه للخارج؟

- لا أعلم، أنا مستجد، ما يجذبني للتصوف هو ما تنتقده، سعة الأفق، إن الشيخ يسرد فتاوى السلفية كأحكام شرعية، و يخالفهم فيما عداها.

- هذا نفسه ما يفعله السلفيون، فهم يؤمنون بما ينقله الذهبي والشاطبي والسيوطي وابن حجر وغيرهم فيما يتفقون معهم فيه فقط، إن هذا سلوك عام هههههه لكن أتعلم؟ لقد راقت لي فكرته في استقراء الصفات خصوصاً الاستواء، تلك التي سماها (الحل الأخير في قضية الصفات)! فهو يرى هنا أنها وردت جميعاً للتأكيد على ما بعدها، أي إنها لم تكن يوماً محل نقاش، فالاستواء مثلا ورد للتأكيد على ما بعده في آيات من أبرزها: {له ماف ي السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى* وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} هذه الفكرة راقت لي كثيراً؛ لكن أتوقع ألّا يكون الحل الأخير على هذه الشاكلة.

لم يجب صديقي بشيء، وطالما كان محباً للجدل، غير أن تلك الروح وَقَدها التصوّف، فابتسم وانخرط في ورده، بينما أشعل سيجارة بيده اليسرى!

اكتشف صديقي طريقه إذن، وبقيت وحيداً، نقّبت في موطأ مالك، الكتاب الذي أهداه إلي الشيخ، والذي رفض الإمام مالك لاحقاً رغبة المنصور في توحيد المسلمين عليه!.

إنّه أقدم الكتب الشرعية التي ألفها المسلمون، والأقرب إلى عصر النبوة، وبدت لي ملاحظة رهيبة بعد أن ختمته، كُتُبُه أو فُصوله الواحد والستون لم تشمل شيئاً عن العقيدة!

بدأ بأركان الإسلام متجاهلاً الركن الأول، فخصص الإمام 16 فصلاً للصلاة ومن ثم بالزكاة والصيام والحج، ومضى في كافة أشكال الفقه من بيوع وأنكحة وغيرها، لم أجد سوى بابٍ واحد قد يكون مظنة للبحث في العقيدة، هو الكتاب السادس والثلاثون كتاب القدر، وقد حوى عشرة أحاديث تدور حول تعريف القدر حتى المتعلق منه بعدة المرأة!

الرسالة واضحة، لم تكن العقيدة يوماً هماً إسلامياً، فقد كانت بسيطة التركيب على الدوام.

بعد تلك الليالي حدث الأمر الثالث الذي غير حياتي، ووجّهني إلى وجهة غير متوقّعة البتة، بدأت التنزّه مع بعض الأصدقاء في البرية المحيطة بالمدينة، وهناك، في فَدْفَدٍ منعش الأنداء، خلف معاطن الإبل التي ينتشر حولها المتنزهون وهواة حليب النوق وأبوالها، هناك اكتشفت مجلساً مختلطاً، متوارياً جهة الجبل، يعمره فتية وفتيات شناقطة، يسمرون ويتغزلون، وينسجون خلف تلك البرّية ثوباً من دلال!

هناك اكتشفت ثقافة البيظان التي لم أكن أجرؤ على تسوّرها، كرهاً، أو جهلاً، أو حتى خوفاً؛ لم أصدم فقط بالألحان الموسيقية البيظانية، وثقافة الغزل البسيط بين الشبان والفتيات، بل إن أكبر صدمة حلت بي كانت معرفة فتاة تدعى مينا!

كانت مينا رغم أنها تكبرني بأعوام قليلة تبدو أصغر من ذلك بأزمنة؛ إنّها فتنة بمنطقها وأسلوبها المتقدّم على أداوتي البسيطة.

وجدتُ في رغدها عزاءً عن جحيم أفكاري وتنقيبي في الكتب الصفراء، ولأول مرّة في حياتي أكرّس كامل وقتي لأنثى.

الْتقطتُ وعدها بافتتان، وبتُّ ليلتي تلك أحدّث صديقي عنها، وكان الأمر شديد الإثارة، مضتْ أسابيع وأنا أتبعها في المدينة من دار لأخرى، ومن منتزه لآخر، في مجاهرة خطرة أمام أعين الرفاق القدامى في الهيئة.

بعد التّيه الصغير في مينا، استيقظت على تيهي الكبير، فقدتُ الرغبة في الغزل، وغالني الإحساس بالذنب، لكن تجاه من؟ لم أستطع أن أفهم حيرتي، فلم يعد لدي ذلك الإيمان، وأصبحتُ منقطع الصلة بأي انحياز، حتى عائلتي على الأرجح نسيتني تماماً.

أمضيتُ أشهري التالية قارئاً سيئ المزاج، مفلساً يبحث عن إله ووطن، وها أنا الآن بانتظار مينا في غرفتنا التي طالما كانت مسرحاً لشهواتنا التافهة!

لم تأت مينا، هل تنوي تزويج كل الفتيات، قد لا تحضر هذا المساء إن كانتْ تعقد العزم على ذلك!

## (9)
## إقلاع!

يظل ملء فؤادي

في غيبتي وشهودي

بيت النبوغ وكهف

المجد القديم الجديد

جبران خليل جبران

اندفعتْ مرة أخرى كأن شيئاً لم يترسّب في روحها، ولم يحتشد أسى بعينيها طوال ذلك اليوم؛ تلك هي مينا، امرأة التصرفات التي لا يمكن التنبؤ بها.

صرختْ: حبيبي!؛ كأنني لم أكن في متناولها طوال الوقت، أكملتْ وهي تغلق الباب:

- أعجبني صمتك في المجلس، تجاهلك لكل شيء، أنت حقاً ابن عائلة.

ضحكتُ في مشاركة، وأشعلتُ لها سيجارة من علبتي، رفضتْها بحركة سريعة، وقالت في انشراح: آآآح أنا الليلة متفرغة لك تماماً يا حبيبي، سأخرج وأشتري عشاء و عصائر وأعود، سنسهر الليلة لوحدنا.. انتظرني.

ثم أطبقت باب الغرفة خلفها، تركتني أمدّ السيجارة في الهواء؛ إنها بحق امرأة مريبة.

هل حصلتْ على عمولة كبيرة من تزويج بنت الدامي وتودّ أن تحتفل ببساطة؟ أم أنّها تتجاوز بوحها المرير البارحة؟

غابتْ ما يقارب الساعة، وحين خرجتُ أجول في الشقة، اكتشفتُ خلوّها من الفتيات!

تأملتُ غرفة تأنّقهن، ألفيت المناديل المبللة مترامية في كل مكان، ورائحة طلاء الأظافر والعطور ترخي سحابة تحسّ ولا ترى في أجواء الغرفة.

بعد ساعة اندفعت مينا من باب الشقة تحمل أكياس التسوق، إنها امرأة تعاني من فرط الحركة لا ريب؛ رمت عباءتها وانخرطت كدوامة تكنس وترتّب أرجاء الشّقة المبعثرة.

دقائق فقط، مجرّد دقائق، أصبحت الشقة الكبيرة شديدة الترتيب، فتحت النوافذ وشغلت المراوح، ورشت معطّراً، فشعرتُ بالانتعاش.

وضعت السفرة في غرفتنا، كان صحن طاووس فارغاً في وسط السفرة المعدنية أزرق كعين فتاة نرويجية، أهالت عليه علب وجبات دجاج البروستد المقلي فاختلطت ألوانه باللون النحاسي للدجاج المقلي، أصبح الصحن شبيهاً بعين تنّين غاضب!

تناولتُ الوجبة بهدوء، ومينا تأكل بنهم وتتحدّث عن كلّ شيء تقريباً، لكن لغتها مسالمة، لم تسبّ أحداً، لم تذكر أمّها بسوء.

إن مينا تحاول أن تظهر لي جانباً مميزاً من شخصيتها، أعرف ذلك الجانب جيداً، وهو ما يبقيني هنا... إضافة إلى انعدام الخيارات لدي!

يدها الحريرية تمسك بقطع البطاطس المقلية بدلال، وتمضغ في هناء، تغمض عينيها حين تمضغ، وتطلق نفساً عميقاً، إنّها تتنفس الشهوة في كل آن.

هذا فقط ما يقطع كلامها، سرعان ما تتناول أمراً آخر، لكنّها تتجاهل أي شيء يثير حساسيتها.

سحبتِ السفرة التي عبثت بها أصابعنا جيداً، وأحضرت مواعين الشاي الأخضر، تموضعت في جلسة موريتانية تقليدية واندمجت تماماً في إعداد الشاي.

كان كل شيء يجري على العادة رغم التنظيم الجيد، حتى انتهت من شايها الأخضر؛ ذهبت بدلال وتأنّقت، عادت مرتدية روباً خمريّ اللون، شفافاً، ولا شيء آخر، عدا خلخال ذهبي في أسفل ساقها، وسوار ذهبي يتدلى، وقلادة لؤلؤية دقيقة، وزوج عدسات عسلية في عينيها.

كان صدرها النافر يبدو لعوباً من خلف اللون الأحمر لروبها، يبدو كمسحة لون خفية، كظل شغوب يتمدد خلف مكياج متقن؛ وكان خصرها المزمّل بحدة تحت تحزز القماش ظاهراً للعيان.

أعتقد أن ما كان أسفل ذلك ظهر بجلاء، كعتمة شهية، أو مثلث برمودا -غير الغامض!- الذي أسرني كل هذه الأشهر.

إنّها في تأنق راقصة من شارع الهرم، أو عالمة من عوالم شارع محمد علي في الأفلام المصرية القديمة، لكنّ شيئاً «بيظانياً» هناك يشعرني على الدوام أن مينا مألوفة جداً.

ما نبّهني ليس تأنّقها اللافت، ولا صبغة وقصة شعرها الشقراء على طريقة «الكدش» بل ما كانت تحمله؛ كانت تحمل صينية فضية تحتوي على كأسي شراب صغيرين، وسطلا فضياً صغيراً

مليئاً بالثلج، وقد احتشدت رطوبة الفريزر على جنباته، وقارورة شفافة صقيلة تحوي شراباً صافياً معدوم اللون!

لم يعد ثم سبب لإخفاء كل ذلك.

قرّرتْ مينا أن تكون على طبيعتها، وتفسح لي عن هوايتها الصغيرة، وهي تعلم يقيناً أنني لستُ الشخص الذي يجب حجب مثل هذه الهوايات المرحة عنه.

ابتسمتْ في دلال وهي تنزل الصينية على البساط الداكن، وقالت:

- أتعلم؟ كنتُ تلك الليلة في حالة سكر، إنّ هذا الشيء يمنح المرأة المقدرة على الصمود!

تبسّمتُ، عجبت من مقدرتها على التبرير، عجبت من قاموسها الراقي، رغم أنها في آخر المطاف فتاة غير متعلمة؛ الصمود!

ماذا يعني الصمود لبغي؟! مهلاً أيها الفيلسوف المتعالي في داخلي! إن الصمود ليس إلا كلمة تلوكها نشرة الأخبار وصفاً لأعمال يائسة، والصمود في نهاية الأمر ليس مقدساً بالإجمال، ما يمكن أن يكون مقدساً -حسب ثقافتي- هو الرباط... حسناً، إن مينا ترابط على ثغر المتعة على كل حال!

تأملتُ كلمتها ثم أجبتُ في مشاركة شاردة: طبعاً، كنت أعلم أنك تلك الليلة على ذلك الحال، هذا طبيعي، جماعتنا يبالغون كثيراً بهذا الشأن.. خصوصاً نحن.. «الزوايا».

ضحكتْ، وقالت بحسم: كلّا، هذا ليس أمراً مشيناً لدى «الزوايا» وحدهم، بل لدى البيظان كلهم، لكن على من يرون ذلك الرأي أن يتوقفوا عن النفاق... فهم لا يحرّمون أشياء أكثر شراً!

هزّتني تلك الملاحظة؛ نبهتني إلى مدى الازدواجية في حياتنا، بالفعل، هذه «السُّكُرْجية» الزانية تمتلك رؤية؛ إن هذا مما لا يتوقّعه الكثيرون.. أعني أبي وعمي ومن يرون مثلهم أنهم يمتلكون الحقيقة.

أضافت: لن تجرؤ على التصديق، شربتُ لأول مرّة مع فتاة «زاوية» والدها عالِم معروف!

- أجل، أعرف الكثيرين على هذه الشاكلة، لدي صديق يوصل أباه إلى الحرم كل مساء، ويمتلك لحية مهيبة، وينظّم الأسئلة الفقهية في درس والده اليومي؛ وهو سكّير كبير!

ضحكنا، وجذبْنا الغرابة من ناصيتها؛ كنت أسرفُ في سرد نماذج كصديقي ذلك، لأشعرها بالاعتياد.

لم أكن قد نعمتُ، أو شقيتُ، قبل بتجربة شرب الخمر، لكنّني نديم جيّد، أو «صوفي» كما يطلق المائيون على النديم السّالب الذي لا يشرب.

كان شرب الخمر أمامي أمراً عادياً، خاصة منذ قدومي إلى مكّة، ومشاركة سامي المهوّي ملجأ عم حمّاز، وقد كانت خمره من أردأ الخمور رائحة بلا ريب.

كل العجب والرّهبة فيما رأيتُ الآن، ليس لأنّه خمر وفي مكة المكرمة؛ بل لأنّها عبوة زجاجية أصلية، تعجّبت فقط من جرأة التّهريب، فقد أحضروها دون مواربة!

زجاجة روسية طوت العالم الشرقي، لتصل إلى مكة المكرمة -أقدس أقداس المسلمين- على حالتها الأصلية، هذا يعكس جاذبية المنتجات الأصلية، وحاجة بعض الناس لتقديمها كما هي.

لا شكّ أنّها تكلّف الكثير، بالنّسبة لمستهلك، لكنّ وصولها إلى هذه المرأة أثار لدي إعجاباً خفياً بعلاقاتها.

إنّ مينا واسعة العلاقات، أكثر ممّا ظننت.

لم تكن الزجاجة أيضاً لتخفى علي، عرفت المحتوى بكل ما يحيط بها، وبرهبتها، وأخيرا، يا لصفاقة العلامات الأخرى، لقد كان مكتوباً عليها بحرف عريض Smirnoff Vodka!

كلّ ما كنت أخشى أن تقدّمه مينا على خوان شرابها هو «العرق»، تلك الرائحة السيئة، والذكريات البئيسة من الحفاير وجبل عمر.

ألن تشرب معي؟ قالتها مينا بما يشبه العتاب، فأجبتُ مبغوتاً: أنا!.. كلّا، أنا لا أشرب، لكنني جالستُ الكثير من أهل الشراب، لا عليك، ستكتشفين أنّني نديم جيد.

- أووووه، هذا مخيّب، حين أسكر وتبقى يقظاً، ستتحكّم بي.

- سبق أن سكرتِ و لم أستغلّك.

- عليك أن تجرّب.

- لا أعرف.. ربّما أجرّب قليلاً، لكن ليس الآن.

حقيقة، كنت مثلها لا أجد سبباً وجيهاً لعدم سكري، فأنا في حالة نفسية سيئة، أحتاج مثلها لإقلاع اختياري عن هذا العالم، لتجربة دهشة السّكر، والضحك عالياً.

تبسّمتْ وقالت: عليك أن تعلم أنّ هذه فودكا قبل أن تجربها هههه إنّها أقوى الخمور، كنت سأجلب نبيذاً، أو شراباً بنكهة التفاح أو الفراولة، لكنني لم أجده لدى المورّد، إنّه خفيف جداً، نسبة الكحول به لا تتجاوز 11 %، كنت أيضاً سأجلب بيرة لكنّني حين رأيت الفودكا لم أستطع أن أقاوم... إنّها أنانية، وضحكت في دلال.

تنبّهت إلى نسبة الكحول التي ذكرتْها، أدرت الزجاجة الشفافة الصقيلة بحثاً عن شيء صادم،

فرأيت النسبة واضحة على الملصق 48 %!

أكملتْ: إنّ الفودكا تقضي تماماً على الإحساس بالتعاسة، عليك أن تجرّبها.

تأملتُ الزجاجة برهبة، ورأيت الملصق الأحمر البارز، والتفاصيل الروسية، ثقافتي تتّسع لهذه التجربة، وأجد رغبة وليدة في خوضها، لكن عقلي العاتب يرفضها تماماً.

صبّتْ جرعة صغيرة في الكأس الصغير، وابتلعتْها دفعة واحدة، ثم شهقتْ، وأمسكتْ أنفها بعصبية، وتوّردت وجنتاها، فاحت رائحة كريهة، شبيهة برائحة الخضروات المتعفنة.

شعرت بانزعاج، يبدو أن «عرق» سامي المهوّي أقل نتناً.

استلقت على ظهرها، وأشعلت سيجارة، ثم قالت وهي تتأمل سقف الغرفة: عبد الله.. يجب أن تجرّب جرعة صغيرة، لا تخف ههه... أوه، إنّ الفودكا قوية كما كانت دائماً.

تمدّدتُ جانبها، وأخذتُ في تأمل السقف الأبيض، كنتُ أسبح في الفراغ، و لا أعرف ما علي فعله.

صببتُ جرعة صغيرة وناولتُها، جلستْ، ثمّ تنفستْ بعمق كأنّما تلد طفلاً في تلك اللحظة، وتجرعتْها دفعة واحدة، ثم شرقتْ وأخذتْ في السعال.

تساءلتُ في سذاجة عن فائدة سطل الثلج ما دام الكأس صغيراً ولا يستخدم البتة؟

ضحكت وقالت: كان ينبغي أن يكون الشراب بارداً، لكن لا بأس، الثلج مزاج هو الآخر، كالنعناع في الشاي الأخضر، قد لا نستخدمه في البراد الأول، لكن وجوده ضروري.

ضحكت ثم قالت: من الجيد أن نكسر الفودكا بعصير آخر.. لكنني الآن بحاجة إلى شراب صرف!

ثم انتفضتْ وأكملت: أودّ أن أرقص، قامت برشاقة كأنّ كأسي الفودكا ماء زلال.

عادتْ من الغرفة الأخرى تحمل جهاز ستيريو تتدلى منه سماعتان، نصبته، وأدخلت شريط كاسيت، وانبعثت موسيقى خليجية راقصة.

راشد الماجد يصدح، والفودكا تلعلع برائحتها النفاذة، وبيظانية ترتدي روباً أحمر، ومطوّع سابق متعاون مع الهيئة يصفّق بكلتا يديه؛ كل ذلك يشكل نشازاً كبيراً لا يمكن أن يتكرّر كثيراً.

كانت ترقص بحماس، هي ليست راقصة محترفة، بل تكاد تكون سيئة الرقص، هجينة الخطوات، فقدماها «متبيظنتان» بشكل واضح، رغم جسدها الجميل، والذي كاد أن يكون مثالياً في هذه اللحظة بالذات.

لا علم لي بالنساء من تلك الناحية قبل مينا، رغم أنني توقعت أن الموريتانيات سيتحولن إلى فيلة حال تجردهن من ملابسهن، إلا أنها فاجأتني من قبل، وها هي الليلة تؤكّد لي أن فيها أشياء من كل ثقافة!

تجرّعتْ كأساً ثالثة، وطلبتْ مني البدء في الشُّرب: إذا أحسستَ بالسكر الشديد اشرب عصير برتقال وسترتاح... لا عليك.

لم أشعر أنّ شيئاً حرّك توازنها العظيم، ما زالت تقدم النصائح بتركيز، و ما زال رقصها الناشز متناسقاً مع خطواتها المتداخلة، ومازال وعيها شديد الوضوح!

بعد أن تجرعتْ الكأس الرابعة وسعلتْ أكثر، أصبحتْ الغرفة كتيمة الرائحة شبيهة بمصنع عطور كيميائي... عفنة تماماً!

ثمّ... انهارت على ركبتيها، جثتْ وأخذتْ تتوسّل إلي دون سبب: أرجوك يا عبد الله لا تشهّر بي.. أرجوك، لم يسبق أن سكرتُ مع بيظاني!

نظرتُ في عينيها العسليتين، فرأيتُ العدستين الصناعيتين الجامدتين أكثر إدراكاً من وجهها، أدركتُ أنّها تجرأتْ على الفودكا أكثر مما ينبغي.

قالت: أنت لن تشهّر بي.. أليس كذلك؟

- كلا، لا تخشي شيئاً.

- هههههه عليك اللعنة، أنا لا أبالي أصلاً، أنت أيضاً سكّير زانٍ، أتعتقد أنّني أصدق أنّك لا تسكر... هيا.. هيا، اشرب، لا تخشَ شيئاً.

- أنا أشرب بالفعل، لكن ليست الفودكا.

- لا تشرب فودكا! تشرب ماذا؟ حليب المراعي؟ حليب السعودية؟ هههههه

ضحكتُ بملل، فأكملتْ: ستذهب معي إلى نواكشوط؟ هناك سنبدأ من جديد، لن نشرب مجدداً، وسأكون امرأة محترمة، أنا ابنة عائلة كبيرة يا عبد الله، جدي الثاني بطل مقاومة مات في معركة ضد الفرنسيين، وجدي الحالي يستجديه الرئيس في الانتخابات، نحن معروفون، لكنّ أمي ساقطة، عاهرة، مجرمة، يمكنك أن تقول أي شيء بحقها فلست أبالي.

قلت: أنا لا شأن لي بما فعلته أمّك، أعلم أنّ هذه مهنة، وقد رأيتك اليوم تقدّمين عملاً مدهشاً هههه

نظرتْ إلي والدموع تحتشد بعينيها، ثم انفجرت ضاحكة بجنون وقالت: بدوي غبي، اليوم قدّمتُ عرضاً مدهشاً لأن البدوي الغبي جاء صحبة صديقه هههههه كنت أعلم أنّ المنافسة ستحتدم

على تلك الفتاة لمْنيَّه.. لقد دفع مئة ألف ريال عداً ونقداً هههه أتعلم... سأزوّجها قريباً لتاجر حضرمي.

- الفتاة نفسها التي تزوّجت الليلة؟

- هههه أجل، الفتاة نفسها، لن يبيت معها الليلة هانئاً، لقد حقنتها بـ«تَقْيَ»[15].

- تَقْيَ!

- نعم، حينما يدخل عضوه الذكري سيخرجه أسود يعلوه الصدأ، سيضطرب ذلك المطوّع، ويخشى الفضيحة، ويردّها في صمت هههه أيضاً سيجري فحصاً شاملاً نهار الغد فسيكون في حالة سيئة.

- أووه كم أنتن بارعات!

- نعم.. نعم هنالك حيل كثيرة نقدم عليها إذا رغبنا في

- الفكاك من زوج مؤقّت.

- هل يوجد زوج غير مؤقت؟!

- نعم، طالما لديه المال الكثير سيكون غير مؤقّت، أما إذا كان لا يمتلك الكثير فبعد أخذ المهر يجب التخلّص منه، سواء بتَقْيَ أو الحقن بسائل لوكس ذي الرغوة الغنية هههه هل تستطيع مجامعة امرأة تفرز الرغوة الصفراء والسوائل اللزجة؟

- أنا.. كلا، لكن الرغوة والسوائل قد تكون محفّزة لدى بعض الأزواج، عليكم باستخدام تَقْيَ فهي مرعبة حقاً.

أخذت مينا تسرد الحيل التي لا تنتهي في التخلّص من الأزواج، وتضحك، وتتلوى كممغوص؛ كان في حديثها الكثير من الغرابة والصراحة.

سألتها بعفوية: وهل تنال الفتيات كل هذا المال؟

سعلتْ، ونظرتْ بتركيز، حتى خلتها صحتْ من سكرتها، وقالت: اللعنة على القوادات... لا تحصل الفتاة على شيء حتى تكون قادرة على تزويج نفسها... يحصلن على الغذاء والسكن فقط، لو علمتَ بما فعلته أمي بي لن تستغرب ممّا تفعله ببنات الآخرين، لم يسبق أن نلت منها ريالاً واحداً، كانت تزوجني كل نهاية أسبوع... وكل مرة تزوّجني بصفتي بكراً، وانفجرت ضاحكة!

هذه المرة شاركتها الضحك بسخرية، لأنني أعلم استحالة أن يقتنع أي مغفل بأن مينا بكر.

قلت: بِكراً! نظرت إليّ تزمّ السخرية في شفتيها وقالت بطابع أنثوي تقليدي مفعم بالشك: هل أنا فجّة إلى هذا الحد؟ ثم ضحكنا في جنون.

قالت: يا عبد الله أنت لا تعرف شيئاً عن حيل أمي، أمي لا تزوّج إلا بِكراً هههه عندما تملأ العروس بالأعشاب النيجرية تذوب في مهبلها، وتصبح كالأنسجة ملتصقة بجدار المهبل، وبعد يومين تصبح سدادة لا يقوى الحديد على الولوج منها.

ثم قطّبتْ وقالت: كنت أتألّم كثيراً كل مرة، مقابل أن تنال أمي مهر البكر.

شعرت بالغرابة والتعاسة في مزيج غريب، وانتشلني الفضول فألفيت نفسي أسألها: هل الانغلاق هو علامة البكر الوحيدة؟

كنت أسأل وأنا على يقين أن البكر تعرف من خجلها، نظرتها الخرقاء للأشياء، وتعرف كذلك بشكل أوضح من خلال جسمها الخشبي الخالي ممّا يهبه حَقْن التستوستيرون لأجسام الإناث الممارسات من رونق وبهاء.

قالت بتذاكٍ: إن تلك الأعشاب يجلبها الأعجام من النيجر، وهي عندما تذوب تترك سائلاً مائلاً إلى الحمرة، يزيد عند الممارسة، فما بالك بعريس خائف لا يستطيع الإيلاج، ويتلطخ فراشه باللون الأحمر؟!

أوه إن الصحارى المتصلة هباء من ضفاف البحر الأحمر إلى الأطلسي تنقل السوافي بينها الخبرة في الخداع بحرية، البيظانيات المولعات بهذه الحيل يستخدمن تلك المعارف الصحراوية، تلك المعارف التي تبهر أبناء صحراء أخرى أقل حيلة، وأكثر اندفاعاً.

إنه مظهر جميل للتعاون الصحراوي، وتجلّ عظيم لروح الوحدة الإفريقية!

حسناً، ربما تكون محقة، نظراً لظروف العرسان المغفلين، وما هم قادمون منه من صحراء واسعة؛ أخذت مينا في التوسع في هذه الحيل، وصبّت جام غضبها على أمها، أدركتُ أن علي أن أشرب كأساً كي أغيب عن هذا الغباء، من حقّي أن أغيب لساعة عن تعاسة العالم.

صببتُ جرعة وشممتُ الكأس، تلوّى بطني، أغمضت عيني وتجرعتها دفعة واحدة كما يفعل عتاة المدمنين؛ يا للهول، إنّهم يشربون الكيروسين! صرخت هكذا وتساءلت: أين المزاج؟

أين المزاج من جهة الطعم؟ من جهة الرائحة، هل على الخمر أن توصل فقط إلى الهلوسة؛ كنت أظنّ أنك أيتها الراح أكثر فخامة.

أين أنت يا بنت الحان، يا كريمة الدنّ، أين الصهباء التي لا تنزل الأحزان ساحتها، أين أنت يا أبا نواس لترى ما آل إليه الشراب من حال مزر؟

فعلاً هي الآن كما وصف الأخطل شرب بني كليب بن يربوع:

**بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم**

لا يمكن أن تكون هذه الفودكا مزاجاً لأحد، مهما بلغ من الإدمان، حتى ولو كان سكيراً (عُتَقِياً) كسامي المهوّي.

لقد شربتُ واحدة، أصبحت شارب خمر، علي الآن أن أتّبع تعليمات المعلّم الكبير أبي نواس، وأتْبع الكأس بثانية وثالثة حتى أبلغ عبالة الخمر، رغم سوء المزاج، أدركت أن مهمة الفودكا الوحيدة هي قتل الإحساس.

أغمضت عيني وأنا أصبّ الكأس، شعرت بالسائل يطفح من جنباتها، فازدردته في دفعتين، كدت أختنق، كنت أشعر بالقرف أكثر مما أشعر بالمزاج الجيّد.

هل علي أن أعذّب نفسي هكذا؟ أجل، علي أن أسكر فقط.

ضحكت مينا بهستيرية وهي تراقبني متمددة أمامي، عندما شربتُ الكأس الثالثة قرّرتُ التوقّف، لم يعد لدي الدافع للسكر حتى؛ اجتاحتني رغبة عظيمة في غسل فمي وحلقي، فقد كانا يحترقان، نهضت تزفّني ضحكات مينا السيئة التي أصبحت الآن بنت شارع بامتياز.

غسلتُ وجهي كاملاً، تأملته في المرآة، كان شاحباً كفاكهة مجففة، عدتُ أدراجي مشوشاً، رأيتُ وجه مينا بشكل سيئ، لقد ظهر خطّ أسود تحت جفنيها، هل كانت تخفيه بالكونتور؟ أصبحت كسيحة، فهي متمددة تتلوى وتضحك فقط.

زاد راشد الماجد من جنونه: يا ناسينا يا ناسينا!

ولعلعت أصوات فرقته من خلفه، وتعالى إيقاع الطيران وأنغام الطنابير البحرينية في أغنيته، قرّرتُ أن أحاول الرقص أيضاً، مينا الآن لن تدرك بدائية رقصي، وهي أصلاً سيئة الرقص، كم هو مضحك أن يرقص مطوّع سابق دون تأهيل! تأملتُ نفسي فضحكت... اشتد الضحك حتى صار قهقهة، أخذت أتأمل بطني المنتفخ قليلاً أسفل السرة كبطن عظاءة، ضحكت بكل جوارحي، كما لم أضحك يوماً، شعرت بالغرابة وعدم وجاهة أسباب هذه الموجة العارمة من الكوميديا، كانت مينا بعيدة عني تماماً، تجوب تخوم سعادتها المؤقتة، تثني خصلة في يدها، ثم تنفخها في أعالي الهباء، ويهتز جسدها السطيح ضحكاً، تمايلتُ أكثر، حتى شعرت بالأرجحة، أصبحت الغرفة متحركة، والجدران ضاحكة، توقفت الجمادات عن الحياد، صارت تشاركني بهجة الحياة، تطلعت إلى فتحات التكييف لأرى رسوم الضوء الغبية، فبدت ضاحكة وملونة تلك الأجسام المشوهة، تدحرجتُ ككرة إلى قارورة الفودكا لأصب كأساً آخر، وجدتها فارغة، ومينا تضحك وهي تقول: لقد شربتها يا مطوّع! ضحكنا وحاولنا الوقوف للرقص... فسقطنا، بدأ الوهن يتسلل إلى مفاصلي، أدركتُ بما تبقى من وعي أن الفودكا اللعينة تحتاج فقط لرجّها قليلاً داخلك، كي تنفجر كعلبة صودا!

واصلت الضحك، قهقهتُ، ولعنتُ أبي وعمي، لعنت الشيعة والسنة والخوارج والإسماعيلية وبني سويف، ثم قلت لمينا: من بنو سويف؟ لعنتُ كل من عبث بروحي يوماً، لعنت كل من خيّب

آمالي: وأخذت أعدد أولئك الذين أحبطوني في الحياة: المطاوعة.. الحكومة أيضاً يا مينا، قالت مينا: أجل الحكومة، قلت اللعنة أيضاً على النادي الأهلي، وصرختُ: سكرتُ.. سكرتُ هاااا سكرتُ الآن.

لن أتحدّث عمّا تذكرّته لاحقاً، من أشياء تافهة، وسيئة، أشياء مثل الجروح اللعينة جراء الزّحف على الكؤوس المهشمة، أو التقيؤ المر، أو حتى تغوط مينا في الصالة!

لن أتحدّث عن تمتعنا بكل ذلك، وشعوري بالحرية المطلقة، لكنّني متأكّد من شيء لا أذكر تفاصيله جيداً.

أنا على ثقة أنني فتحتُ حواراً مع تلك الفتاة عن الله، عن الوجود، عن الوطن، قلت لها: إن الله يحبّنا.

متأكد أنني زحفت إلى الحمام أسحبها سحباً، كنت أظن أن الماء يطفئ ثورة الفودكا، كان تصرفاً غبياً بحق.

متأكد أيضاً أنني قلتُ لها ونحن تحت (المروشة) والماء يتدفق كالشلال فوق رأسينا: إنّ الله موجود، لا شكّ في ذلك، إنّ الله عظيم لأنّه يحترم إرادتنا في الكفر، إرادتنا في البحث عنه، يهتمّ بنا نحن الباحثين عنه خصوصاً، أما أولئك الذين لا يعرفونه حقاً، ويعبدونه فقط، فهو لن يعذّبهم أبداً، لأنّه عظيم، لكنّه لا يحترمهم كثيراً.

قلت لها أيضاً في مكان ما: إنّ الدين هو الله، والعقيدة هي الله، والحقيقة هي الله؛ ثمّ سألتها هل تؤمنين بالله؟ أجابت: نعم، لدي إيمان عميق، قلتُ: هل تؤمنين به مثلنا أم مثل أولئك؟ فأجابت: من أنتم؟ ضحكنا بعمق، ثم قلت: أنا لستُ من أولئك أو هؤلاء، أما أنت يا مينا عاهرة وزانية محترمة، أنت من أهل الجنّة يا مينا.

كان أكثر ما يهمّها هو معرفة رأيي بها، وحين تفوّهتُ بتلك الكلمات ضحكتْ وتلوّت من شدّة الضحك، كنت أبحث عن وجهها كي أشاركها الضحك، ضحكتْ بجنون، فسألتها وهي تدير ظهرها إليّ: لمَ تضحكين؟ فأجابت لأنك تعرفُ أنني عاهرة هههههه.

تذكّرتُ لاحقاً نُتَفاً من تلك الليلة الرهيبة، لكنّ آخر ما أذكره، أنّني كنت أصرخ ونحن نزحف كالسلاحف عائديْن من الحمام: المجد لروسيا!

## (10)
## عناق أخير!

الباب ما قرعته غير الريح..

كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون

من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار

كيف انطلقت بلا وداع فالصغار يولولون

بدر شاكر السياب

أسوأ ما في الشرب يظهر جلياً في الفودكا!

سحقاً لتلك التجربة، استيقظت صباحاً، لا أستطيع الوقوف بشكل سوي، فقد كانت ساقاي مخدرتين، وبرغبة عارمة في الوقوف وبذهن مشوّش تمدّدت بجانب مينا أطالع السقف.

لساعات أحاول النهوض، و أسبح في الهباء، أخيراً تمكنت من ذلك، وأيقظتها، فتحرّكت بخفة أكثر مني.

استحمتْ، وهي تترنّح، وأخذت في الهمهمة، قالت وهي تقطر كإسفنجة: أتعلم يا عبد الله، ما زلنا ثملين، إنّ فتح باب شقتنا هو أكبر فضيحة، إذا سمعتَ طرقاً فلا تفتح الباب مطلقاً.

بعد الاستحمام، زاد الصداع، والتشويش، لكنني بدأت أشم الرائحة؛ يبدو أننا فعلناها في كل مكان، يبدو أننا في شقة قذرة حقاً.

كنت ألاحظ أنّ مينا تتحرّك بشكل أسرع مني، لاحظت أنّها تتخلّص من الكحول بسرعة، وعندما صارحتها بهذه الحقيقة، قالت: اشرب ماء كثيراً، كل برتقالاً، و تغوّط كثيراً!

من الجيّد أن يسكر المبتدئ مع أصحاب الخبرة!

حقيقة، عانيت طوال ذلك اليوم من خفقان القلب بشدّة، وارتفاع الضغط، والتّشويش، لم أشعر بالانتعاش حتى حلول الليل، وعندما استيقظت في اليوم الثاني كنت أشعر بالصحو والإدراك التام لأول

مرة منذ موقعة الفودكا اللعينة.

حسناً، يبدو أنّنا أفرطنا في الشراب، يبدو أن شرب الفودكا لا يكون على تلك الشاكلة؛ لكن ما ذا بإمكان تعيسين أن يفعلا حين تتاح فرصة كتلك.

لقد غبنا بعمق عن الواقع، غبنا بكل ما منحتنا تلك الزجاجة، وحتى آخر قطرة.

لم نفتح الباب إطلاقاً، وكلّ من طرق تلك الشقة ذلك اليوم وتلك الليلة التي تلته ضيّع وقته.

لكننا اتفقنا اتفاقاً صريحاً؛ يجب أن نخرج من هذه الدولة، وبأسرع طريقة، كان اتفاقاً على نقاط واضحة، وبعد أن شعرنا بوحدة المصير والمشاركة في أثناء تجربة الفودكا، قالت مينا أخيرا:

- عبد الله هل أنت جاد في السّفر إلى موريتانيا؟

- أجل، لم أكن جاداً كما أنا هذه اللحظة، لكنّ ما يؤخّرني بسيط.

- ما هو؟ قد تجد لدي حلاً.

- المال، وجواز سفر.

- هههههه أنت جاهز للسفر، بالنسبة للمال لن تستطيع تحصيل أكثر من سعر تذكرة لو أمضيت هنا عمرك، وهذا ما بإمكانك أخذه مني، كسلفة إن رغبت، أعلم أن نفسك العزيزة تمانع هههههه.

- والجواز؟

- هنالك رجل في القنصلية متخصّص بإصدار وثائق السفر المؤقتة، يمكنه أن ينهي إجراءات سفرك بسرعة.

بدا أنّ كل شيء واضح، علي أن أقبل هذه المنحة، سأسافر بصحبة هذه المرأة، وعلي أن أتزوّجها، وأعود إلى الجذور، هذا كلّ شيء.

لكنّ ما أثار عجبي هو ما قالته مينا: عليك أن تتزوّجني عند أهلي، ستطلب ذلك من جدي، إنّها مجرد تقاليد، صدّقني سنرتّب كل شيء، بعد ذلك سننطلق معاً، ونجوب موريتانيا ونؤسس عائلة محترمة!

آخر ما أتمنّاه هو تأسيس عائلة، فرجل متأزّم روحياً وعقلياً لن يستطيع الإخلاص لتلك العهود، لكنّ مينا تريد أن تكون طبيعية، تريد أن تكون امرأة عادية؛ وتحقيق هذه الأمنية أمر سامٍ اقتنعتُ به.

أنا رجل لم يقدم شيئاً لأحد حتى هذه اللحظة، بل أنا رجل يطالب الكثيرين ببذل المزيد، لست

أكافئ مينا على ضيافتها، وشهامتها، وتحديها لأمها، بل أختلق سبباً آخر لاحترام نفسي.

وأنا أعلم يقيناً أنني لم أقطع صلتي بسلمى لأتزوج من مينا، لم يكن ذلك السّبب دون ريب، والزواج من مينا لم يكن يوماً حلماً لدي، كلّ ما كنت أرجوه منها هو ما ظفرت به، وفي نهاية الأمر سأكون بالغ السوء حين أخذلها الآن.

أصبح المصير واضحاً، خفق قلبي بحماس لأول مرّة منذ سنوات، سأخرج من هذه البلاد التي ولدت على أديمها، وتقبّلتني روحها، ولفظتني تقاليدها وأنظمتها خارجاً؛ سأقطع صلتي بهذا الوطن اللئيم، وأبحث في تلك السباسب الجرداء عن حلم، من يدري؟ قد أكون هناك أكثر حظاً في العثور على الراحة.

هناك، على الأقل، لا أحد يعرفني، لا أحد يشكّ بأنني جاسوس أو متعاون مع الهيئة، لا أحد من السلفيين يحتقرني، أو من الصوفيين يتوجّس مني، لا عم يتجهّمني أو أباً يطردني.

إنّني هناك رجل دون ذاكرة، رجل خام، وحين أستكشف ذلك الوطن الافتراضي، أجوبه، سأتشكّل حسب ذوقي، أقدّم الطّبعة النّهائية من عبد الله ولد محمد.

أمارس حياتي وفق تصوّري، وكما أشتهي، هناك سيكون في إمكاني أن أغلق كتاب الردة إلى الأبد.

في اليوم الثالث من عزلتنا، غادرت وكْر الزاهر، انطلقتُ لأنهي بعض الأمور المعلّقة، وقد تأكّدت أن مينا ستنهي كلّ الترتيبات بحذاقة.

اتفقنا أن أعود في اليوم التالي لنذهب إلى جدة، هناك سننهي بقية الإجراءات بسرعة كما أكّدت، ونقلع في أول رحلة، قبل عودة أمّها!

كان عليّ أن أزور عم حمّاز لآخر مرة، وأزور الحرم لآخر مرة أيضاً!

أحمل كلا الرغبتين، ولم أكن أعرف ما سأقول في الزيارتين.

خرجتُ إلى الشارع أكثر انشراحاً، كنت أعجب من حالتي تلك، فأنا قليل الحسرة على مقارفة أم الخطايا: شرب الخمر! يفترض بي وأنا المطوع السابق أن أغرق في حالة تأنيب قاسية، لم يحدث ذلك! أجد لذلك سببين كافيين: الأول أنني أعلم يقيناً أنني لن أكرّر تلك التجربة التافهة، فتجربة السكر أصبحت لدي خالية من أي جاذبية، عكس ما كانت توقعه في النفس تلك الزواجر الشرعية، ذلك النهي الذي يوقد الرغبة ويسعّر أخاديد الحرمان، أصبحت موقناً بتفاهة تجربة السكر في نهاية الأمر.

والسبب الثاني متّصل بقرار الرحيل عن هذا الوطن الذي استنفدت كل حيلي في ثنيه عن الرحيل من داخلي.

لم أعد أشعر بالضّجر من مكة، فهي ساعات فقط وسأغرب عنها بقية عمري.

أشعر الآن أنّني مواطن في دولة ثانية، وأعانق إحساس الحجّاج لأول مرة؛ هكذا فعلاً يمكن احتمال هذه الجغرافيا، أن تكون رحلة واحدة.

إن جدّتي هي من خطّت هذا القدر، دون أن تعلم، لكنّني الآن أصحّح ما قامت به تلك العجوز المجنونة.

عم حمّاز، كيف لي أن أغادر كلَئيم دون لقياه؟ كيف وقد تركته في حال مزر؟

هنالك من الفعل الجميل لعم حمّاز ما لا يمكن أن ينسى، هو من آواني في تيهي، ولم يتساءل قط عن غرابة حياتي، لم يشعرني يوماً أنني فتى (غرائبي).

كان أوسع بالاً من أبي وعمي، وكان أكثر فهماً من كل تلك الكتب التي قرأت.

حتى عندما كان شاباً، «مراجيحياً» كان أكثر شهامة من كلّ أهل الحجاز، وكان أكثر طهراً والتزاماً؛ لم أنسَ تلك البداية التي غلفتها السنين بطابع الرهبة، لم أنسَ أنّه من أنقذني!

تراءت بذهني وأنا أشق شارع منصور في سيارة أجرة تلك الصور من طفولتي، إنّ «ملاهي المناخة» هي ديزني لاند المدينة المنورة في تلك الأيام، حيث التّرفيه على أشدّه خلال أيام العيد.

ثَمّ ما يخلب ألباب الأطفال، مراجيح خشبية عملاقة، بغال «السيسي» النتنة، وخيول كبيرة، وفرفيرة، وبليلة، وتوماتيك بالكركديه أو الفيمتو، وعصائر جي، وبطاطس ومقليات وفشار؛ ثمّ كل شيء!

وأنا ذلك الطّفل الغرّ، أنجذب لإغراء أحد العمّال، يعدني بمشاهدة أبناء «السيسي» الذين هم في حجم حذائه كما يزعم؛ إنّ ذلك الشاذ الغبي نسي أن طفلاً في العاشرة قد يكون على علم بأن البغل عقيم لا يلد من كتاب العلوم للسنة الرابعة! فهو حيوان يحمل عدداً فردياً من الكروموسومات.

لكنّ الغرابة والفضول كانا أكبر لدى ذلك الطفل، يمسح شاربه، ويقول:

- تعالَ ورايَ... ورا العُشّة أورِّيك ولد البغل!

وهناك خلف العشش والخيام المؤقتة في ساحة المناخة، يلقي عليه القبض، يشرع في خلع ثيابه وخنقه، يشعر الطفل بأن العالم يصغر، يدرك حقيقة القهر المؤلمة، يغرغر بكلام مخنوق، يُفلته الوحش من يده فجأة، ويخرّ صريعاً عند قدمي الطفل؛ من خلفه يبرز وجه عم حمّاز عابساً، يمسك بيد الصغير، يلقي العصا الغليظة التي ضرب بها رأس الوحش، وفي منتصف السّاحة يقول:

- اسمع يا عبد الله، لا تعلِّم أبوك... خلاص ما راح يكلّمك أحد بعد كدا!

أهزّ رأسي، وأهربُ نحو بيت أهلي في نهاية الساحة.

كلّما جاء عم حمّاز إلى المدينة لاحقاً، أشعر أنني آويتُ إلى ركن شديد، كنت أشكي إليه كل من لا يعجبني، حتى أصدقائي الصغار، وكان يبسم على الدوام ويمنحني ريالاً، قطعة شريك، أو حتى صورة جرندايزر!

في هذه الهاجرة أضمن وجود عم حمّاز في عشته، لكنّني لا أضمن عدم الإصابة بضربة شمس.

أسفل الجبل توقّفت سيارة الأجرة، دخلتُ كبينة المكالمات، اتصلت:

- ألو... هلا.

- عبد الله، كيف حالك، هل أنت بخير؟

- نعم، أنا بحال أفضل الآن، اسمعي سأخبرك بشيء، لا تخبري أبي مطلقاً، سأذهب إلى موريتانيا قريباً!

- موريتانيا! كيف؟

- نعم، سأذهب، سأجرّب الحياة هناك، لا تخبري أبي فقط.

- عبد الله أرجو أن تكون بخير، هذه فكرة مجنونة، نحن لا نعرف هناك أحداً، سأبحث عمّن يساعدك، قبل مدّة جاءنا ضيف في الحج قال أبي إنّه قريب لنا، سأبحث عن رقمه وأكلّمه، قد يكون في انتظارك.

- حسنا، افعلي ما ترينه مناسباً، لم أحدّد بعد موعد الرحلة لكن يجب أن يكون خلال هذا الأسبوع.

- عبد الله، انتبه موريتانيا بلد صعب، أرجوك راجع نفسك، أو انتظر حتى أتحدث مع الضيف الذي جاءنا ليعتني بك، أخاف عليك من الضياع في إفريقيا.

بعد فراغ أختي من ذلك الكلام شرعتْ في البكاء، لكأنّما صدّقت للتو أنني سأغادر وأضيع في مجاهل الصحراء، أنهتْ المكالمة بشهقات هزّت مشاعري الراكدة منذ فترة.

كانت مكالمة مؤلمة!

عليّ الآن أن أقابل عم حمّاز، لآخر مرّة، ولا أعلم على أي حال سيكون هو الآن، إنّني أودّع كل ما أحببته في المملكة من خلال عم حمّاز و بيت الله الحرام.

أودّع في عم حمّاز تلك الروح الحجازية الخلابة: مرحا، لغة رائقة، وبساطة في العشرة؛ كما أودّع فيه شخصيا ما لم أجده في عالمي إلا قليلاً: التسامح، الإنسانية، وعدم التدخّل في حياة الآخرين؛

إنها روح عم حماز الخاصة، تلك الروح التي كوّنت من موروث طفولته المعذّبة في أودية الخصب بالنيجر، وتيهه الكبير مذ ذاك، ومكة وما تعنيه له؛ لهذا يتوجّب علي أن أودّع فيه أزمنتي تلك، وما قدّمه إلي من معروف، وأخيراً أودّع فيه تلك الروح.

وأودّع في بيت الله الحرام ذلك الحياد الرهيب، إنّه المكان الذي يحترمه الجميع، لا يختبر القادمين إليه، ولا يستنطق قلوبهم، كم طاف به من مشرك، عارٍ، وكافر يصفّق ويصفّر؛ كم طاف به من مسلم عادٍ، ومقتصد، وسابق بالخيرات؛ كم طاف به من ملكٍ وغاز، وكرّ عليه من عدوّ؛ كم طاف به مِمّن يكفر به، وكم آوى إليه من تائه.

إنه بالفعل مثابة للناس وأمن؛ ولهذا يتوجّب علي الآن، وأنا على الحياد بين كلّ هذا الضجيج، وأنا على الحياد بعد الفراغ من لوثة التراث، بعد أن أصبحت مقطوع الصلة بكل بشر؛ يتوجّب علي أن أودّعه لأنّه ألهمني روح الحياد.

لهذا أصعّد جسمي المثخن ببقايا معركة الفودكا، أصل لهامة الجبل، العشة كما هي، نبات الريحان ما زال واقفاً تحت شجرة السنط، والقطط الجشعة بالانتظار عند باب عم حمّاز.

لكنّ البيت ممتلئ بالوجوه الغريبة، رجال في سمت ديني، لحى بيضاء، وغتر دون عقال؛ لا أعرف أحداً هنا.

- السلام عليكم!

- وعليكم السلام - بصوت واحد-.

يطالعني الرجال بغرابة، ونظرات عجيبة، أتنبه لسمتي، أنا فعلاً مثير للغرابة بهذا المظهر.

هنالك جوّ من الكآبة في المنزل، يدقّ قلبي قلقاً، هل مات عم حمّاز وهذا تأبينه؟ لا ريب أنّ حاله في الليلة الأخيرة كان يوحي بالقلق؛ هل مات شهيداً للحب والتعاسة؟ هل أنا بهذا السوء لأتحدّث عنه بهذا البرود؟ أنّبتني تلك الفكرة.

لمحتُ أحد الرّجال المطوعين ينهض من آخر الغرفة باسماً نحوي، يا للهول، إنّه سامي المهوّي! في سمت ديني عجيب، ينهض في وقار وصحو نادر، يقول:

- أهلاً عبد الله، أتفضل.

- أهلاً سامي، كيف الحال؟ أين عم حمّاز؟

- سيأتي، لقد ذهب لإحضار أشياء من البقالة.

الرّجال الجالسون يرطنون بلسان أعرفه جيداً، أقصد أستبينه، وإن كنت لا أفهمه، إنّهم يتحدثون لغة الطوارق!

يدخل عم حمّاز بوقار في سمت مشابه للرجال، يلقي علي التحية بود، يبتسم بأبوّة، ويتجه إلى المطبخ.

يا إلهي أنا وسط هؤلاء الرجال ذوي الثياب البيضاء، والأناقة الدينية، أشعر أنّني في دعاية تلفزيونية لمسحوق منظّف «تايد».

عم حمّاز يجلب شراب اللبن المخفوق، يقدّمه للرجال، يتجمهرون، وتبدأ العظة.

يتحدّث أحدهم بلغة مضحكة، إنّه أمازيغي مستعرب، وتنسُلُ من تحت قسمات وجهي الغرابة، إنّها عظة مألوفة، بيان تبليغي عتيد!

يظهر الانسجام والخشوع على كل الجالسين، عم حمّاز شديد الاهتمام فيما يبدو، وسامي خاشع كأنّ على رأسه دائرة.

أتأمّل وجهه، منيراً كالبدر كما كان المطاوعة القدامى يصفونني، لقد تسلّلتْ وحشة الكحول من وجهه، لقد لفظ التّيه ووجد الخلاص، يا الله ما أروع عم حمّاز، أينما وجد سلوة لابدّ له من رفيق، يسعد معه، أو يؤنسه، ولكل درب وحشة، حتى ولو كان يؤدي إلى الله.

كيف تخلّصتَ يا سامي من تراكم الكحول في كبدك؟ كيف تخلّصتَ من تاريخك الثقيل مع العرق الشّفاف؟ كيف خدعتني أيها السّكير ووجدت طريقك المختصر إلى الله، دون ألم، دون قلق، ودون تيه وحيرة، هكذا دفعة واحدة انتقلت من جموحك و شرابك إلى بلاط الله، كيف فعلتَ ذلك؟ لا يهم، لقد فعلتَه بسرعة، بقناعتك أو بوساطة شخصية!

أمّا عم حمّاز، فأمره لا يمكن الوصول إليه بهذه السهولة، لأنّه يمتلك غرفاً سرية أكثر من تلك التي شرّع بابها بعد انهياره، لأنّه رجل مغلّف بالتيه، منه جاء، وفيه عاش، لا يمكن أن يصل إلى الله دون ألم طويل!

ما كان لعم حمّاز أن ينتقل بين مناخات الحياة كالعامّة، أعتقد أن أشياء كثيرة دعته إلى هذا، أعتقد أن هذا العمق الروحي، المغلّف باللغة الأمازيغية، والرفاق الكهول، كلّ ذلك قد يشكّل عزوة مؤقتة، لكنّ طريقه إلى التيه أطول من هذا.

إنّه يشبهني تماماً، شبهَ الغرابِ الغرابَ، والماءِ الماءَ، كما قال ذلك الأعرابي، ربّما وجد جزءاً من هويته الضائعة بين صحراء تينيري في النيجر والحجاز، وربّما وجد طريقاً مؤقتاً للخلاص المؤقّت من أزمته العاطفية.

لن تستطيع ألحانه الحجازية الذوبان في بيان جماعة التبليغ، لن تستطيع روحه المكّية البقاء تحت قشرة التديّن السطحي؛ لن يجد طريقاً مختصراً يدفن فيه أطياف الآمغار مغّاز، وسيل الحرم، وحمزة المراجيحي، ورحلة المناخة السنوية؛ لن يستطيع هناك دفن تلك الفتاة البيضاء!

كنتُ غائباً عن البيان، أطالع دهشة سامي، وغرابة عم حمّاز، ووجوه الكهول الأمازيغيين، لم تكن وجوههم تشبه وجهيْ صديقيَّ الحميمين، فهؤلاء الرجال يحملون سكون الصحراء، إنّهم رجال نموا بشكل طبيعي، شبّوا، تزوّجوا، تمتعوا بالبعولة، وبالانتماء لقبيلة ما، وهم الآن يقدّمون الشكر للرب، على طريقتهم التبليغية.

أما صديقاي فقد نشآ بقرب بيته، شاهدا ملايين الحجاج يأتون من كلّ فج عميق، لم يشعرا يوماً بالبعد عنه، ولم يسألا عن طريقه، لكنهما يقدّمان الفرصة بسماحة للقادمين من الآفاق لردّ الجميل إلى أهل مكة!

ينتهي البيان، ينتحي بي عم حمّاز جانباً، أشم رائحة دهن العُود البيتي في لحيته، يبتسم ويقول بأبوة غامرة: اسمع يا عبد الله، أعلم أنك متعلّم، وأنّ والدك شيخ كبير، لكن هذا الأمر الذي بين أيدينا يهدي الله إليه من يشاء، لقد سرّني كثيراً أنك جئت الآن، كنت أتمنى حضورك، ألا ترى سامي قد هداه الله، وأصبح منير الوجه، مرتاح النفس، أدعوك إلى صحبتنا هذه الليلة في زيارات للعزب والبيوت والدعوة إلى الله.

قلت محرجاً: جزاك الله خيراً، جئت فقط لأودعك، أطمئن عليك.

- تودّعني؟

- أجل، سأسافر خلال هذا الأسبوع إلى موريتانيا.

- حسناً، الله معاك، هل ينقصك شيء؟

- كلا، شكراً.

عناق أبوي كحديثه، ربتة على كتفي، وأمنيات بالتوفيق والصلاح!

إنّ عم حمّاز يعرف الله حقاً، ولا يتدخّل بشأن أحد.

ودّعت سامي أيضاً، ونزل معي نصف الجبل، تكاد عيناه تقطر دمعاً، أما عم حمّاز فقد توارى في بيته أو عشّته.

أعتلِي الحفاير، وأنحدر نزولاً كحاج، إلى بيت الله الحرام، هنا تحديداً لا أعلم ما علي فعله؟

أطوف سبعاً لأول مرة منذ قدومي إلى مكة، وأتفحّص الكعبة كأن هذا أوّل عهدي بها، تطوف بذهني مشاعر مختلطة، من الرهبة والتجديف، من الإيمان و الشكوك.

أجلس في صحن الكعبة، وأفتح آخر فصل من كتاب الردّة القديم.

أقرأ عميقاً كل ما خطت نفسي في ذلك الكتاب، ثم أبدأ التنجيم في صمت، وأنا أتابع القراءة،

لكأنني أستشير «كتاب التغيرات» الصيني في ما علي فعله!

هل عليّ أن أعود الآن إلى المدينة، وأقطع رحلتي التي تثير فضولي إلى أرض الأجداد؟ هل كان علي أن أسأل، أشكّ ذات مساء، لأنتفض من كل ما كان يعلّمه لي الآخرون؟

أشعر أنّ بيتاً غير الذي تربّيت فيه كان ليشعرني أنّني طبيعي، كنت لأكون شخصاً عادياً لو لم أكن في بيت أهلي، حيث الأمر لا مراء فيه، إيمان بكل ما قيل، أو كفر بواح، كنت لأكون لا دينياً محترماً لو كنت في عائلة صوفية، أو علمانياً مبجّلا لوكنت في عائلة شيعية، كنت لأكون أي شيء في عائلة متمدنة؛ لكن لم يكن في إمكاني أن أكون غير أبي في بيت أبي.

حتى هذه الدولة ما كانت لتسمح لي أن أكون غير عبد، ما كنت لأكون مواطناً هنا لو لم أحتلْ على القانون، ما كنت لأكون إماماً للحرم مثلاً، إماماً حتى لمسجد تائه في حارة منسية لو لم أكن مواطناً، ما كنت لأعمل في أي مكان شئتُ لو لم أكن مواطناً!

ما كنت لأكون شيئاً لو لم أكن مواطناً.

لقد ولدتُ هنا، قفز من حولي الأصدقاء، شمخت أحلامهم، وبقيتُ في السفح، أطالع انتمائي الفجّ لهذه البلاد التي تحتقرني، تسخر منّي كرجل مستقيم لا يحتال عليها، إنّها بلاد لا تحترم إلا من ينتزع حقه، من يزوّر أمره.

هل عليّ أن أوجّه هذه الأسئلة إلى الكعبة؟ إنّها تقف على الحياد، إنّها لا تجيب، رغم أن كل شيء من حولها يُفعل باسمها.

كلا، لن أوجّه العتاب لأحد، سأغادر كما غادرت ذلك الإرث، وأبحث عن شيء ضائع في مكان آخر؛ ربّما كانوا على حق، فأنا أشعر هذه اللحظة، ولأوّل مرة، أنّني أنتمي فعلاً إلى مكان آخر.

لقد أمدّتني تلك العاهرة بسبب، نبّهتني إلى وجود أمكنة متعددة، بعد أن عشت مؤمناً أنْ لا مكان آخر في الكون!

عجباً، يا للتفاهة، إن مساحة الأرض هائلة، مليئة بالأماكن، وكنت أقرأ هذا على الدوام في كتب الجغرافيا، لكنّني كأي مولود هنا، منذ انقضاء رحلة الشتاء والصيف، لم يعد يشعر بوجود أمكنة أخرى، أو داع للرّحيل.

الآن؛ وبعد جيلين نمت أرواحهما في التيه، أنهي في هذا الصحن رحلة جدّتي الروحية، وأقوم بالجزء الأهم منها، وهو العودة.

علي الآن أن أغادر، وداعاً أيتّها المملكة المخطئة، وداعاً أيتها الكعبة الحيادية!

## (11)
## وطن موعود!

وَضاقَت خُطَّةٌ فَخَلَصـتُ مِنهـا

خَلاصَ الخَمرِ مِن نَسـجِ الفـِدامِ

وَفارَقـتُ الحَبيـبَ بـِـلا وَداعٍ

وَوَدَّعـتُ البـِلادَ بـِلا سَـلامِ

المتنبي

رغم يقيني بقوّة مينا، وبوعودها، لم أكن أتوقّع أن تفلت من قبضة أمّها؛ وهي مثلي تماماً، كانت توسوس حتى آخر لحظة.

لكن حين دخلنا قاعة المغادرة في مطار الملك عبد العزيز الدولي تأكّدنا أنّ كلاً منا الآن أصبح حراً!

اليوم أضع آلاف الأميال بيني وتلك الحقبة، بيني وأهلي، اليوم أضع قدمي في التيه الخارجي، لا أملك فكرة عمّا ينتظرني، ولا أشعر بالحب الجارف لمينا، لكنّني أشعر لأوّل مرة بطعم الحرّية.

مينا كذلك تشعر بأشياء مميّزة، فهي تخطو الخطوة الأولى نحو حلمها، في أن تكون سيدة عادية.

هالني مظهرها حين التقيتها في مكة قبل ساعات، إنّها امرأة غارقة في الحلي، ينوء معصمها بالأساور الذهبية، وفي حقيبتها أطقم ذهبية أخرى، إنّ مينا تهرّب ثروات الخليج علَناً؛ همست في أذني: إنّهم لا يسألون المرأة عن حليّها، أكملتْ: لقد حوّلت مبالغ كبيرة عن طريق تاجر.. لا تخشى شيئاً لدينا من المال ما يكفي يا عبد الله!

إنّها تأخذ ثمن استباحتها سنين طويلة، تأخذه نقداً، تأخذه بالقيراط والأونصة، لهذا لا يمكن أن يسألها أحد في المطار، فلو تعرّت أمام رجال الجمارك لأدركوا حجم الضرر الذي لحق بها، ولو

فتحت روحها -بفعل اليأس أو الفودكا- لأحدهم لأدرك أيضاً أن ذهب العالم قد لا يكفي لرأب تلك الصدوع.

كانت رحلة مليئة بالإثارة، لأوّل مرّة أرى العالم كما يبدو في التلفزيون، ولأول مرة أتأكّد أن الغيوم مجرد أبخرة هائمة، حدّقتُ بين خلل السحاب، لأرى ذلك المَلَك بحجم الذبابة يضرب بسوطه، فيخطف البرق، ويجلجل الرعد.

كانت السماء أيضاً حيادية، فهي فارغة ولا متناهية، بدت لي أبعد منها على الأرض، وأكثر هباء وتعاسة؛ مللتُ مشاهدتها، وحين تأمّلت الأرض تحتي، بدت تافهة أيضاً، بدت صغيرة جداً، لكأن القصور في الأسفل جناح بعوضة حقاً، ماذا لو ابتعدت أكثر في السماء، خرجت من مجموعتنا الشمسية، ستبدو الأرض ومجموعتنا الشمسية أحقر حقاً من جناح بعوضة!

تأكّدتُ أن مينا تحمل شخصيتين، تلك العاهرة الحجازية، وهذه الزاوية المتحجّبة، بدأتْ تصدّق الحُلم، وأنا ما زلت على الحياد.

لا يؤلمني كثيراً أن أتزوّجها، ولكن قبل ذلك علي أن أجوب البلاد، وأزور تلك الأمكنة التي درج بها جدّي، وأستعلم عن أخباره.

ستحطّ الطائرة بعد قليل في مطار نواكشوط؛ أنظر في الأسفل، أين نواكشوط يا مينا؟ أسألُ، فتنفجر ضحكاً، تنظر بحنان وتقول: أووووه، أنت سعودي حقاً، لا تتوقّع أن تشاهد الكثير من الإضاءة، إن نواكشوط مدينة إفريقية يا عبد الله.

أعلم، وأعلم أنّها عاصمة الصحراء الكبرى، لكن أين هي؟ رأيت بعض الأنوار البيضاء، كتلك التي أشاهدها في منتزه البيضاء البرّي بالمدينة المنورة، وثوباً غليظاً من الظلام الدامس تتخلّله فتحات صغيرة.

لم أكد ألمح الكثير، حين حطّتِ الطائرة.

نزلتُ، تلقّفني نسيم بحري رطب، تأمّلت المطار النائم، فبدا كمحطة بنزين في طريق الرياض القديم، نزلتُ السّلم الحديدي، أتعثر بالحذر، وأشعر بالضياع؛ ولأوّل مرة خلال هذه الرحلة يساورني الشك في الوجهة، ربما اتجهت إلى المجهول!

المجهول؟ وماذا يعنيه المجهول بالنّسبة لك أيها التائه؟ ألم تخلق منه، تشبّ فيه، وتنمو أغصانك الجرداء فيه؟ إنّ هذا المجهول الصغير الذي تتواجد فيه الآن حريّ بكل تيهك، بجنونك، ونزقك؛ هنا لن يسألك أحد عن وجهتك، وربما لا يهتم كثيراً بجهة قدومك، هنا يمكن أن تحتفل أعواماً عديدة بخبوّ الصّيت.

هل أنت عبد الله ولد محمد؟ هكذا سأل رجل ملثّم يصاحبه شرطيان، ألجمني القلق، فقلت: ماذا تريد به؟ قال في عصبية: هل أنت هو؟ أرني جوازك.

قلت: أجل، أنا هو؛ مدّ يده مصافحاً، وأماط اللثام عن صفّ من الأسنان السوداء باسماً، وقال: السيد الوزير بانتظارك، هات أوراق الحقائب سيجلبها هذان الشرطيان!

الوزير! قلت مستغرباً، يبدو أنّني لست مجهولاً كما توقعت! يبدو أنني معروف هنا بشكل أهم مما كنتُ هناك! فقال: أجل الوزير في انتظارك.. إنّه قريبك، وهو خارج المطار في سيارته!

شعرت بالغرابة، تذكّرتُ ما قالته أختي بشأن قريب لنا، لكنّها لم تذكر أنه وزير، كانت مينا تقف عند ظهري، قالت: حسناً، من الأفضل أن تذهب مع أهلك، لكن عليك أن تأتي في الموعد، سيكون أهلي أيضاً بانتظاري وهذا جيّد ألا نأتي معاً!

آه، نحن الآن ندخل في منطقة التقاليد مرة أخرى، تذكّرت ما كانت تقوله طوال الرحلة: ستأتي لقريتنا بعد أن تستريح في فندق، وسأرتّب كل شيء معهم، أخبرهم أنك قادم، وتطلب الزواج رسمياً ويتمّ الأمر خلال يوم واحد ونرحل معاً!

تذكّرتُ تلك الترتيبات التي خطّطتْ لها بعناية، إنّها تحرص على التمتع بتلك التفاصيل، تذكّرتُ أيضاً أنها كتبت (العناوين) بوضوح في ورقة ودسّتها في جيبي.

عند الفراق، نظرتْ إلي بعطف، وتبسّمتُ مودعاً؛ علي الآن أن أكمل الطريق مع هذا الملثّم، وما بقي من الرّحلة ينوي الغرباء أن يخطّطوا له!

لم تكن بوّابة المطار تبعد كثيراً، خطوات قليلة ووجدت نفسي في الهواء الطّلق، ساورتني رغبة في إشعال سيجارة، لكنّ السيارة الفارهة المتوقّفة تماماً عند البوابة أزعجتني، ترجّل منها رجل فارع الطول، وخطَّ الشيبُ رأسه، وتبسم في وجهي بأبوّة، وقال: مرحبَ وسهلَ، أصل مرحب وسهل!

كان الوزير سمحاً وغامر الاستقبال، شعرتُ بالتميّز، فقلّة هم الّذين يستقبلهم وزير في مطار.

كانت دقائق قليلة، الوزير يحدّثني عن سروره بقدومي، وينتظر إحضار الحقائب، ثمّ انطلقنا وسط مطالعة وجوه العامّة من المنتظرين.

نواكشوط مدينة نائمة، إضاءتها تشبه إضاءة بار ريفي في فيلم أمريكي، هادئة، وأبواب المساكن متأرجحة، مسحة طفيفة من غبار، ونسيم أطلسي رطب يداعب الهدوء الساحر.

استيقظتُ صباحاً، كنت في غرفة مرتّبة، نزلت إلى البهو، إنّها فيللا فاخرة، وأثاث فاخر ينتشر في كل الأمكنة، أثاث باهظ، ومجالس كثيرة، مررتُ بأربع منها في طريقي إلى المكان الذي قد أجد به أحداً.

أخيراً، في المجلس السفلي عائلة تتمتّع بشرب الشاي الأخضر ضحوة؛ هبّت امرأة مريحة الوجه، واستقبلتني بوجهها الباسم، قالت الكثير من عبارات المديح والثناء والترحيب، بنغم مريح، وكذلك هبّت العائلة كلّها تقدّم الترحيب و الود.

جلستُ في منتصف المجلس، وددتُ أن أسأل عن الوزير، لكنّي لا أعرف اسمه! هل يعقل أنّني لا أعرف اسم قريبي الذي غمرني بضيافته؟

جاء أحد الخدم، قدّم إليّ كيساً بلاستيكياً؛ تبسّمت المرأة التي بدا جلياً أنّها زوجة الوزير، وقالت: عبد الله اصعد إلى غرفتك وغير ملابسك بهذه، نحن في انتظارك، إفطارك جاهز.

صعدتُ شاعرا بالهناء، كنتُ أشعر أيضاً بتأنيب الضمير! لماذا تركتْ عائلتي هذه البلاد، هذه الأرض التي بها مثل هؤلاء الناس، لقد شعرتُ ذلك الصباح بقدر من الحب لم أشعر به طوال حياتي، وبسكينة لم أشعر بها مع رفاق الهيئة؛ إنّه الإحساس بالعودة إلى الأهل والوطن.

لا أعرف الكثير حول الموضة هنا، لكنّ الملابس المقدّمة بدت أنيقة وباهظة الثمن.

تناولتُ إفطاري بسعادة، وأخذتُ في تأمّل وجوه العائلة، إنها شبيهة من جهة ما بوجوه عائلتي، هنالك ملامح وجينات موحّدة تؤلّف بيننا رغم عقود الضياع.

نصحتني زوجة الوزير بجولة في نواكشوط، وأمرت أحد السائقين بأخذي في نزهة، أكّدتْ عليه: خذه إلى البحر والأسواق.

كنتُ أطالع المدينة بمحبّة، فقد منحتني تلك العائلة طاقة هائلة، وإقبالاً على الحياة، رجال الشرطة التعساء أشعر تجاههم بنوع من العطف، فهم يشبهون أناساً أعرفهم أيضاً، والشوارع القذرة تشعرني بالبساطة؛ خلتُ أنني لم أعد أشعر بالغربة فقد وجدتُ أهلي!

أما المحيط الأطلسي فقد كان أكبر من مشاعري التصالحية، كان خلاّباً، ضخماً، مثيراً للشكوك! هل يعقل أن يكون مستنقع جدّة بحرا! إنّ هذا الأزرق الرّهيب أوحى إلي بالضياع مرّة أخرى، لقد نكأ جراحي، فها أنا مرّة أخرى نتوء ضئيل، بل لا شيء مطلقاً في حضرة شيء لا ينتهي!

في اليوم الثاني أمطرتْ بغزارة، فطمرتْ نواكشوط فضلاتُه، ظهر جلياً أنني في إفريقيا رغم سكني الباذخ.

مرّت أيام رائعة، وفي اليوم الرابع انطلقنا باتجاه باديتنا في ولاية الحوض الشرقي؛ قال الوزير مودّعاً: عبد الله لقد سعدنا بإقامتك معنا، أتمنّى أن تكون رحلتك إلى الشرق ممتعة أيضاً، نحن الآن في بداية الخريف، وهناك سترى وجه موريتانيا الحقيقي، وستلتقي بأبناء عمومتك.. ما زال هناك بعض من عائلتك وسيسعدون بحضورك فأنت من نسل رجل نحترمه جميعاً، وطالما كان مباركاً بسبب خدمته لشيخنا، ولشيخنا بشارة في نسله، وهو ما أرجو من الله أن يتحقّق فيك بعد أن خيّب أهلك في السعودية ما كان مؤمّلاً فيهم!

أهلُك! نحن، جدّك، شيخنا، وخيّب! مفردات أثارت شكّي، هل يعقل ألا تكون هناك قرابة واضحة بيني وبين هذه العائلة؟ أين ذهب ذلك الشبه، تلك الجينات، وتلك الضيافة؟

طوال الطّريق الطويل كنت أفكّر في كلماته، كنّا نسير في سيارات تحمل إحداها بنات وأولاد الوزير، والأخرى تقلّني رفقة بعض الرجال والنساء، وكذلك الثالثة.

تذكّرت ما كانت ترويه جدّتي حول نبوءة تتعلّق بجدّي تنبّأ بها شيخه بخصوص من «يكمل نصف تيزيريت الآخر» أمسكتُ بطرف الخيط؛ أحسست أن الوزير من نسل ذلك الشيخ، لم أجرؤ على فتح حوار مع الركّاب؛ قريباً سأصل إلى أقربائي الحقيقيين، وأفجّر أسئلتي.

لم يكن ذلك قريباً حقاً، فقد طالت الرحلة لأكثر من 30 ساعة، فالطريق وعر، والإسفلت يختفي ويظهر في مسافات متباعدة كوعد مؤجل، لكنّه حين يظهر لا يكون كما كان، ففي كلّ مرّة يبدو أكثر وعورة، حتى تماهى أخيراً مع الوعر، أصبح الطريق كلّه جوْباً لمئات الكيلومترات من الحفر والرمال.

كان ركّاب سيارتنا يتحدّثون في كلّ شيء، وفي أحيان قليلة كنت أشارك بابتسامة، ثم أعاود تأمّلي للمسافات الهباء، ومراجعة ما قاله الوزير.

بعد 300 كيلومتر من نواكشوط تبين جلياً أن الصحراء تلفظ أنفاسها، فقد تحوّلت التضاريس إلى سهول خضراء، ومستنقعات خريفية بيضاء، حشائش السافانا وما يسمونه محلّياً بـ«أَصَبايْ» تحيط بالطريق الوعر، ورائحة الخريف المنعشة تشعل في النّفس رَوْح الأدغال.

كنت للغرابة، أشعر بالانتماء لهذا المناخ، كنت أكتم إعجابي بكفاح جدّتي وجدّي اللذين جابا هذه السهوب، ونسجا هذه المفاوز أحجية، لكنّ ما يثقلني هو مسؤوليتي الآن عن فكّ طلاسم تلك الأحجية.

بعد 1000 كيلومتر وصلنا مشارف قريتنا، كانت شبيهة بمئات القرى التي شقّها موكبنا خلال رحلتنا هذه، بلدة صغيرة هادئة، بيوت شعبية متهالكة، وأكواخ خشبية كثيرة، تنحّتِ السيارة التي تقلّنا إلى داخل القرية يساراً، بينما أكملت السيارتان طريقهما قدماً؛ التفتَ إلي السائق وقد لمعت عيناه قائلاً: هنا يسكن ابن عمك.. خلفَ تلك الزريبة، كوخه هو الأصفر البادي من هنا.. أتراه؟ لا يمكن أن تصل إليه السيارة.

نزلتُ في الزريبة الكبيرة التي تملؤها الأبقار، أحمل حقيبتين؛ تذكّرتُ أنّني لم أسأله عن اسم ابن عمّي.. شعرتُ بالتردّد، ثم قطعتُ مسافة الزريبة ناظراً صوب الكوخ المغطى بشراع بلاستيكي أصفر.

خضتُ المربّع الكبير المكسو بروث البقر غالباً، أشق طريقي بين البقرات العائدة مساء للتمتّع برؤية عجولها، تلك البقرات المسؤولة كانت تشكّل حاجزاً سميكاً لرؤيتي، وعندما أوشكت على قطع الزريبة تبيّنت مشهد الكوخ بوضوح تام.

كان هنالك رجل أشيب، نحيل الجسم، شديد السّمرة، يلبس درّاعة قصيرة جداً، مربوطة بشكل كاريكاتوري فوق ظهره، منشغلاً بفتل بعض الحبال؛ وحين رآني هبّ واقفاً ناظراً إلي بغرابة.

بادرته بالسلام، فردّ التحية ببرود، تأمّلني من أخمصي قدمي، باحثاً عن شيء يشفي فضوله، وضعتُ الحقيبتين على الأرض، ومددتُ يدي مسلّماً، صافحني وقد زادت غرابته، كان صارماً فقال: من أنت؟

- أنا عبد الله ولد محمد.

- عبد الله ولد محمد منهو؟

- عبد الله ولد محمد ابن عمّك.. قادم من السعودية!

- محمد ولد مجبور؟

- مجبور! كلا عبد الله ولد محمد ولد لغظف.. أنا من أهل لغظف.

- نعم.. عبد الله ولد محمد ولد لغظف ولد بتّار المجبور، بتّار هو مجبور!

- حسناً، أنا هو.

تبسّم أخيراً، ثمّ تغضّن وجهه، وارتمى علي، كاد أن يسقطني، كان الرجل النحيل يجهش بالبكاء مكررا: ونّي.. ونّي.

لا شكّ أنه قريبي الآن!

سحبني إلى كوخه الخالي من الأثاث، حصير مقطّع، ودولاب خشبي تقليدي صغير قديم، ولا شيء آخر، افترشتُ ذلك الحصير والرجل يسألني:

- متى جئت؟ وكيف حال محمد وأحمد، هل عمك اسمه أحمد صحيح؟ كيف وصلت؟ هل هم قادمون أيضاً؟ مرحباً وسهلاً، مرحباً وسهلاً.

وانطلق كالسّهم صارخاً: يا امّيه يا امّيه!

برزت من خلف الزريبة راكضة، تقابلا وسطها فأخبرها بصوت عال جداً: ولد محمل مجبور جا من السعودية... ولد عمنا جا.

أطلّت وجوه من خلف الزريبة من كل مكان، ومن الأكواخ القريبة مطالعة، جاءت المرأة باسمة تكرّر: مرحباً وسهلاً؛ دقائق وامتلأ الكوخ بالجيران، أصبحت نجماً في تلك البقعة الفقيرة من تلك القرية النائية.

تبيّن جلياً أنّني وسط أهلي، الآن أكثر من وقتي في تلك الفيللا الفاخرة؛ البسطاء هم أهلي، وهم قدري، لم أكن منزعجاً من فقر قريبي المدقع، ولا من بؤس سكنه، ولا حتى من جيرانه الفقراء، لكنّني كنتُ أحمل فضولاً عن قريبي الوزير أيضاً.

هل يعقل أن تتفاوت مستويات الأقرباء إلى هذا الحد؟ وما الذي حمل الوزير على استقبالي بحفاوة، لا شكّ أنه في النهاية رجل شهم.

اجتمع الرجال والنساء من الأكواخ القريبة، شرعوا في تأمّلي أوان الغروب، كنت كنجم ألقتْ به السماء، لا شكّ أن هذه العيون الكبيرة الكثيرة التي يفترسني فضولها وجدت شيئاً مثيراً، لا شكّ أنني أُظهر معنى ما هنا، وحين تأملتُ يدي بدت غضّة وبيضاء وهي تمسك بالآنية الجيرية الصدئة، حين ألقيت نظرة على رجلي وهي مغطاة بروث البقر ظهر من تحت تلك الأكدار لون نعيمي لا ينتمي لهذا العالم!

لم أجد فسحة كبيرة لتأمّل بقية الأشياء، فقد انسحبت خيوط الشمس مسرعة من بين الأكواخ، وفي سرعة جنونية بسط المساء لحافه الثقيل، لم يكن هنالك ما يقاوم حلكته، لا إضاءة، أو حتى شمعة، سوى ألق جبهتي القادمة من الفردوس... وقد كانت صغيرة جداً.

أدركت أن هذا العالم يتعايش مع الطبيعة حقاً، ولا يأخذ منها الكثير، بعد الغروب تماماً، وكمدينة تشهد حرباً أهلية وتسدّ كل الدروب، تم الفراغ من كل شغل!

تقطّعت السبل، وانسحب الفضوليون، بقيتُ وقريبي وزوجته وحدنا، كان يوقد الجمر في موقد صغير لصنع الشاي الأخضر ويحدثني بصوت عال، رغم أنني بجانبه تماماً، فقد فرشت زوجته الحصير المقطع في ساحة صغيرة بين الكوخ والزريبة، صرخ ابن عمي: غداً سنذبح جدياً.. الذبحُ في الليل منهي عنه في الحديث!

ضحكتُ، وقلت: لا داعي لذلك، أنا لا أحبّ اللحوم، فقاطعني: أخ، هذا الكلام مرفوض، أنت لستَ ضيفاً لكن لا بدّ أن أذبح لك، الجدي الذي سنذبح منذ ولادته أسمّنه ولن أجد أحداً أكرم علي منك لأذبحه له.. دع عنك ذلك.

صلى المغرب على الحصير، وأخرج سبحة طويلة وشرع في الهمهمة، كان منسجماً مع النسائم التي تمر بجانبه، وخيّم على المكان جو روحاني رهيب؛ لا تسمع إلا همهمته، ووقع حبّات سبحته العاجية، وطقطقة الفحم المشتعل في موقده الصغير.

في نهاية ورده خفّ انشغاله قليلاً فوضع مواعين الشاي الأخضر بجانبه الأيمن، وكنت على يساره أتأمّل الجوار، دهمتُ هدوءه فسألته فجأة: من هو الوزير الذي أحضرني؟

الْتفتَ إلي كلياً وتوقّف صرير السبحة، ارتبكت شفتاه فهمس لأول مرة: هل أحضرك الوزير إلى القرية؟ هل تقصد شيخنا عينينا ولد شيخنا الشيخ سعدنا؟ هل كنتَ في ضيافته؟! أجبت في تردّد: أجل! تحوّلتْ أسارير وجهه فجأة، وعلته ابتسامة طفولية وصرخ: امّيه... يا امّيه.. هل سمعتِ ما قاله عبد الله؟ لقد كان في ضيافة شيخنا عينينا وأحضره بنفسه إلى الحضرة!

جاءت امّيه راكضة، متهلّلة وهي تلهج بالسؤال: هل جاء شيخنا معك؟ قلت: كلا، جاء أبناؤه فقط، تلفّتتْ يمنة ويسرة وقالت: سأذهب لزيارتهم وأعود... العشاء جاهز يحتاج فقط إلى سقي كسكس.

انطلقت المرأة المذهولة لا تلوي على شيء، بينما تزاحمتْ الكلمات في حلق ابن عمي وهو يقول: هل كنتَ في منزله؟ كيف وصلتَ إليه؟ من دلّك عليه؟ قلت: أختي في السعودية اتصلت به بطريقة ما وقد استقبلني في المطار.

تحوّل وجه ابن عمي إلى بقعة ضوء وقال: استقبلك في المطار؟ الله يجازيه بالإحسان، أنت رجل محظوظ... إن..، قلت بضيق وقد بدأ صبري ينفد من هذه الأجواء: من هو؟ وما قرابتنا به؟

قال: لقد قطعتَ علي الورد بحديثك، سأكمله دقائق فقط وأجيبك.

عاد إلى الهمهمة، لكنّ بسمة ملائكية تجلّل وجهه الآن، بدا الرّجل سعيداً بما أخبرته به، و كنتُ في حالة من الضيق فقد أوشكت هواجسي أن تتحقّق!

كنت أنتظر شغوره بفارغ الصبر، فقد كان ما سيقوله هاجساً خلال الثلاثين ساعة الماضية، وللحظات لاحقة فقدتُ الرّغبة في أجوبته، لكنه فرغ أخيراً وأخذ زمام المبادرة.

اسمع يا عبد الله: مثلك لا يقول هذا، «جهل الأعيان مجرحة» يا بني؛ كان يتحدّث بعتب واضعاً كفّه على كتفي، ثم أكمل: يبدو أنّك لا تعلم الكثير عن عائلتك.. وقد سمعتُ أن أباك وعمّك في السعودية يقولان أشياء لا تليق بهما، أرجو أن يعصمك الله مما يقولانه.

وسط حديثه الهامس فكّرت أنه لم يكن يدركُ مدى المسافة التي قطعت عنهما، جغرافياً وروحياً، لكنّه كان يعاتب بودّ فقال: قبل أن أعرّفك بشيخنا -والحمد لله أنْ لا أحد معنا لأن أحداً لن يصدّق أنك لا تعرفه- قبل ذلك سأسألك هل تعرف قرابتي بك؟ شعرتُ بالحرج فقلت: أنت ابن عمي؟ أطلق سراح ضحكة مجلجلة وربت على كتفي بسماحة، وذرّ وريقات من الشاي الأخضر في إبريقه وأجلسه على جمرات حيّة، ثم قال: حسناً، جدّك لغظف ولد مجبور هو عمي المباشر فأنا وسيلتنا ولد سعدنا ولد مجبور، جدّنا الجامع هو بتّار وقد كان فارساً شهماً وبطلاً معروفاً وقد أحضرته أمّه من بلدة (معسكر) بعد موت أبيه في الجهاد مع الأمير الولي عبد القادر الجزائري، وخوفاً عليه من القتل، وحين وصلت أمه إلى عمق الصحراء لفظتْ أنفاسها تحت شجرة في مكان منقطع، وكان شيخنا سعدنا الكبير سائحاً في تلك الصحراء مع النعام، وحين يشتدّ جوعه يأوي إلى تلك الشجرة ليأكل من أوراقها، وفي إحدى المرات وجد تلك المرأة الميتة بجانبها ذلك الصبي يبكي، فدفن المرأة وحار في أمر الصبي، وحين اشتدّ بكاؤه هرس له ورقة غضة من تلك الشجرة ووضعها في فمه، فصمت الصبي، وغفا شيخنا قليلاً، وجاءته الرؤيا بحقيقة نسب الطفل، وطافت به بشارة أسرّ بها لاحقاً إلى شيخنا الشيخ وسيلتنا رحمه الله، وحين أفاق من نومته تلك وجد الطفل يطفح من شدقه الحليب، فالْتفتَ فإذا غزالة متدلية الضرع تنسحب بهدوء من خلفه، وقد سمّاه الناس «مجبور» وحين صار فتى سمّاه أصدقاؤه «بتار» وهو جدي الأول وجدّك الثاني، أما شيخنا الذي استقبلك فهو شيخنا الشيخ عينينا ولد شيخنا الشيخ سعدنا الخَلَف ولد شيخنا الشيخ وسيلتْنا ولد شيخنا الشيخ سعدنا الكبير.

كنت أستمع إليه وقد أخذتني الدهشة لسرده المتماسك والغرائبي لتاريخ عائلتي، فأكمل: حين شبّ مجبور صار فارساً لا يشقّ له غبار، و ظهرت عليه علامات النجابة من أجداده الفرسان في

«معسكر» أما جدك لغظف ولد مجبور ابنه فقد كان في خدمة شيخنا الشيخ وسيلثْنا وقصته معروفة مع الشيخ في هذه البلاد، وعندما قرر النصارى ترحيل الشيخ من بلاده صرّح شيخنا بالبشارة لجدّك ولتلاميذه بأنّه -أي لغظف- لن يسجن لأنّ والده شيخنا الشيخ سعدنا الكبير أخبره أن أحد أبنائه سيكمل «نصف تيزيريت الآخر»، وكانت كرامة من كرامات شيخنا رحمه الله لأن جدك وقتها لم يتزوّج بعد، وقد تحقّق جزء منها لأنّه لم يسجن فعلا فقد عاد حاملا وصايا شيخنا الأخيرة لابنه شيخنا الشيخ سعدنا الخلف، وأخبر أنه تزوّج بجدتك فبشّره شيخنا سعدنا الخلَف بأن زوجته أنجبت توأمين ذكراً، ومات رحمه الله بعد ذلك بأشهر! لكنّ الجزء المتبقي ما زال بانتظار فرج الله، وهو يقين لا ريب فيه، رغم أنّ أحداً لا يعرف معنى كلمة «نصف تيزيريت الآخر»!

أدركتُ عمق ذلك التشابك، تلك العلاقات الروحية العميقة مع عائلة الشيخ، فجدّي نذر نفسه لخدمته، وحين أكمل واجبه في نقل الوصايا مات! لقد هزّني ذلك الجزء، رغم طابع الخرافة الكبير.

ما استنتجته أن وضع عائلتي الاجتماعي في هذه الأماكن تشوبه المتناقضات، فنحن من جهة الأصل ننتمي لفئة الفرسان، كما ننتمي من جهة روحية لرجل قام بأدوار ملحمية خدمة لشيخه ووطنه، لكن كل شيء مما سبق مرتبط بهذا الشيخ الذي احتلّني منذ قدومي!

أصلنا مرتبط بإغفاءة جده تلك، وهو فعلاً كجده وسيلثْنا كما أسموه!

شعرتُ بتلك النبوءة تتحرّش بعقلي، فأنا الذي رفض منطق العالم، أجد الآن النصوص الشفهية الخرافية تتحرّش بي وتُؤمّل فيّ القيام بعمل ما!

ومن جهة أخرى شعرتُ بالإحراج، حين تذكّرت ما ذكره لي أبي قبل سنين طويلة، عن ذهابه وأخيه إلى أحد مشايخ الصوفية عندما جاء إلى المدينة المنورة زائراً، ونصحهما له وتبيين ضلال ما هو عليه؛ ها هو الآن يكرمني جزاء ما فعلا، ها هو يتصرّف كالشيوخ ويسمو على هفوات المريدين؛ هل الإيمان القطعي بفكرة ما يقود إلى عدم الاكتراث بالأشياء الأخرى؟ حتى اللياقة والأدب! هذا ما فعلاه أبي وعمي، وعكسه ما فعل الشيخ معي على كل حال.

جاءت امّيه حاملة بسماتها، تهلّل وترقص بطرف ملحفتها، ترفعه لأعلى رأسها وتخفضه، وزوجها يسألها بإلحاح: هل رأيتِهم يا امّيه؟ أجابت وهي تذرع الكوخ بنشاط: رأيتهم بعد اللهم صلِّ على النبي وآله... اللهم صلِّ على النبي وآله، وجوههم المباركة أشعرتني بالفرَج، لقد زرتهم وسألتهم الدعاء.

ضحك ابن عمي، وقال: الحمد لله.. الحمد لله، الليلة مباركة جاء أهل شيخنا وجاء ابن عمنا عبد الله.

توافدَ الجيران عائدين من زيارة آل الشيخ، وجلسوا مستمتعين بمعجزتين، رؤية وجوه أولئك الصبية المرفهين، ووجهي المرفّه أيضاً.. قليلاً!

## (12)
## تيزيريت ما زالت تنتظر!

سفر، ما غايتي؟ للريح ما

أُشربَتْ قافيتي حُمّى بلادي

حسين عجيان العروي

وعورة الطّريق الطويل جعلت حصير ابن عمي فراشاً وثيراً، نمتُ بعمق، رغم الكوابيس المزعجة، فقد طافت بي أشد هواجسي الداخلية غباء، رأيت نفسي شيخاً يتبعه المريدون، يرقصون بحضرته، كما رأيت ضريحي بعد موتي تقام عليه كعبة، بالفعل «وكيف يحس إنسان يرى قبره؟» كنت أراه برهبة وقد تحوّل إلى مثابة للنّاس، مكتوب عليه بخط أندلسي: ضريح الحاج الشيخ عبد الله الحجازي الذي أكمل نصف تيزيريت الآخر!

كنت أشعر أنني أخرج من قبري ذلك بعد دفني، وأتحدّث إلى تيزيريت فقد كانت قريبة مني مكتملة، مبلّلة بمياه زرقاء، حين حاولت أن أتبين أديمها هبّت النسائم، أخذت تعبث بما يحيط بي، لم يكن في وسعها أن تحرّك شيئاً منّي، فأنا عارٍ تماماً، لكنّني رأيتُ كفني يحلّق في الهواء، ويتّجه شرقاً، اشتدّتِ الريح وتحوّلتْ إلى عاصفة، أخذ الحصير المقطع يلفّني، ولم أعد أستطيع الوصول إلى تيزيريت، نزع أحدهم الحصير الذي كاد أن يلفني كمومياء، وصرخ: عبد الله ادخل إلى الكوخ العاصفة.. العاصفة!

هرعتُ إلى الكوخ يلطمني روث الأبقار على وجهي، وأنا أمزج الحُلم بالصحو، جلستُ على سرير خشبي مرتفع يبدو أنه فراش نوم ابن عمي، رفع عقيرته بكلمة التوحيد، وسمعت هيللة من الأكواخ القريبة وسط أزيز الرياح.

كان صحواً مثيراً، لكنّه لم يكن كافياً ليبعد النّوم عني، وغباء الحلم الذي طاف بي، غفوت قليلاً، فانهمر الليل مطراً، إنّ الكوخ تحت وقع المطر المخفوق بالرياح الجنوبية، تدفّق من حنفية فوقنا مباشرة، فلم يكن مطراً، لقد كان كقِرَب هائلة منحلّة فوق هذه القرية.

أصبحت الظلمة أشدّ، فهي الآن كطلاء حالك، إنّه مطر (كْريمي) سميك، والماء وصل حافة السرير، لم تمضِ عشرون دقيقة أخرى حتى اضطررنا إلى الوقوف في بركة الماء.

استمرّ المطر الخريفي مدراراً، توقّفت الريح، فأصبح وقعه على هامة الكوخ أكثر ليناً، لكن منسوبه يزيد في اطراد.

هيلَلة الرجال في الأكواخ كانت تُوجّهُ بعناد ضد غزو المطر، لكنّ ابن عمّي وزوجته أظهرا فرحاً بالمطر في تلك الأوقات الي خلتها حرجة!

بعد شروق الشمس جلب ابن عمّي خبزاً مشوياً على الجمر، كان من ألذّ ما تناولته من خبز، أكلت منه قوالب متتالية، ثمّ تبيّنتُ أن ابن عمّي لا يمتلك حتى بقرة واحدة، لا يملك مزرعة، ويفرح كثيراً بالمطر!

تبيّنتُ ونحن نشرب الشاي ضحى، ومن تحت سريرنا -الذي نصبناه في العراء أمام الكوخ- تمر سخائم الحظيرة المجاورة، أن عشاءنا البارحة بكسكس كان استثناء فهم هنا لا يتعشّون إلا بالحليب، وذلك الحليب يكون هبةً من جار موسر أو من أبقار الشيخ!

تبيّنتُ أن ما أحملُ في حقيبتي من ملابس أكثر مما يمتلك هو وزوجته، وعندما سألته عن عمله أجاب بفخر منقطع النّظير: أنا تلميدي لأهل شيخنا!

وأخيراً، علمتُ أنْ لا أقرباء آخرين لنا في هذه القرية، فهو ابن عمي الوحيد؛ وقد ظهر جلياً أنّه لا ينجب.

بعد فراغه من الشاي، رافقتُه لزيارة أهل الشيخ، فقد كان ملتزماً بالحضور كلّ ضحوة لمجلس الذكْر والدرس؛ خرجنا معاً لأطالع البلدة و أزور تلك العائلة التي أكرمت وفادتي.

لا شيء أجمل من صباح خريفي في قرية موريتانية، جداول الماء في كل مكان، وناشئة العشب تنهض من تحت التربة المرحّبة، ممرّات الناس بين الحشائش ترابية واضحة، أما ممرات الأبقار الثقيلة فخضراء، والشلالات الصغيرة بادية للعيان في قمة (الطارح) الشرقي، قال ابن عمي: يبدو أن التامورت -بحيرة موسمية- ستدخل قبل انصرام أغشت، هززتُ رأسي كمزارع خبير، وفهمت قصده بالإجمال.

أوقفَنا الكثير من القرويين مرحّبين بي، وحين توسّطنا القرية قال ابن عمي: عبد الله لا بد أن أخبركَ بشيء، شيخنا (يوني) الذي قابلك في نواكشوط هو شيخ عظيم الجاه، وقويّ الصلة، ولكنّه لا يتّصل بالمريدين إلا حين يأتي إلى قريتنا، فهو منشغل بالسياسة والصلح بين الناس، أما التربية والأوراد وإدارة شؤون الحضرة فيقوم عليها مقدّم من أبناء عمّه بالنيابة، هو الشيخ وسيلتنا، وستقابله الآن، لكن عليك أن تكون متسماً بسعة البال والصبر، فهو رجل مصروف عن ظاهرته، وله أحوال ومشاهدات، وسأقدّمك إليه وأرجو بجاه شيخنا سعدنا الكبير أن تنال بركته، وإن رأى فيك نور تلك البشارة السعدية فاعلم أنّك ستظهر لا محالة، وأنا رجل كبير، وقد كنتُ آخر نسل مجبور هنا، وقد أوشك (التلاميد) على نسيان تلك البشارة، لكنّ قدومك سيؤكّد أن كلام الأولياء لا يمكن الاستخفاف به، وأن من حقّت له تلك البشارة لا يمكن الاستهزاء به!

تبين أن الاستغاثة تكون على مراحل، فللحاجات البسيطة شيوخ صغار، أما حين تكون الأمور شديدة التعقيد فلا جاه أكبر عند الله من الشيخ سعدنا الكبير؛ لقد استخدم تعويذته الكبيرة وشفيعه الأعظم لأجلي!.. إنه رجل شهم.

قلت: ولكن يا عمي علي أن أصارحك بشيء، أنا جئت هنا لزيارتك فقط، لا أخطّط للبقاء هنا، تغضّن وجهه بانزعاج وقال: هذا ليس صواباً، أنت تتسلسل فيك بشارة ولي، والأمر ليس عائداً إليك، سواء رحلتَ أو بقيت، لا أطلب منك شيئاً، لكنّني أشعر أنّك أنت المعني، وإلا لمَ جئت بعد أن يئسنا من أبيك وعمّك اللذين أصبحا وهابيين؟ أجبني يا بني: هل أنت وهابي كأبيك وعمّك؟

سؤال مباشر، من رجل مباشر، لا داعي للتملّص إذاً: كلا.. لستُ وهابياً.

حسناً، الحمد لله، بشّرك الله بالخير.

هكذا انتهى الحوار وسرنا نشق الجداول من أقصى القرية، أطالع دهشة الخريف لأوّل مرة، وأشعر بأنني في فخ حقيقي، فقد سقطتُ فجأة على قرية متعطّشة لأنموذج يدعم إيمانها المتداع، أنا الآن أقوم بدور آخر لا يستهويني.. وأمضي في سبيله دون اكتراث.

هذا ما جلبه علي التّيه، عدم الإيمان عميقاً بشيء، لوكنت ملحداً صرفاً لما اكترثت لكل هذا، ولو كنتُ سلفياً كما كنتُ قبل لرفضتُ بصلابة هذا الدور المسرحي، ولو كنت صوفياً حقيقياً لمثّلته بموهبة؛ في كل الحالات كنتُ لأفعل شيئاً حقيقياً، وذلك ما يمنح الأفعال ثماراً جيدة.

ذلك شبيه بالكارما البوذية، فأنا الآن أحصد ثماراً جيدة قام بزرعها الراحلون في حيوات سابقة، وأزرع أخرى سيئة دون أن أتوقّف، علي أن أكون راهباً بوذياً حقيقياً لأتوقّف عن فعل أي شيء تماماً، لأكسر الكارما، هذا هو الحل المتطرف الذي لا أقوى على القيام به في حياتي هذه.

وصلنا الحضرة المهيبة: بناء رخامي يخدش فقر البلدة، يرتفع كقبّة تحملها أقواس أندلسية، ومن تحتها يتمدّد البلاط المغربي، يزيّن الأرض باللون الأزرق البحري، على جنبات الحضرة التي يرقد تحتها المؤسس سعدنا الكبير يجلس المريدون، يدمدمون بأوراد طويلة، لا تسمع إلا همهمة غير مفهومة.

من خلف الرجال صف من النساء يقرأن أورادهن أيضاً، متشحات بملاحف زرقاء، والرجال معممون بعمامات زرقاء، جليّ الآن أن لون الحضرة الرسمي هو الأزرق.

دلف ابن العم إلى زاوية الحضرة، أشار إلي بخشوع أن أجلس خارجاً، وجلس عند أكتاف التلاميذ منخرطاً في ورده.

لم يكن أحد يملك وقتاً لينظر إلي، أو يتفرّس وجهي الغريب، فقد كان ثمة رجل يخطو على أطراف أصابعه حول أطراف الحضرة، يرش وجه كلّ من أنهى الورد بقطرات من الماء في آنية يحملها.

بعد ساعة بتوقيت الغرابة، نهض قريبي مبلّل الوجه، وسحبني خارجاً، رأيت المبنى الكبير الذي تسكن فيه العائلة المقدّسة عن يميني، ورأيت الفتيات الجميلات في ملابسهن الملونة منشغلات في مجلس صباحي بأعلى الشرفة، بعيداً في آخر السور الحجري الكبير، اتجّهنا إلى مبنى أقلّ ضخامة وألواناً، قال ابن عمّي: هذه هي زاوية الشيخ سعدنا الكبير، وهي مقرّ طريقتنا، طريقة أهل الفلاح.

دخلت المبنى، فكان مكوّناً من مكتبة صغيرة عند الباب، يزدحم داخلها أشخاص قليلون، ومجلس كبير جداً، يتسع لعشرات الأشخاص، وكان مزدحماً كما توقّع ابن العم.

جلسنا في آخر القاعة، نستمع إلى حديث الشيخ وسيلتنا وكيل الشيخ الوزير، وكان رجلاً بليغاً بغيضاً!

يبدو في جلسته تلك كقزم، لكنّ حنجرته القوية تهزّ أركان المجلس، كان يشرح فضائل ورد الطريقة، وقد جاء بأحاديث واضحة التّلفيق، تنسب ورده إلى كل الرّسل، وعند كل مقطع، كان أحد المريدين ينشج عالياً بصياح رهيب.

وأخيراً، تفرّغ للشعر، فألقى قصائد سيئة، مكسورة الوزن، بليدة الأحاسيس، ونسبها لشيوخ من أسلافه، وفي الختام بدأ بذكر كرامات الشيخ الوزير المعاصر.

تأمّلت وجوه الجالسين، لا شكّ أنهم من مختلف الطبقات، ففي وجوهم مختلف الملامح، هنالك ملامح الرجل العلماني المتغرّب، وملامح الفقيه المحلي، وملامح أخرى مألوفة، كملامح الحرفيين والعمال.

لكنّ الجمع مأخوذ ببانوراما الشيخ، وحديثه المتشعّب؛ وهو من نوع الأحاديث التي تخرج منها في النهاية بانطباع واحد إن كنت مؤمناً هو: سبحاااان الله، وإن كنت منكراً: لمَ جئتُ هنا؟!

عند انتهاء المجلس وفي أثناء تدافع المريدين على الشيخ لينفث في أيدهم ويمسحون بها رؤوسهم، وقف ابن عمّي بين الحشود بفخر، منتشياً بهذه اللحظة التي انتظرها طويلاً، وكلم الشيخ بصوت عال، توقّف المريدون والْتفتوا إلى المتكلّم: شيخنا هذا ابن عمّي عبد الله ولد مجبور جاء زائراً من السعودية.

قطّب الشيخ وجهه المكتنز، وقال باستغراب: ذكرَ الله ونبيّه.. أصل ورخست!

همهم الجمع باضطراب، ووشوشت ضحكات لئيمة من بعضهم، فارتبك ابن عمّي قليلاً وقال: عفا الله عما سلف.. هو الآن زائر لهذه الحضرة.

شعرتُ بالإهانة، فقد قال الشيخ البغلي القصير كلمة نابية وشديدة السوء بحقي وحق عائلتي، لكن مقام ابن عمّي ألجمني عن الرد، فقال الشيخ: ابن من هو؟ فردّ ابن عمي: ابن محمد ولد مجبور، زادت أخاديد وجه الشيخ سوءاً فقال: أجل.. أجل، أعرف ذلك الوهابي، لقد جاءني عندما زرت المدينة المنورة في الروضة الشريفة، وقال إننا جميعاً مشركون، وقال إن أباه كان جاهلاً مشركاً أيضاً!

الله أكبر... الله أكبر، مصاحبة لكلمات نابية وشتائم دوّت من أرجاء المجلس، فأكمل الشيخ وقد شعرت أنّ ابن عمي وضعني في موقف سيئ: هل هو وهابي كأبيه؟ كلا الحمد لله ليس وهابياً، قالها عمي باسماً، فارتخت أسارير وجه الشيخ وأكمل: عموماً، كما قلتَ يا وسيلتنا، عفا الله عما سلف، ولا تزر وازرة وزر أخرى، إن كان جاء زائراً مسلّماً فأهلاً به، تعال هنا يا ولدي.. وأشار إلي مبتسماً كأن شيئاً لم يحدث، فتعجّبتُ من مقدرة وجهه على التّنقّل بين المشاعر المتناقضة، كان يبتسم منادياً.. وابن عمّي يدفعني وقد انشقّ المجلس أمامي كبحر موسى، فتقدّمت وحينما سلمتُ عليه تفرّسني بعمق، واضطرب وجهه فقال بصوت متهدّج: علينا ألا ننسى أن شيخنا الشيخ سعدنا الكبير أسرّ إلى شيخنا الشيخ وسيلتنا رضي الله عنهما ببشارة تتعلّق بنسل مجبور، وأنه سيخرج منه من «يكمل نصف تيزريت الآخر» وهذا الفتى تبدو عليه أمارات القبول، أسأل الله بجاه شيوخنا أن يجعله مباركاً، وأن يقيه ضلال الوهابيين.

آمين.. آمين، قالها جمع المريدين بصوت واحد، فعرفت أن مباركة الشيخ قد حلّت علي! عجباً لهذا المجلس الذي لا يحفل كثيراً بالمقدمات حين تنسفها كلمة واحدة من هذا الشيخ، وقد ظنّ بكلمته الأخيرة هذه أنه مسح السوء من أعماقي، كأي مريد آخر، يقبل منه ما يقول.

سُر ابن عمي كثيراً بمباركة الشيخ وسيلتنا لي، وقد أشرق وجهه، وكاد يحضنني فرحاً وفخراً بعودتي في هذه اللحظة.

أجلسني الشيخ بجانبه، وقد بدأ الخدم يفرشون سُفر الوليمة الصباحية، تزاحم الرجال إلى حيث يجلس الشيخ، فشعرت بالحظوة في عيني ابن عمّي الذي أصبح جالساً عند كتفي في الصف الثاني.

كاد رجل أن يسجد بين يدي الشيخ، وقد ظهرتْ عليه أمارات الثراء، من ملبسه، ومظهره البورجوازي، مسح الشيخ فوق رأسه، وأخذ منه ظرفاً كبيراً محكم الإغلاق، قال الرجل وهو يقدّمه: أنا زائر لهذه الحضرة، أرجو أن أنال القبول و يزدهر كل شيء ببركة شيوخنا رحمهم الله.

لاحقاً عرفت أنّ الرجل الزائر وكيل سجائر فرنسية شهيرة!

كانت الوجبة تقليدية، في تقديمها ومكوّناتها، فقد قدموا لنا التمر والزبدة المحلية أولاً، وقال الشيخ وهو يزدرد التمر دون مضغ تقريباً: هذا التمر من السعودية... هههههه سيعجبك يا صاحب السعودية.

ثمّ سحب الخدم صحون التّمر الصغيرة، وقدّموا لحم الضأن المشوي، ثم سحبوا الصحون الفارغة وقدموا اللحم المطبوخ بالبصل والبطاطس والخبز المشوي على الحطب.

عند انتهاء الوجبة تفرّق الجميع بعد مغادرة الشيخ، فخرجتُ رفقة ابن عمّي وهو في عبالة الفخر، يشرح لكل مريد من رفاقه الفصول المتعلقة بنبوءة الشيخ الكبير عن كفاح جدّي.

مررنا بالفيلا العائلية، كانت فتيات العائلة المقدسة في العلية يكملن مجلسهنّ الصباحي، وقد

وصلت مسامعي أنغام الفنانين المحلّين وأهازيجهم لهن.

بعد خطوات مهيلة، انتهت كل مظاهر البذخ، ودخلنا الشارع الموحل في القرية، أسرّ إلي ابن عمي: لقد ذبحتْ امّيه الجدي.. سيكون جاهزاً الآن، ضحكت باستغراب وقلت: أنا لستُ أسداً، كيف أتناول وجبة دسمة أخرى بعد وليمة الشيخ العامرة!

أتيحت لي خلال الأيام التالية فرصة دخول مكتبة آل الشيخ، ونقاش الشيخ وسيلتنا القائم بأمر الطريقة بالوكالة، وقد حرصت على الاستماع منه دون إبداء رأي قد يثير طبيعته شديدة الصلافة؛ تأكّدت مما قاله ابن عمي فالشيخ وسيلتنا رجل حاد الطباع، جارح الكلمات، لكنّه يخفي نفساً طفولية تظهر في سذاجته أكثر مما تظهر في خصومته.

إنّه رجل خلو من كلّ ذوق صوفي، معدوم التربية روحياً، فكل ما يؤسس عليه عمله الروحي مستمدّ من قرابته بالعائلة المقدسة تلك، لم أجد لديه أي فهم لمعان صوفية بارزة، كالذوق والكياسة، أو قيم روحية عظيمة كالمجاهدة و الأثرة والتسامح، أحرى بالتشبث بالمقامات وتربية المريدين عليها؛ كلّ عمله يصبّ في جهة واحدة: تقديس هذه الحضرة والذود عنها!

حين حاول الحديث عن التربية أحسستُ بضآلة زاده، لم يزد أن حضّ على ضرورة صفاء النفس، وعدم خداع الناس بادعاء النسب إلى آل البيت!

وحين سألته عن أعلام التصوّف أظهر ميلاً إلى تجاهل التراث عموماً، فتراث الشيوخ من حضرته وحده كافٍ لتفسير كلّ شيء!

هذا ما حرّك ذلك الشيء بداخلي قديماً حين كنت سلفياً، التشبّث بتراث الجهة، واعتباره نصاً موازياً يتحوّل إلى أصل مع الزّمن.

رغم الجذور التيجانية لطريقته، فلم ألمس أي تواصل مع الفكر التّيجاني الممتد من فاس إلى أبيدجان، ولم ألمس لديه تقديراً لزاوية غير زاويته؛ ربما فسّر لي هذا مواقف متناقضة أخذت في الظهور بعد أن اكتشفت تاريخ عائلتي بعد ذلك بأشهر.

فحسب الرواية الشفهية أن جدي مجبور ينتمي إلى عائلة من فرسان (معسكر) وهم محاربون أشداء في صفوف جيش الأمير عبد القادر الجزائري، وبالتالي هم خصوم من ناحية ما للتيجانية!

لأنّ عبد القادر الجزائري قبل أن يكون أميراً هو سليل لمشيخة صوفية قادرية ترعرعت في خصومة أزلية مع الزاوية التيجانية الشهيرة في «عين ماضي» التي يقودها محمد الصغير التيجاني حفيد المؤسس، وهذه الخصومة هي التي قادت تلك الزاوية وأتباعها من الزوايا التيجانية الصغيرة إلى الاصطفاف بجانب الفرنسيين الغزاة نكاية به، لخطورته على نفوذهم من جهة، ولخصومته الدينية معهم.

ذلك التورّط البغيض قاد الشيخ محمد الصغير إلى إصدار فتوى بتحريم الجهاد ضد

الفرنسيين، وطافت تلك الفتوى الآفاق للحصول على التقريظات اللازمة من حواضر العالم الإسلامي كي تصبح فعالة في تثبيط العامة عن دعم الأمير المجاهد.

ولقد أمر الحاكم الفرنسي المارشال بوجو رجل الاستخبارات الشهير ليون روش الذي سبق له التجسّس على الأمير في سنوات سابقة بحمل تلك الفتوى إلى تونس ومصر والحجاز لتقريظها من علماء الإسلام واعتمادها، وقد صاحبه في تلك الرحلات شيوخ تيجانيون من تلك الزاوية والزوايا التابعة لها.

لهذا كنتُ أشعر بالتناقض، فهؤلاء التيجانيون الموريتانيون احتووا جدّي مع معرفتهم الأسطورية بأصوله، وقدموا له الحماية، رغم انتمائهم الطرقي للتيجانية.

لكن لم يكن هناك متّسع من الوقت للشكّ، فهذه الزاوية التيجانية، على العكس من مثيلاتها في جنوب الجزائر إبان حقبة الأمير عبد القادر الجزائري، قادت هذه الزاوية مقاومة ثقافية شرسة ضد الاستعمار، ودفعت ثمناً لها من حياة واسطة العقد من شيوخها الشيخ وسيلتنا، الذي قاوم الاستعمار ونفوذه في مناطق الشرق الموريتاني!

وقبل هذا التراكم الهائل للمعلومات الشفهية المتناقضة، جاءت معرفتي بالشيخ وسيلتنا القائم بأمر الزاوية الآن، لأعرف لاحقاً السبب الحقيقي، فالزاوية هنا لم تكن يوماً جزءاً من منظومة فكرية أو روحية، بل إن انتماءها للتيجانية كان من باب التأسيس فقط، وبعد ذلك اختصرت العالم في مفاهيمها الخاصة القائمة على السيطرة الروحية والعقلية على الأتباع.

ربما كانت مقاومتها للاستعمار انطلاقاً من هذه الفكرة أيضاً، ولهذا لا وجود هنا لأي شيء في هذه المنطقة عدا الشيخ وذِكْره، ولا شيء في الجُبة إلا هو!

إنّ المنتمي لهذه الزاوية عليه أن ينكر نفسه، وتاريخه، وغده، عليه أن يكرّس كلّ ما يستطيع فعله لإبقاء اسم الشيخ عالياً.

حتى ابن عمي الذي سلخ عمره في خدمة هذه الحضرة، لم ينل جزاء ذلك شيئاً، فهو يسكن في خُص متهالك، وينوء تحت تاريخ طويل من التجاهل والاحتقار.

كل من في القرية هم أناس عاشوا ليلهجوا بقيم تافهة، قيم لا تتسلّل عميقاً إلى النفس، فالعائلة المرفّهة المقدسة، تملك الأرض والإنسان، تملك حتى روحه، الناس من حولها مقسمون حسب رغباتها واحتياجاتها، فهناك العبيد المسخّرون بالدين، الظانّون بالله ظن الانحياز، فهم مؤمنون أنّه خلقهم أدنى شأناً ليخدموا أصدقاءه، وهم قانعون أن أي تمرّد يؤدّي إلى الهلاك.

وهناك الزراع والرعاة، وهناك الصناع التقليديون، والمطربون، وصغار الكَتبة والنساخ، وجباة الهدايا المنتشرون في الآفاق، وهناك الذائبون في نور الحضرة ليل نهار يلهجون بأمداحها.

الجميع يعمل برضى وقناعة وسعادة!

حتى العائلة المقدّسة تمارس رفاهيتها بذات القيم، لا يكدّر صفوها إحساس بالذنب أو الاستغلال!

لكنّني الآن أضفت حملاً ثقيلاً آخر إلى نفسي، ربما أمكنني تجاهله قليلاً بما لدي من وعي وانتباه وإدراك، غير أنّني بعد أن عرفتُ حقيقة وضعي العائلي أصبحت أقلّ ثقة من نفسي في هذا المجتمع الغبي.

لا يمكن أن يتجاهل المرء رأي الناس، مهما كان تافهاً، حين تشعر أن أحدهم ينظر إليك بدونية، حين تتأكّد أن هنالك تراثاً عظيماً تقوم عليه حياة الناس هنا، وهذا التراث يجعلك تابعاً في أفضل صورك!

ماذا كان عليهم ليفعلوا؟! لقد قاموا بأفضل ما في وسعهم بشأن عائلتي، فمجبور كلمة لو تمّت ترجمتها للعربية لأصبحت بمعنى لقيط!

أظنّ أن عائلتي في السعودية كانت وقحة وشديدة الذكاء في الوقت نفسه، لقد أثارت إعجابي في هذه اللحظة!

كان عليهم أن يغيروا كل شيء، ويستغنوا عن الجزء (مجبور) من الاسم فاكتفوا بجدهم الأول لغظف، وقد كان ذلك عملاً رائعاً، لكنّ الجزء الأكثر تناسقاً هو التغيير العميق في التوجه، من الصوفية إلى السلفية، وسواء حدث ذلك التغيير بوعي أو صدفة، فقد كان ضرورياً لترميم كبرياء العائلة.

السلفية التي هربتُ من تسلطها الروحي، وجبريتها النصية، واحتكارها للتأويل، هي من منحت عائلتي الفرصة للتحول من شخص تابع إلى شخصية مستقلة، ومن علاقة ذيلية بشيخ إلى علاقة سامية بإله، ومن جبرية بقائها في القاع اجتماعياً إلى تسلّق قمم الإكليروس الديني، ومن انطباع وإحساس بالدونية، إلى تأويل عميق لتاريخها!

لقد قلبتْ السلفية المعادلة هناك، أو أعادت الوضع لحاله القديم، لا فرق، لم نرجع عائلة محاربة في جيش الأمير عبد القادر الجزائري، لكننا لم نعد أذيالاً للزاوية السعدية!

لا أعلم إن كان أبي يعلم حقيقة رأي الناس هنا فيه، أعني اجتماعياً، لكنّه على كل حال استراح من هذا العالم التافه.

علي أيضا أن أكتفي من هذا العالم التافه، وأن أعود إلى جدولي، مينا تنتظرني، وثمة تجربة أخرى بالانتظار.

هذا ما دار برأسي بإلحاح، وحين أخبرت ابن عمي به، بكى كطفل، لقد أصبحتُ بشارته المتجسدة، وأصبحتُ تعويضه الأزلي عن هوان الحياة!

يا الله، هل كان علي أن أجوب هذه البلاد، كي أصبح مقدّساً!

قررت ذلك دون رجعة، وبعد أيام أدركت أن الحياة هنا لا تطاق، فأنا مصنّف اجتماعياً، عليّ أن أبقى كما أنا، ضمن ما يسمح لي أن أقوم به.. أو أرحل!

لم أستطع تجاوز نظرات الفتيان والفتيات الاستعلائية، حين أشارك في لهو أو حوار، فهم يعجبون من ابن مجبور الذي يتحدث في الدين، ويحمل نزقاً وهابياً ينكره، أو يحاول حتى أن يشارك في الحياة بندّية!

كان الوداع على وقْع دموع ابن عمي الذي خذلته، وتركته دون تعويض سوى بعض ملابسي المستعملة ومبلغ زهيد من الأوقية التالفة، تركته ليكمل نحبه وحيداً، كما أكمله جدي تماماً!

## (13)
## حقيقتي.. وأوهام البدو!

للعقل حجته.. وللأوهام حجتها كذلك

أترى الحقيقة في خيالي

كالحقيقة في خيالك؟!

حمزة شحاتة

خرجتُ من تلك القرية شخصاً مختلفاً، مشوّشاً قليلاً، ولم يكن يدور ببالي مطلقاً أن تكون تلك الأشياء بالانتظار، كان استقبال الوزير الشيخ مثيراً للأسئلة، وكان حال ابن عمي و ثقافة القرية أجوبة قطعية لكل شيء.

إن الهجرة من الحجاز والعودة إلى الجذور لم تسفعني، خذلتني كما خذلتُ ابن عمي الدرويش!

تركتُ القرية و اتجهتُ إلى مدينة (كيفه) لمقابلة مينا، كانت الخطة التي حرصت مينا على ترتيبها أن أحلّ ضيفاً عادياً على عائلتها، وستحرص على الالتقاء بي في أثناء يومي الأول، وببساطة أتقدّم إلى خطبتها.

عندما وصلت إلى المدينة الشهيرة في وسط موريتانيا، كان الوقت قائظاً، فنحن في الخريف، ورغم وقْدة الظهيرة فقد شعرتُ بعودتي إلى الحياة، هنالك سوق كبيرة توقّفت السيارة في وسطها.

حسب وصف مينا المنزل قريب من السوق وذائع الصيت، علي فقط أن أسأل عنه، كما أن أهله مضيافون ولن يسألوا كثيراً عن سبب قدومي.

حرصتُ على التسوّق قبل ذهابي إلى أصهار المستقبل، لأول مرة منذ أيام أحصل على حلاقة مقبولة، اشتريت سجائر حمراء، وتمتّعت برؤية خبز الباكيت الذي أحببته منذ إقامتي في منزل الوزير بانواكشوط.

وحين سألتُ أحدهم عن منزل أهل الداه أجاب بأريحية: الداه ولد اعمر؟ نعم.. إنه أمامك..

أترى الحائط الأبيض.. إنّه هو.

دخلتُ المنزل الكبير معتمراً عمامة رملية اللون، وشعرت بالبهاء، بالفعل مينا صادقة تماماً، هذا منزل كبير، ليس فارهاً كمنزل العائلة المقدسة في قريتنا، لكنّه كبير ويوحي بالمكانة.

خرج رجل من إحدى الغرف المتناثرة في الحوش الكبير، وابتسم في وجهي، أشار إليّ فتبعته، خلف الغرف كان هناك مبنى حجرياً كبيراً يشبه الكوخ، يزدحم بالشبان، يلعبون ورق اللعب، بينما (ينسدح) بعضهم على الأرض في أحاديث جانبية، دخلتُ وسلمت على أقرب مجموعة، ناولني الرجل الذي قادني إلى الكوخ قدحاً مليئاً باللبن المحلى، شربت وأشعلت سيجارة!

كنتُ أمارس التضيّف بعفوية، فقد اتقنتُ هذه الثقافة منذ مدة، أصبحتُ شبيهاً بأهل الكُدية في مقامات بديع الزمان الهمذاني، وهذه الصفة ممتازة في مجتمع البيظان كي لا تشعر بالإهمال.

أمضيتُ تلك الظهيرة في ذلك الكوخ، ووجدتُ صديقاً بين ذلك الجمع؛ كان رجلاً شديد الفضول، واستطعتُ توجيه فضوله كي أحظى بأجوبة.

سألني ونحن نجلس على انفراد: من أي الناس أنت؟ اخترعتُ قبيلة ونسبتُ نفسي إليها، هزّ رأسه وأظهر فضولاً كبيراً لمعرفة قبيلتي، اختلقت بعض التفاصيل أيضا، لم يكن الأمر صعباً فاختراع قبيلة من العدم يحتاج فقط إلى مخيلة، كنتُ وإياه في معركة حدس، وحين أظهرتُ له البلاهة والفضول أيضاً نلتُ منه، لأنّه اعتبرني عابر سبيل فعلاً، قال بدهاء:

- لكنتك غريبة... هل أنت عجْمي؟

- كلا، تربيتُ في السعودية فقط.

- أها ذلك جلي، عموماً مرحباً بك هنا، أهل الداه ناس طيبون.

- اهلاً بك، كنتُ أسأل عن امرأة جاءت من السعودية مؤخراً، تحمل لنا رسالة من هناك.

- أها... مينا! أنت تقصد مينا منت الداه؟

- أجل، اسمها مينا، هل يمكنُ أن ألتقي بها؟

أطلق الرجلُ ضحكة مجلجلة، أظهرتْ مصفوفة من الأسنان البنية في مؤخرة فمه، ثمّ شهق حين الْتفتَ إليه بعض الشبان في فضول... سحبني خارجاً فقد أصبح صديقي!

حين صرنا خارج الكوخ قال: هههههه تسألُ عن مينا منت الداه... نعم، اسمع هي من أقربائي، لقد جاءت أخيراً من السعودية، وقد زوّجها جدّها من ابن عمها قبل أيام ورحل بها!

زوّجها! كيف ذلك هههههه ضحكت دون وعي، هل أحبّ مينا؟ أم أنّني مصدوم؟ كنتُ لا أثير

تلك الأسئلة، بل أريد من عينيه أجوبة؟

أجل زوّجها... هل تعرفها، أجبني، بدأتُ أشك هههه أتعلم؟ هي امرأة بارعة الجمال، هل تعرفها فعلاً؟ أنت من أهل السعودية!

كان الرجل سهلاً وشبه حيادي، رغم قرابته المزعومة من مينا، حين أنكرتُ معرفتها، قال: اسمع، مينا تزوّجت بالفعل، لكن إن كانت لديها رسالة لك فسأذهب معك إلى باديتها!

باديتها! صرخت في فزع.

أجل، هي تسكن في البادية مع زوجها.

شعرت بالخذلان، فمينا من ناحية ما هي التي جلبتني إلى هذا المكان، والآن بعد أن تقطعت بي السبل تزوّجت، يبدو أن هذا الوضع محرك للمشاعر كالحب تماماً!

سحبني الرجل راجعاً إلى الكوخ أيضاً، أصبح يقودني، ويبدو أنه تخلى عن كل شيء وتفرغ لي، قال: بعد الغداء سأذهب معك إليها.. ستكون تجربة مثيرة يا صاحب السعودية، لكن عليك ألّا تسأل أي أحد عن مينا!

على الأقل علي أن أنظر إلى هذا الجانب: أصبح لدي صديق.

تحدّثنا طوال المقيل عن مينا، وعن السعودية، وعند انتهاء المقيل خرجتُ معه، ذهبنا في شوارع طويلة، وفي ضاحية شمالية من المدينة رأينا معطناً للإبل، فقال: من هنا سنأخذ جملا نرحل عليه!

جمل! صرختُ به، فقال: ألم تركب جملاً قبل؟ إن المسافة طويلة ولا توجد سيارات تقلّ إلى تلك الجهة... هل تودّ مقابلة مينا وأخذ رسالتك؟

شعرت بالمغامرة، ها أنا الآن أرحل على الجمال طلباً لامرأة، كما رحلتْ جدتي عليها قبل عقود هربا من رجل؛ كنتُ أشعر بالرغبة في إكمال مهمتي، تماماً كما شعر جدّي بضرورة توصيل وصايا الشيخ وسيلتنا، إنها غرابة الحياة في إعادة الكفاح بمعان أقلّ إقناعا.

ألم أهرب من المدينة إلى مكة طلباً لمينا، أليست هذه مسافة أقل، إن كانت المسافات أصلاً تهبُ معنى لشيء!

دخل صديقي في حوار سريع مع الرجل الذي عانقه أمام خيمته، اختار لنا الرجل جملاً بازلاً يصلح للردف، وضع فوقه راحلة تقليدية، وعلق في أسفلها حقيبة جلدية تقليدية وعبوة بلاستيك سميكة في الجهة الأخرى تحوي ماء.

عندما نهض الجمل، وأنا أتشبث بالراحلة خلف صديقي الجديد، شعرتُ بتلك الإثارة التي

تحدّث عنها، إن نهوض الجمال المتثاقل، وتلك الوهاد الشمالية التي تبرز على المدى، تشعر بالرهبة، تلقي كل الوساوس، وتحرّض النفس على الإقلاع إلى المجهول.

خرجنا من كيفه تماماً، وبدأنا في شقّ البرية على تلك الآلة الحية، سألتُ: متى نصل برأيك؟ ضحك الرجل وأجاب والريح تكسر صوته: لو واصلنا السير سنصل قبل العاشرة، لكن ذلك الوقت متأخر في تلك الأرجاء.. لو شئت بتنا في مكان قريب منهم، لقد زوّدنا الرجل بكل ما نحتاجه للمبيت!

نظرتُ إلى العلائق المتدلية من الجمل كأحمال، كلّ ما يحتاجه شخصان قد يكون معلقاً بالفعل عند أرجلنا.

بعد إرسال في السير، توقّفنا فوق تلّة، وبرك الجمل بتثاقل، كدنا أن نقع على وجوهنا، وأنا أشعر أن نصفي الأسفل مخلوع بالكامل، فهذه الدابة تسير بشكل أرعن، ترمي الراكب إلى الأمام وتشده إلى الخلف كدمية في أثناء سيرها، وهذا ما يجده الأعراب ممتعاً، فهو نمط من الترفيه، كآلة لعب، ولشدّ ما أثار استغرابي ذلك الرجل بصراحته وطرافته، فقد سألته عن سير الإبل، فقال: هههه بعض أهل البادية حين يركب ناقة ذلولاً يتمتع بسيرها إلى حد أنّه يقذف كمن يمارس الجماع!

ضحكتُ لغرابة الحديث والأمر على حد السواء.

أيكون هذا الرجل مخنثاً نصب لي كميناً في البرية؟

نزل وقيّد الجمل، وأعدّ مكاناً للجلوس، صلى المغرب والعشاء، أوقد ناراً تطاير منها الشرر بسرعة وقال: الحمد لله الليلة تشهد نشاطا للرياح، ذلك يعني أن المطر لن يهطل، زوج مينا يسكن على مسافة قريبة منا الآن، سنصل إليهم غداً بعد أقل من ساعة من السير.

قلّب وجهه في السماء وأكمل: لو كنا في كيفه لَما استطعنا النوم بفعل الناموس والحر، هنا يحسن النوم والسمر، ستشرب الآن أفضل شاي أخضر في حياتك، هيا... هيا حدثني عن السعودية.

أخذت أحدّثه عن عموميات مملة، لكنه سرعان ما عاد وانشغل بذكر مينا عند أول توقف، فقال: أتعلم يا عبد الله بتّ صديقي الآن، سأخبرك عن قصة مينا قليلاً، جدّ مينا رجل معروف في قبيلتنا وفي سائر المنطقة، وحين تزوّج ولده رحمه الله من أم مينا فعل ذلك رغم معارضة أقاربه، وبعد أن مات أخذت طليقته ابنته مينا التي لم يسبق أن زارت كيفه، وربّتها على نحو مرفوض ضمن قيم قبيلتنا، كان جدّها لا يبالي بأمر الفتاة، لكن منذ سنوات بدأ الحجاج والقادمون من السعودية يتحدثون عنها، وعن سمعة أمها، مما أمرض الشيخ و حاول أن يسترجع حفيدته دون طائل، منذ أيام فقط ودون تخطيط منه، جاءت مينا قادمة من السعودية، جاءت على نحو مريب، مظهراً وأسلوباً، فرح الجدّ العنيد بعودتها، ليس حباً بحفيدته، بل لأنه الآن أصبح بإمكانه احتجازها وإنقاذ شرفه الذي لاكته الألسنة.

شعرتُ بالألم لحال مينا الآن، فهي جاءت إلى جدّها آملة في الخلاص، راغبة في حياة جديدة، وها هي الآن تقع أسيرة في يده، بل يزوّجها قسراً إلى رجل بدوي!

استمرّ الرّجل في حديثه، فهو شديد الحماسة لمينا وقصتها، قال: جاءت فشخصتْ أعين كيفه عند قدومها؛ طفتْ ابتسامة على شفتيه وهو يشرب كأس الشاي الأخضر، وأكمل: كانت في ملحفة رائعة، تبرز خصلة من شعرها بلون غريب من تحت غطاء رأسها، تعبق منها رائحة العطر الثمين، ويسير أمامها أطفال وفتيان أتوا لتشييعها إلى بيت جدها، كانت فتنة المدينة في ذلك المساء، عندما شاهدها جدّها فغر فاه، وعندما أخبروه أنها حفيدته اربدّ وجهه هههه.

كنتُ أضحك، وأنا أشعر بالنذالة لاستغلاله، أخيرا قررتُ أن أكون صريحاً مع هذا القروي الطيب: اسمع يا صديقي، يجب ألّا أكون رجلاً لئيماً، لقد كذبتُ عليك!

لا أدري أكان ذلك غيرة، لحمله عن التوقّف عن هذا الحديث، أم كان تصرفاً أصيلاً بدافع الصدق.

- كذبتَ علي!

- أجل، فيما يتعلّق بالرسالة، مينا لا تحمل لي رسالة، لقد جئتُ من السعودية رفقة مينا لأتزوّجها من جدّها، وأنا الآن في حالة سيئة نتيجة لهذه الظروف الجديدة!

- لا عليك، هوّن عليك.

- لقد قلت ذلك كي أكون واضحاً فقط، لك الحق في عدم إكمال الرحلة إن أردت.

أشاح بوجهه، ووضع براده على الجمر مرة أخرى، وتغيّرتْ نبرة صوته بشكل جاد، ثم قال:

- اسمع، أنت رجل صريح، وأنا أحبّ أن أكون كذلك، هههه طبعاً حين أقابل أمثالك فقط، اسمع.. اسمع، أنا أعرفك!

- تعرفني؟!

- أجل أنت ولد مجبور!

قال ذلك الاسم، فتحسستُ نفسي، لعلّني أحمل فوق رأسي قرناً يميزني، أو أنّ هنالك ذيلاً يتدلى من مؤخرتي، ماذا هناك كي يعرفني هذا الرجل وبهذا الاسم تحديداً الذي لا تعرفه مينا!

- هل تريد الحقيقة.. أم ستغضب؟

- أجل.. أجل، أريد الحقيقة.

- حسناً، لن تغضب؟ ها، أولاً أنا لستُ ابن عمّ مينا، رغم أنني في النهاية محسوب على عائلتها بشكل من الأشكال هههه أنا امعلّم (حداد) من القبيلة نفسها هههه هل ترى هذا غريباً؟

- كلا، كلا، أكمل.

- نعم، هههه أنا أراه غريباً رغم اعتيادي عليه هههه

بدتْ روح الدعابة في حديث صديقي مزعجة في ذلك الوقت، أكملَ:

- لكي أكون أنا أيضاً صريحاً معك فأنا أعشق مينا مثلك تماماً هههه ها أنا أتجشّم الصعاب لرؤيتها فقط، منذ أن وطئت قدمها كيفه كنتُ صديقها المقرّب، وكانت تسرّ إلي بكل أمورها، أحببتها، لجمالها وروعة حديثها ورقيّها؛ لكن ولسوء الحظ رجل مثلي لا يحقّ له أن يطمح في أكثر من رؤية امرأة كمينا!

أووه، أنا في فخ آخر، أنا بصحبة عاشق مسكين، أصبحتْ شهامته الآن مبرّرة، أكملَ: أعلم أن هذا لم يغضبك، لكن بقية القصة قد تثير غضبك!

- كلا، لا عليك، أكمل رجاء.

حملَ البراد القاذف لحمم الشاي الأخضر، وضعه على الأرض وألقمه بقطعة سكر، تأمّلته لأول مرة، ظهرت عليه علامات قسوة الحياة، كان فتى أسمر نحيل الجسم، تكاد بطنه تلتصق بظهره ككلب سلوقي، أما جلسته الرعوية على الأرض فكانت بسيطة وتلقائية، أثار شفقتي حين تحدّث: عليك أن تفهم أشياء أخرى حصلت بعد قدوم مينا، عند قدومها قسّى جدّها عليها كثيراً، احتجزها في البيت، ونالها الكثير من التأنيب من قبل أعمامها وقريباتها اللواتي كنّ يتطيّرن من قدومها، حسداً، وتمسكاً بعادات القبيلة المحافظة، كنتُ وأخواتي منفذها الوحيد على العالم، وحين أراد جدّها أن يظهر بعض اللين استدعى أخواتي لتزيينها بالحنّاء، بعد مشورة معي قرّرتْ أن تبوح لجدّها العنيد بما تريد، أرسلتني بتلك القصة المؤثرة إلى جدّها، وقد تألّمتُ لبكائها وهي تسرد حياتها البائسة مع أمّها.

تذكّرتُ مينا في شقّتها في حي الزاهر مخمورة تبوح إلي بسرها، قطعاً سيكون بوحها لهذا القروي أمراً شديد التأثير، أكمل وقد مسح القمر وجهينا بضوء كئيب:

- قلتُ لجدّها إن آمنة أرسلتني إليه، وهو يدعوها آمنة وليس مينا!، وشرحتُ له أنّها هربتْ من أمّها لأنّها كانت ترغمها على كل ذلك، وأنّها جاءت هنا لأنّ شاباً من السعودية خطبها، واشترطت عليه أن يكون زواجها عند أهلها كأي فتاة محترمة! لانَ جدّها كثيراً لهذه القصّة، ورأيت الرقّة تتسلّل إلى عينيه، والفرح ينزّ من شفتيه الهرمتين، قال لي: اسألها عن الشاب واسمه واسم عائلته وقبيلته وموعد قدومه، جئني بكلّ التفاصيل، وعندما عدتُ أخبرته باسمك عبد الله ولد محمّد من قرية الحضرة، غضب الشيخ لأن هذه المعلومات قليلة برأيه، فزادت أن والدك شيخ وعالم دين كبير في السعودية، وأن قريبك وزير في موريتانيا، سُرّ الجد بما سمع، وقال: أخبرها أنّني لا أريد لها إلا العصمة والعفّة وما ينفع، سأسأل عن الشاب وأهله وإن جاء فمرحباً به ليس لدينا أي اعتراض.

دقّ قلبي لأنّني أصبحتُ معقداً من عائلتي في هذه الأرجاء، وكان حدسي سليماً جداً، فقد

ارتبك صديقي وقال:

- بعد تلك الجلسة مع الجد تغيّرت الأحوال، وسمح لمينا بالتنقّل قليلاً في المدينة رفقة قريباتها، لكن الأمر ساء فجأة؛ حقيقة لا أعلم كيف أخبرك، لكن علي أن أقول هذا مهما كان جارحاً!

- لا عليك أكمل، أنا مستعدّ لسماعك. كنت أقول له ذلك بحسرة، فمعدتي أصبحت تضغط علي فجأة.

- حسناً، اتصل الجدّ بأحد أقربائه من أهل الشيخ سعدنا في قرية الحضرة، وسأله عن شاب من أهل القرية قادم من السعودية، فأخبره أنه بالفعل يسمى عبد الله ولد مجبور!... طبعاً الجدّ على علاقة ما بتلك العائلة الشهيرة، أعني أهل الشيخ سعدنا، وتربطه بهم قرابة، وعندما سمع اسم جدك مجبور عرف كل شيء.

- ماذا!

- نعم، يعتبر الجد نوعاً ما رجلاً من أهل الشيخ سعدنا، والشيخ وسيلتنا القائم بأمر الزاوية ابن خالته، وهو من أخبره عنك أمورا غيرتْ كل شيء.

سرحتُ قليلاً متذكّراً ما قاله وسيلتنا بشأن الخداع والغش وادّعاء النسب لآل البيت! شعرتُ بمرار أسفل حلقي، فأكمل الرجل:

- كنّا نجلسُ جانبه حين ثارت ثائرته! قال: الفاجرة... ابنة الفاجرة تأتيني (بأزناكي) من حيّة أهل شيخنا ليتزوّجها، تخدعني تلك الفاجرة، والله لأسومنّها سوء العذاب.

لم أستطع أن أعلّق، فقد كانت تلك أول مرّة أوصف فيها ب-«آزناكي»! كان عليّ أن استمع فقط، في هذه اللحظة ذكّرني صديقي أنّه «امعلّم» كي يشعرني بالاعتياد، يريد أن يقول نحن في الهمّ سواء، لكنّ ذلك كان يسيراً عليه لأنّ الأيام أقنعته أنه كذلك، بينما كنت أشعر بصعوبة بالغة في تقبله، بل استحالة، فأنا عبد الله ولد محمد لغظف ابن الشيخ والعالم، أنا الشاب المتنوّر، أنا الذي أعرف تماماً ما أحمله من احترام ونبل، أعرف كم ضحّيت به من مستقبل في الجامعة كي أكون متناسقاً وصادقاً مع نفسي، احترمتُ عقلي حين رفضتُ كل أشكال المذهبية، واحترمت نفسي حين قدّرتُ كل أشكال العدالة، لا أسرق، لا أكذب، لا أظلم؛ بعد كلّ هذا أصبح «ازناكي»! باختصار! إنّه لأمر مشين أن أشرح لنفسي مدى نبلي، أحرى أن أشرح للآخرين، أن أضطر إلى أن ألمّع نفسي أمام نفسي، أحرى بالآخرين.

نهضتُ دون وعي، فأمسك الرجل الطيب بيدي قائلاً: عبد الله هدئ من روعك، هذه تفاهات البيظان، هم لا يحترمون إلا من يطأ أعناقهم، ألا ترى أنّني مثلك في البلاء، هذا لم يمنعني من احترام نفسي، لا حاجة لنا بالبيظان.. ثم إن كلامهم تافه فلا أحد يستطيع الحكم على أصل أحد، كلّنا لآدم وآدم من تراب.

تأمّلتُ الغباء والدونية في حديثه، جلستُ أمور غضباً، ناولني كأس شاي أخضر، فأشعلتُ سيجارة تبيّنتُ أنني أشعلتُ عقبها، قلت له: أتعرفُ من أنا فعلاً؟؛ طفقتُ في حديث أرعن عن أبي وعمي وعن نفسي، كان حديثاً تافهاً في لحظة ارتباك، فأنا في تلك اللحظة في أكثر أطوار الهزيمة انحطاطاً إذْ برّرت وجودي!

ها أنا الآن على وهدة خريفية، يحيط بنا فدفد واسع، وأنداء العشب المبلّل تهيم فوق رأسي، إنه المكان الأجمل الذي جلستُ به يوماً، لكنّني أواجه مصيراً مشؤوماً، أفيقُ على صدمة في مكان رائع! ما كنتُ أتوقّع شيئاً كهذا حين عزمتُ على الرحيل من مكان مولدي، أشعر الآن أن متاعبي الروحية والعقلية تتداعى أمام سطوة مجتمع من البداة، لقد هزّت ثقتي بنفسي، وصديقي وأخي في البلاء الكبير لا يبالي بما هو عليه، تماماً كما وصف بدر شاكر السياب صديقه:

«حميد أخي في البلاء الكبير، فقد كان مثلي كسيحاً، يدب بكرسيه مستريحاً.

تساءلت عنه فقالوا يسير!

على قدميه فقد عاد روحاً

لقد مات

يا ويلنا للمصير».

إنّ الموت في تلك اللحظة حلٌّ وارد، ومخرج من هذا النبذ الاجتماعي، تخيّلت كل ما كنت أقرؤه عن طبقات المنبوذين في الحضارات الشرقية، وما كنتُ أسمعه في المدينة بين أبناء الشناقطة عن آزناكه والطبقات المنبوذة الأخرى.

إنّها مفارقة بغيضة، أن أغدو أنا محمد ولد عبد الله أو عبد الله ولد محمد -ارتبكتُ في اسمي حتى- ابن العالم والشاب المثقف، أن أغدو من «حيّة» أهل فلان، وتغدو مينا تلك العاهرة ابنة العاهرة فتاة محترمة! لقد بلغتُ مرحلة الغليان وانخرطتُ في الخطأ.. شعرتُ أنني أشتطّ كثيراً، فتنبّهت لحديث صديقي الذي كثّف لياقته ولا مبالاته، فأرغمني على السماع:

- ثارتْ ثائرة الجَد جامد القلب، واعتدى على مينا بالضرب حين تجرّأتْ على مخاطبته بشكل مباشر، تناوب أبناؤه على ضربها، وتمّ سجنها تحت رقابة بناته وحفيداته، بعد يوم آخر أرسل الجدّ إلى قريب له يسكن في البرّية مع حيواناته ورعاته، إنّه أحد أقسى الرجال الذين عرفتهم في حياتي، وأكثرهم صلافة، أنفق كلّ عمره في البادية مع حيواناته؛ عندما جاء زوّجه الجد مينا رغماً عنها، طبعاً لم يخبره بالقصّة الكاملة، وليست لديه أي نباهة كي يعرف أسباب اختياره، لكنّ الجدّ أوصاه برقابة مينا والحرص على إبقائها في البادية كي لا تهرب، بكتْ مينا كثيراً، غرقتْ في التعاسة، وقبل رحيلها أو اختطافها، فقد كان شبيهاً بالاختطاف، استدعتني خلسة وطلبت مني أن أنتظر قدومك، حقيقة كنتُ طوال الأيام الماضية في انتظارك، لهذا أوصيتك بعدم إخبار أحد بقصتك، رتّبت كلّ شيء، حتى الجمل

الذي يقلّنا الآن، وعليك أن تعرف بقية القصة!

- هل للقصة بقية أخرى؟

- أجل، مينا تريد منك أن تنقذها، تريدُ الهروب معك، وقد رتّبتُ لكما طريق الهروب!

- الهروب!

- أجل، ألا تحبّها؟ لو طلبتْ مني مينا أن أهرب معها لَما ترددتُ، إنّها تستحق، ستذهبان إلى نواكشوط أو نواذيبو، وهناك ستخلع زوجها حسبما قالت وتتزوّجان!

- ماذا، تخلع..؟

- أجل، لقد زوّجها جدّها بالجبر، وهذا باطل، فهي ثيّب أمرها بيدها، اسمع، لا تيأس، أنت رجل محظوظ، حين يحلّ الليل غداً مساء، ونحن ضيوف لدى زوجها، ستتسلّل مينا من خيمتها وتركب معك على هذا الجمل وتنطلقان سأرشدكما إلى طريق يوصل إلى مدينة (كرو)، ومن هناك تستقلان سيارة إلى نواكشوط، سيكون الأمر سريعاً، علينا فقط أن نكون حذرين، فزوجها رجل صلب يقتني البندقيات والأسلحة، لكنّه مغفّل.

- هل أنت جاد؟ أخطف امرأة من زوجها؟

- أجل، إن كنت تحبّها، زواجهما باطل كما قلتُ لك، لقد سألتُ فقيهاً فقال إنه باطل، حرصتُ على إبلاغك بهذا في هذا المكان ونحن على بعد ساعة منها، إن كنتُ لا تريد القيام بهذه المهمّة فلا تفعل، سأخبرها أنك لا تريد إنقاذها، ماذا بك، أنت من ستحظى بمينا وتخاف؟، بينما أنا من سيقع علي العبء الثقيل لأنّني ساعدتكما... ولا أخاف!

حرّضني الرجل بكلامه، فقرّرتُ القيام بتلك الخطوة الجريئة، وكم هي كثيرة تلك الخطوات الجريئة التي قمتُ بها دون اقتناع، حميّة، أو ابتغاء للرضى فقط!

تأخّرنا في البوح حتى تثاءب الليل، ناءت جوانبه وفاضت هماً، وملّ النسيم الخريفي وجودنا، بعدما جفّ العشب، أصبح أكثر سخونة، تمددنا قريباً من جملنا الرابض، واستجديتُ النّوم، توسّلتُ إليه، لكنّ صديقي دخل في مرحلة الموت الأصغر بسرعة، هزّ الوهدة شخيراً بعد خلوده إلى الفراش بدقيقة واحدة!

استيقظت عندما لسعتني الشمس، رفعتُ رأسي بحثاً عن صديقي، فألفيته عائداً من بعيد، يبدو أنّه استيقظ منذ ساعات، أوقد النار مجدداً، وأخرج كيساً يحتوي على بسكويت وفول سوداني، وضع الوجبة وشرع في الحديث بحماس:

- سننطلق بعد الشاي، حين نصل إليهم عليك أن تنتحل اسماً، سأخبر الرجل أنّنا مسافران إلى تكانت، قلتُ لك إنّه معدوم النباهة، قد لا يعرفني إطلاقاً، سأحرص على وضع لثامي

على الدوام.

أمضينا وقتاً حاولتُ فيه أن أمسحَ كآبة الليلة الماضية، ضوء النهار أشعرني بالعري، رغم قناعتي أن ما عرفه الرجل عني ليس حقيقتي، إلا أنّني كنت أشعر بالعري أمامه.

انطلقنا عند الثامنة صباحاً، وبعد ساعة كما قال بالضبط كنّا نرى الخيام على المدى، أوقف الجمل، مسّ هامته بعصا نحيلة، وقال مخاطباً الجمل بصوت أجش: وَتْشْ.. وتش؛ برك الجمل بكسل قرب جدول ماء.

يبدو أنّها استراحة طقوسية للتأنّق قبل طَرْق الخيام، أخرج الرجل القروي عدته، وقال: هل تودّ الحلاقة؟ أجبت بالنفي، فأخرج صابونة قذرة وناولني إياها، رفضتُ استعمالها أيضاً، فاغتسل في ماء الجدول الراكد، وعندما عاد مسح دراعته ونفّضها بيديه، وأخرج قنينة عيّنة من عطر لابيدوس تحتوي على 10 مل من ذلك العطر، ناولني إياها فمسحت منها أجزاء من المليلتر، كان حريصاً على تأنّقي، وكان يؤدّي مهمّته بتبتّل، رغم عشقه الذي لا يخفى لمينا فقد كان صديقاً حقيقاً لها.

عندما وصلنا إلى الحي البدوي، طالعتُه بحثاً عن مينا، فلم أرَ امرأة تخطر في الأرجاء، كان حياً تراثياً بما للكلمة من معنى، ثلاث خيام متجاورة، تفتح على مراح كبير للماشية، أغنام و بقر تملأ الأفق، ومستنقع مائي موسمي يسوّر حدود المخيم حتى ليبدو الحيّ كشبه جزيرة داخل المستنقع الكبير.

استقبلنا رجل ممتلئ الجسم، شديد السمرة، ظهر أنّه في نهاية عقده الخامس، ومن خلفه رجل أسود يلبس دراعة زنجية، قال بشهامة: مرحْباً وسهلاً.. انزلوا.. انزلوا!

أبركنا الجمل خلف الخيام، وصافحنا الرجل بودّ وضيافة غامرة، واشتغل الرّجل الأسود في حطّ أمتعتنا والاعتناء بالجمل.

تقدّمَنا الرجل وهو يقودنا إلى خيمته الكبيرة، كانت مرتّبة وقليلة الأثاث، جلسنا على فراش وثير بالكاد يكفي لشخصين، بينما جلس أمامنا على الأرض يسألني عن الصحة والأحوال كأنّنا من معارفه! كانت ضيافة كريمة بحق.

جاء أحد الفتيان السود يحملُ قدحين من اللبن المحلى، ووضع آخر عدة الشاي الأخضر، ووقف الرجل وقال: سأذهبُ إلى (التامورت) فهناك بعض الأعمال، استريحا فأنتما لدى أهلكما، سأعود بسرعة.

تبادلتُ وصديقي النظرات بغرابة، أحسستُ بالنذالة فنحن نستغلّ ضيافة هذا الرجل الكريم وننوي الغدر به! طالعت البندقيات المعلقة في جانب الخيمة، بدتْ صدئة ولكنّها تثير الرّهبة على كل حال.

في كل مكان ينشط العمال والخدم، فالرّجل يعيش في مملكة صغيرة.

تمتّعنا بالضيافة تلك الضّحوة، وبعد ساعة عاد الرّجل مع رجل آخر في سنه، فمدّ الخدم خوان الأكل، يبدو أن الرجل أكرمنا بذبيحة من أغنامه السمينة، كلّ تلك الأشياء أثارتْ في نفسي مزيداً من التأنيب، وقليلاً من الحسد!

لم يسألنا البتة عن جهة قدومنا ولا وجهتنا، لم يسألنا من أنتما، لكنّ صديقي تبرّع بشرح وجهتنا قائلاً: نحن ذاهبان إلى تكانت، يبدو أنّنا سنمضي اليوم والليلة عندكم فقد أرهقنا السفر، ونرحل غداً! ردّ الرجل بكرم: كلا، لا داعي للاستعجال، استريحا لدينا أياماً، أنتما بين أهلكم.

زاد منسوب التأنيب داخل بحر نفسي الحامض، كنتُ أطالع وجه صديقي فألفاه مقنعاً، لا يبدو عليه أثر لأي شيء، تذكّرتُ لقائي به أول مرّة، وكيف كتم عنّي كلّ شيء، حتى اعتقدتُ أنّه أبله، واستدرجني إلى هذه الرحلة، إنه رجل يتمتّع بطبقات سميكة داخل نفسه، فلا يطفو على وجهه إلا ما يريد.

أمضينا يوماً هانئاً، وفي الظهيرة، من بعيد مرّتْ أمام الخيمة مينا تخطر في ارتباك، لم أكن لأخطئها، كانت ترافقها امرأة سوداء كظلّها، تحمل في يدها إبريق ماء وتتعقّبها، عندما لمحتني، وهي على بعد خمسين متراً خلف الرجال الجالسين أمامنا، أشاحت عن وجهها وابتسمت!

دقّ قلبي توتراً، لم أكن أعلم ما علي فعله في ذلك الوقت، ومن تحت كمّ الدراعة همزني صديقي همزة ماكرة بإصبعه.

مساء، وفي ظل الخيمة الكبيرة، تربّعنا على لعبة تقليدية تسمى «ظامت» إنّها شطرنج البدو الممتعة، بعد جولة ضد صديقي صرخ الرجل بحماس: آه لن تذهب من هنا خلال شهر قادم، لم يهزمني أحد في «ظامت» منذ سنوات!

أظهر صديقي مهارة رائعة في اللعبة التي بدت واضحة، وقليلة الخيارات، قياساً إلى الشطرنج!

عندما هبط الليل ازداد توتّري، بعد أن صلينا المغرب معاً ودّعنا الرجل، ذاهباً إلى خيمته، أخبرني صديقي أنّه تبادل الرسائل مع مينا!

كيف ذلك؟ سألته، فأجاب: عندما مرت أمامنا ظهراً رأيتها تضع شيئاً في نبتة «انتورجه» وبعد ساعة ذهبتُ إلى ذلك المكان ووجدتُ رسالتها هذه.

كانتْ ورقة صغيرة بخطّ رديء مكتوب فيها: 10

قال بحماس: ستكون جاهزة عند العاشرة ليلاً، سألته عن الساعة، فقال: بقيت ثلاث ساعات.

جاءنا أحد الخدم بالحليب الطازج، شربنا ودخّنا كثيراً، وراقبنا الحي الذي استسلم بعد ساعة للنّوم.

بعد تناول العشاء السائل ذهب صديقي متسلّلاً، فكّ قيد جمله الرابض خلف الخيام، وقاده بسلاسة إلى الجدول الذي توقّفنا عنده صباحاً وقيّده هناك.

عاد لاهثاً، وتمدّد قليلاً، فشخر، دخل في حالة نوم كاملة، فأيقظته، استاء كثيرا وتقلّب إلى جهة أخرى، بعد دقائق نشط من نومه، وهبّ واقفاً، عند باب الخيمة وقف يدخّن متأمّلاً الحي النّائم.

لم نكن نسمع إلا صوت الحيوانات الوسنى، ونهيق الحمير الهائجة من بعيد.

بعد قليل تحرّك نحوي هامساً: لقد جاءت.. لقد جاءت!

وقفتُ فأمسك بيدي خارجا، كانت الظلمة حالكة بفعل تلبّد السماء بالغيوم، رأيت شبحها متلفعاً بسواد الليل، حين أصبحنا خلف الحي اتّكأت على صدري ونحن نحثّ السير وبدأت تجهش، كان صديقنا يحثنا على السرعة في السير، شعرت بطول المسافة، وحين رأيت شبح الجمل الراتع في الأشجار مقيّداً أحسستُ بالراحة، صعّدتُ مينا إلى الراحلة ووطئتُ عقب الجمل وركبت خلفها، شهق صديقنا ضاحكاً وقال: اركب أمامها هههههه.

انطلقنا والصديق المغامر ممسك بخطام الجمل، يحثه على السير، وهو يهرول معه.

بعد ساعات من السير أشفقتُ عليه، فقرّرتُ مشاركته السير، أوقف الجمل، فقزت من فوقه، حين ارتطمت رجلي بالأرض شعرت بماس كهربائي خفيف، أكملنا السير طول الليل.

في ظلمة الصباح وصلنا مدينة كرو، وجدنا سيارة قادمة من كيفه متجهة إلى نواكشوط، ودّعنا صديقنا الذي قال إنّه سيسلّم الجمل ويختفي عن الأنظار لمدّة، انطلقت بنا السيارة ونحن نشعر بالزهو، فقد قمنا بعملية اختطاف لا يجرّمها القانون، ولا يحرّمها الشرع كما قال صديقنا الصدوق!

## (14)
## وصولٌ مؤثّل!

وفتشت عنك السماء البعيدة

قد كنت أستأجر الحلم

في آخر الأرض أرجعني البحر

كل البلاد مرايا

وكل المرايا حجرْ

محمود درويش

كان طريق عودتنا سريعاً على عكس رحلة ذهابي، لكأنّما السائق يشعر برغبتنا في الابتعاد، وطوال الرحلة كانت مينا تنشج، وتهمس في أذني بعذاباتها.

عند الثانية ظهراً دخلنا نواكشوط، واستأجرنا سيارة أجرة، شقّت بنا الشوارع التي ظهر جمالها للتو، لم تكن تلك هي نواكشوط التي رأيتها عند قدومي، لكنّني قادم من مجاهل الشرق!

بدت الشوارع أكثر عرضاً، والدور التي تسمق الآن، تتغنى بألوانها الجميلة، تنشد أغنية انحسار الخريف؛ كانت جاثية في الوحل قبل ذهابي، إنّها تمثل شرحاً لطيفاً وحاشية على قصيدة موريتانية تقليدية تقول:

كالحمد الّ منزلْ لعلاب = دهرو فات اوكفات اسحاب = لخريف، وطافي عاد اشهاب = لخريف...

هل يمكن شرح تلك القصيدة أو ترجمتها لأي لغة أكثر من هذا البهاء الذي أشاهده الآن؟ هل أنا قادم من الجحيم لأرى الفردوس في نواكشوط التي لا يمكن أن يظن بها أحد خيراً فيما يتعلّق بالحضارة!

لا يهم، تلك أفكار هدهدت رأسي المتعب من مطاردة البدو، وتاريخ البدو، ومفاهيمهم

وأفكارهم القطعية التي لا تمنح الفرصة لأحد.

وذلك ما دار في ذهني وأنا أشق الأحياء الراقية من مدينة نواكشوط؛ أخيراً وصلنا فندقاً بهياً، استأجرنا غرفة كبيرة بحجم تعاستنا، ولم نجد الوقت للحديث فقد كنّا مرهقين، وعندما استيقظت آخر الليل، وجدت مينا ملتفّة بمناشف، طازجة بعد الاستحمام، فتحتْ النافذة فهبّت أنداء أطلسية منعشة.

كان حديثها المرّ عن عذاباتها يجلدني، فهي تجشّمتْ كلّ ذلك بسببي؛ وقد شعرتُ أن الفرصة سانحة لقوْل كلّ ما كنتُ أفكّر به طوال الطريق:

- اسمعي يا مينا لن أكذب عليك، لقد علمتُ بكلّ شيء، لم أذهب إليك وأخلّصك من تلك البادية لأتزوّجك، فقد كنتُ وما زلتُ مديناً لك بالكثير، فعلتُ ذلك لأنّك تستحقين ما هو أفضل من ذلك، الآن سأكون واضحاً، أنا رجل احترم نفسي كثيراً، لم تعد لدي رغبة في إكمال الأمر، لقد كان سبب الرغبة هو إصرارك، أمّا الآن فأنا أحتاج إلى الحرية، أحتاج إلى الذهاب بعيداً كي أنسى الذي مرّ بي من هوان.

- ماذا؟ لن نتزوّج!

- أجل، لا أستطيع أن أختطفك وأتزوّجك رغم إرادة أهلك، لن أعرّض نفسي للإهانة مرّة أخرى، أنت الآن حرّة، وتمتلكين مستقبلك، أنت في وطنك، أما أنا فربّما أهاجر إلى بلد آخر.

دام الحديث على هذا النحو حتى الصباح، ومينا في حالة هستيرية، مرّة تحتدّ وتصفني بالجبان والخائن، ومرّة أخرى تضعف فتتحدّث عن خذلاني لها وعشقها لي، غير أن الأمر لم يكن في مقدوره أن يتطوّر، لقد كانت قصة منتهية التأثير، لم أكن أشعر بالحماس أصلاً للزواج بها، وها أنا الآن أشعر بالهوان لمجرّد التفكير في إتمام الأمر.

اتفقنا في وهن الليل أن نؤجّل الانفصال وكل أشكال الخصومة والأسى لأيام، نعلن هدنة... فنحن قد نكون في حاجة ماسة إلى الراحة فقط.

ربما نحن بالفعل محتاجان إلى الراحة، إلى الهدوء لإعادة رسم المأساة، وإعادة تمثيل الواقع الذي وضع بيننا جداراً سميكاً.

ما حدث كان سريعاً، وقاسياً، وفجّاً، لذلك شعرتُ في صميم نفسي أن التفكير فيه بحدة لن يقود إلى نتيجة، من الجيّد أن أفكّر بما تقول مينا وأمنح نفسي فرصة للنسيان.

في اليوم التالي خرجنا للتنزّه، اتصلت مينا بصديقة لها تمتلك سيارة، جاءت في غضون دقائق، بالغت في لومنا لاستئجار فندق، لم نفلح في ثنيها عن حزم أمتعتنا، وبعد دقائق كنا نتجه جميعاً إلى منزلها.

أصبحنا ضيوفاً مرة أخرى، قد لا يمنحنا هذا الوقت الكافي للحديث، لكني تبيّنت عمق العلاقات التي نسجتها مينا في المجتمع الموريتاني من خلال تواجدها في مكة.

أن تكون في مكة المكرمة فأنت شخص في نقطة التقاء كثير من الاهتمامات والهموم... أكثر من الحج! هذا ما كنت أجهله.

المرأة التي استضافتنا تمتلك منزلاً جميلاً، نظيفاً، يعجّ بالخدم، والصديقات والأصدقاء، إنها امرأة تحظى بمكانة مهمة ما.

كنت أتوقع أنها محترفة سابقة للمسيار في السعودية، لكن تبين غير ذلك، إنها سيدة أعمال ناجحة، تستورد من دبي والسعودية المواد الغذائية، والسجاد، والكثير من أشكال التجارة، لكنها لا تستغني بحال عن ما تقدمه أولئك النسوة في مكة المكرمة وجدة.

تبيّن جلياً أن هذه المهنة، في ذلك المكان، تتسرب عميقاً في اتجاهات كثيرة، ذلك جلي من خلال اهتمام التجار بمينا، الذين توافد بعضهم للسلام عليها، وأحضر بعض الصيارفة أيضاً مبالغ طائلة من الأوقية كانت قد حولتها مينا من السعودية، وجليّ بشكل أكبر من خلال الزيارة التي قام بها إلينا ضابط في الأمن السري، أكّد استعداده لتقديم أي دعم تحتاجه مينا، وحلّ أي مشكلة تواجهها في موريتانيا.

غمزت إلي، وعندما سألتها ونحن نتنزه على شاطئ البحر عنه، أجابت بكبرياء: ذلك الرجل ضابط في أمن الدولة، ولديه فضول كبير فيما يتعلق بجاليتنا هناك في السعودية... لا تستغرب يا عبد الله أن يكون هذا الضابط يزود الأمن في السعودية بمعلومات عن الجالية الموريتانية أو حتى عن المواطنين السعوديين من خلال الموريتانيين هنا! هههههه حين كانت تطمئنني بخصوص وضعنا، وأننا في مأمنٍ من أي مطاردة، كنت أشعر بالصغار.

لاحقاً، في ذلك المساء شعرت بالصغار أيضاً، لكن لأمر مختلف تماماً!

انطلقنا صحبة رفيقتها، دخلنا أحياء كالحة، مظلمة، لا شوارع ولا إنارة، لم يطل الأمر حتى انتهت البيوت المتهالكة، نفدت حمولة الحي من الإسمنت، وبدأ الخشب والزنك المهترئ في تشكيل البيوت، لقد قعدت النفقة بالحي، كما قعدت بقريش عن إكمال الكعبة... بالمال الحلال!

قالت صديقتها وهي تشاهد تفاقم الغرابة في عيني: إنها «الكزرة»... ألم تسمع بها؟

إنها بالفعل «الكزرة» جيتوهات الفقراء والمنبوذين، كيبوتزات المهمشين اجتماعياً، ومنفى الهاربين من جحيم الولايات الداخلية، كل أولئك لا ريب يشكلون ثلاثة أرباع الشعب!

لم تستطع صديقتها الاستمرار في الطريق، فقد كانت سيارتها اليابانية تعلن استياءها من الحي منذ دخلناه، وأخيراً تشابكت أكواخ الصفيح أمامنا حتى أصبحت كغابة مطيرة.

ترجّلنا أنا ومينا، فليس من الحزم أن تترك صديقتنا سيارتها وحيدة في هذا المحفل الزنكي، انطلقنا نشق الأكواخ، وعندما توقّفنا أمام كوخ صغير جداً، يضاء بشمعة تحتضر، لا أعرف كيف اهتدت إليه، سألت مينا صاحب الكوخ الذي يُعتبر بقالة شهيرة جاءتْ إليه كمنار من السعودية!: أين أهل الدامي؟

أعرف الاسم! لكنها لم تسألني... خرج الرجل من كوخه وأشار إلى ولد كان يتبعنا رفقة أطفال الحي، فانطلق الصغار يزفوننا كبشارة إلى أهل الدامي.

وأي بشارة كانت مينا ذلك المساء، قديسة في عالم الانتهازية والجشع، قابلت أم الفتاة «لمنيّه منت الدامي» التي زوّجتها مينا قبل أسابيع في أول عملية دلالة تقوم بها، فتحت مينا حقيبتها اليدوية الكبيرة وسلمت الأم مهر ابنتها نقداً!

كنت أرى حِزَم الآلاف الصقيلة من الأوقية تسد حجر المرأة العجوز، ودموعها تنسكب مدراراً فوق تلك الرزم الزرقاء.

حتى جوقة الأطفال التي تصاحبنا أصيبت بالارتباك لرؤية هذا القدر الهائل من البنكنوت، وشهلتْ أعين الصغار متربة الأهداب، تحكي صدمة الجيل المهمش، وتزاحموا على الكوخ الزنكي، تضاءل الضوء المنبعث من مصباح الكيروسين، وحدثت جلبة عظيمة في الحي: أهل الدامي أصبحوا أثرياء!

كانت مينا هناك تحبس دموع الفرحة في عينيها، وقشعريرة العظمة على امتداد عمودها الفقري، لكنها كانت ثابتة، مستقيمة النظرات، وهادئة جداً.

لم تكن أخرى في ذلك السلك المريض لتقوم بما قامت به مينا، من قال ذلك؟ ربما كنتُ مريضا بدوري، مرضاً أشد فتكاً، فأنا لا أتوقع إلا ما تجود علي به تربيتي ورؤيتي للحياة.

شعرت بالصَّغار الحق، وما يشعرني به بشكل أشد أنني كنت أعتبر مينا عاهرة حتى تلك اللحظة!

عدنا إلى منزل صديقتها، وقد بدت مينا منذ رحيلنا عن الفندق مستسلمة، أو غير مبالية حتى برحيلي، لقد اختطّت طريقها بوضوح، وفعلت كل ما يمكن أن يهبها الراحة، رأت جدها الذي راهنت كثيراً على رأفته وحبه، زارت أهلها الذين توقعت منهم الرحمة، وأخيراً؛ أدت أمانتها وسلمت أم (لمنية) مهرها، هل تنوي مينا أن تصبح راهبة؟ هل تعزم على الانتحار؟ من المؤكّد أنها تتغير على نحو أفضل، علي أن أدرك ذلك، إن مينا امرأة مرحّب بها في أي مكان، وإنْ لم أرحل قريباً سأكون عبئاً ثقيلاً تجرّه من دار صديقة إلى أخرى.

في ظلمة الصباح التالي حملتُ أمتعتي القليلة وتسلّلت بعيداً.

كان ذلك آخر عهدي بمينا!

وحين فارقتها، تداعت علي آثار تلك الصدمة الاجتماعية الأخيرة، كأن أيامنا الأخيرة كانت انحناءة في زمن أوجاعي أو حقنة مورفين زمنية، انتهى مفعولها بتسلّلي كلص.

هل بحثتْ عني؟ هل بكت؟ علي أن أسأل أوّلاً هل بحثتْ عني في مكة حينما رحلتُ في وضع مماثل؟!

خرجتُ من مدينة ألعاب مينا رجلاً بائساً، يحمل غياراً واحداً، ومبلغاً زهيداً من المال، وآلاماً عظيمة، لقد آلمتني إساءة الوطن المنتظر، أكثر مما آلمتني إساءة الوطن الذي عشت فيه.

عندما دخلت مدينة ألعاب مينا كنت رجلاً يحمل أزمة تدين وهوية وخانقة، قدّمت لي الكثير، آوتني، حاربت لأجلي، واجهت آلهة الخوف والسحر-أمها- لأجلي، حتى كدت أنسى أزمتي تلك؛ وعندما تسلّلتُ من تلك المدينة كنت رجلاً يحمل أزمة اجتماعية أطاحت بكل أزماته السابقة، كنت أيضاً كما دخلت لا أملك وجهة محدّدة.

لقد كنتُ أنانياً حين رحلتُ، تستحقّ مينا أكثر من هذا الرثاء البغيض الذي أسطره الآن، فهي قديسة من جهة ما، قديسة على نحو مثير للتعجّب.

ربّما لم يكن مقدراً لي أن أقع في حبها، لذلك رحلت، فلو كنت على ذلك النحو لوجدت أعذاراً للبقاء، فالحب هو الدافع الوحيد لتقبل كل أشكال الذل في هذه الحياة.

لكنّ روحي العنيدة، تلك التي تمردت على الأب والعم، والمذهب والدين، والوطن و القبيلة، تلك الروح هي التي تُلحد بي عن كل طريق.

طبعاً، لن أسأل نفسي عن حقيقة أشكال التمرد تلك، فأنا طُردتُ بالأحرى من منزل والدي، ونُفيتُ (مناطقياً) من مذهبي السلفي، ونُسَّقتُ خارج الوطن بحكم قوانينه المدنية.

لم يدر ببالي أي من هذه الأفكار في ذلك الصباح، فقد كنت مشتّت الذهن، مجروح الكبرياء، وكنت في تلك الأيام أبعد ما أكون عن التأمل.

لذلك تنقّلتُ في نواكشوط على غير هدى، وعندما أتعبني التجوال حاملاً صرتي كشاعر تروبادور نشّطت ذاكرتي عن موريتانيا، تفيأتُ مبنى كبيراً، وأشعلتُ سيجارة حمراء، كان ذلك أفضل جوٍّ أستطيع تأمينه لفكرة سوية، عندما أوشكت على الانطفاء، تذكّرتُ أن موريتانيا بلد «المحاظر» لمعتْ في ذهني كملجأ لا كمكان للتعلم، لكنني سألتُ نفسي: أين هي المحاظر يا ترى؟

خفتُ كثيراً ألّا تحتوي نواكشوط على محظرة، فالمناخ العام بعيد كل البعد عن التعلم وتمجيد الماضي، خفتُ أن تكون كل المحاظر في الأرياف البعيدة التي أهرب منها، وانخرطت في سؤال الناس عن محظرة في نواكشوط.

وجدتُ محظرة فقيرة، وبعد شرح قصير مع مديرها عن جهة قدومي تهلّلت أسارير وجهه،

وسألني كثيراً عن مكة والمدينة، والسعودية التي تمنح طلاب العلم منحاً للدراسة في الحرمين، تأكّدت أن المدير ينوي تعييني مستشارا لشؤون السعودية في تلك المحظرة البائسة، سألته عن فرصي في الالتحاق بمحظرته، فأكّد أنها مرغوبة نظرا لصرامتها وتميّز أساتذتها، وأن هنالك قائمة انتظار، لكنه يتفهّم هجرتي العكسية لطلب العلم من الحجاز إلى بلاد شنقيط، وتقديراً لهذه الملحمة العظيمة منحني الموافقة، أصبحت طالب محظرة، سلمني مرتبة للنوم، وشرح لي قوانينهم العسكرية، وبعد مغادرته بدأ الفضول ينهش الطلاب، أدركت أنني سأتحوّل إلى (حكواتي)، فتمدّدت على المرتبة ودخلت في حالة من النوم العميق.

كانت محظرة تعيسة لكنّها توفر مكاناً للنوم ووجبات سيئة، وقد كان وقتاً عصيباً بحق.

آخر ما كنتُ أودّ القيام به هو العودة إلى السعودية، لذلك انخرطت في الحياة على نحو خاطئ، كان همي الأول البحث في تاريخ عائلتي، فاتحتُ الكثيرين ممّنْ وثقتُ بهم في المحظرة، وسافرتُ إلى بادية خارج نواكشوط ذَكر لي أحدهم أنّ بها رجلاً عالماً بالأنساب!

كنتُ في حالة يرثى لها، تحرّكني تلك العقدة الطارئة، لقد حيّد ذلك المجتمع التافه في البادية عقلي، وأصابني بحالة من فقدان الوزن.

عندما زرت النسابة وأسمعته القصة قال بصراحة حازمة: اسمع يا بني، ازناكة ليست نسباً، في غابر الأيام كانت الناس تضعف نتيجة للحرب أو الجدب، فتهاجر وتلتحق بالقبائل الأخرى، وفي تلك الحالة ليس من ملجأ إلا «الركاب» أو «الكتاب»[16] إذا التحقوا بالركاب وأجادوا الركوب أصبحوا من أهله لا يعيرون بماضيهم، يحملون البندقيات، وينعمون أو يشقون معه، ولهذا بعض القبائل المحارية تقودها عوائل ليست منها نسباً؛ أما إذا التحقوا بالكتاب فسينعمون بالسلام، ويمنحون الصدقات، لكن الكتاب لا ينسى، فهو يتذكر الحالة التي كانوا عليها أوان قدومهم، ويثبتها جيلاً بعد جيل! لهذا عليك بالبحث عن نسبك فـ«أزناكه» ليست نسباً.

كان كلاماً مقنعاً، لا بد أننا ننتمي لقبيلة ما، بعيداً عن تلك القصة الخرافية التي صاغها أهل الشيخ سعدنا.

أخبرني آخرون أن جدي من مشيخة معروفة في قبيلة محاربة، وآخرون جزموا أنّه شريف؛ وبعد مدة أصبحتُ محشوا بالتفاهات.

وأخيراً؛ بعد أشهر طويلة واتتني الفرصة كي أشفى من هذا الغباء، وجدتُ عملاً في منطقة بعيدة على ضفاف الأطلسي، كعامل اتصالات لمراقبة الزوارق الوطنية الصغيرة التي تعمل في الصيد.

حتى هذه اللحظة أدين للعمل بكل شيء، تماماً كما أدين للبحر به.

البحر الذي قال عنه أحدهم إنه بلا ذاكرة، والعمل الذي قال عنه أحدهم أيضاً إنه ينسي العامل نفسه.

لو أنفقتُ عمري في ذلك البحث عن تفاهة نسب العائلة لَما وصلتُ لشيء، لأن هذه الصحراء اللامبالية لا تحفظ إلا عويل الرياح!

ما الذي سأجنيه من نسب ملفّق، أو آخر مختلق؟ ما الذي سأجنيه بعد أن وجدت أرضي التي كنت بحاجة إليها، لا شكّ أن الوطن ليس كلّه وطناً، بل قد لا يكون أي جزءٍ منه وطناً، قد يكون وطن المرء في مكان لا يتخيّله، وقد لا يهتدي إليه قط.

حين توجّهتُ إلى مكان عملي الجديد مع سيارات النّقل التي تقلّ الناس إلى مدينة نواذيبو، كنت أعاني من آثار تلك الصدمة كراكب تعيس في سيارة نقل عام، تكوّرتُ على همومي، عازماً على ممارسة هذا العمل الجديد لأشهر فقط، كي أتمكّن من جمع مبلغ صغير يقلّني إلى بلد آخر.

تحرّكت السيارة قبيل الغروب قليلاً، وقد تجمّع الركاب حول إغراء ما يسمى «وتت ربّل» أو السيارة الأخيرة التي تنطلق عند السادسة، إنّها مسألة حظ بالنسبة للراكب والسائق على حدّ السواء، فقد تكون مكتظة فيسعد السائق، أو شبه فارغة فيسعد المسافرون، لكنّها ملزمة حسب قانون اتحادية النقل أن تنطلق عند السادسة حسب الطابور.

حسناً، كانت تلك أمسية حظ السائق، فقد ازدحم 12 راكباً في سيارته رباعية الدفع وانطلقنا، جُبنا الطريق المعبّد شمال نواكشوط، وعند المغيب كنّا في براح واسع من الأرض، مليء بالمحار والغبار.

عند التاسعة مساء ظهرت الكثبان على ضوء الكشافات، أصبح على السائق أن ينتحي غرباً ليسلك الطريق البحري على ضفاف الأطلسي، وصلنا قرية على الشاطئ تماماً تسمى «تيويليت» كانت منفذاً إلى البحر، وهناك توقّفنا انتظاراً لانحسار المدّ كي نعبر.

تناثر الركّاب على الكثبان، بعضهم غطّ في نوم عميق يهدهده النسيم الأطلسي، بينما قرّرتُ تناول وجبة في مطعم صغير على الشاطئ تماماً.

لم يكن مطعماً بمعنى الكلمة، فهو غرفة واحدة كبيرة، أمامها كوخ صغير، وثمّة امرأة ممتلئة توزّع الأطعمة، امرأة سوداء بعينين واسعتين، زوجها مستغرق في سماع الأخبار من مذياعه وإعداد الشاي، بينما بناتها يقدّمن الخدمة للرواد.

ما كنت لأعرف أنهنّ بناتها، فهنّ ملونات كفسيفساء، واحدة منهنّ سوداء كأمها، والثانية حنطية اللون، أمّا الثالثة وهي أكبرهن فهي شقراء!

ناولتني تلك الفتاة صحناً يحتوي سمكاً مقدّداً، وابتسمتْ، لمحتُ تلك اللآلئ ولم تغادر ذهني طوال وقت تناول الوجبة، كنتُ معلّق النظر صوبها.

لأول مرة أشعر به، يدقّ عالياً، في غير خوف ولا شهوة، ولأول مرة منذ قدومي إلى هذه البلاد أرى أمراً يستحوذ على اهتمامي، انفقتُ ساعات المدّ السريعة أراقبها، بل تجرّأت واقتربت من

مجلسهن البسيط عند ظهر أمّهن، وبدأت مدّ الجسور الحريرية.

لا علم لي بالغزل، ولم يسبق أن رغبتُ في امرأة دون سبب وجيه، كانت لحظات من المطالعة والدّهشة فقط.

عند انحسار المدّ هبّ المسافرون، ودّعتُ تلك الفتاة الشقراء تقريباً بعيني، لم أستطع تأمل ما خلته شعراً أشقر، وعينين عسليتين، أو ما ظننته أرجواناً بحرياً في شفتيها، كنتُ خفيفاً كشعرة، وسطحياً كنسمة صباحية؛ لكنّني عزمتُ على العودة.

بعد مغادرة القرية بكيلومترات خمسة فقط صاح السائق: أنت... هل تريد نقطة الرقابة؟ هذه هي.

أشار إلى كوخ صغير في أعلى الكثيب على الشاطئ، توجّهتُ إليها شاعراً بالسعادة للقرب من تلك القرية الولود بالدهشة.

بعد أيام من مزاولة عملي أصبحتُ على علم بكل شيء، ما علي القيام به هو الإمساك بسماعة والرد عند تلقي أي إرسال على موجة الراديو سواء كان من سفينة أو زورق، أو حتى من جنّي، ومن خلال الموجة نفسها أبحث عن أقرب استجابة من البحرية.

كان بسيطاً، رغم عدم إجادتي للفرنسية، ولكنه يتطلب التزاما منذ ساعات الفجر الأولى حتى الخامسة مساء، حين يعود الصيادون.

شعر زميلي في العمل بانقطاعي عن العالم، فصار يتنقّل على وجهه تاركاً لي تلك المهمة؛ لم أمانع فقد كنت سعيداً بهذه العزلة.

حين عاد زميلي من جولته، بدّلتُ ملابسي واتّجهت إلى القرية.

من بعيد رأيت الأكواخ والغرف اليتيمة مترامية في أحضان الكثبان، توقّعت أن سكان القرية لا يتجاوزون العشرات، وحين اقتربت تبينتُ عمقها، فهي تمتدّ أسفل الكثبان شرقاً.

رأيتُها، كانت كما عهدتُها، إنّها فتاة سقطت من جيب جنّي في هذا اليباب، تربّعتُ في المطعم، ابتسمتْ وأسرّت إلى أخواتها بكلمات فضحكن، جاءت في خجل تقول:

- ألم تجئنا قبل ليال من نواكشوط؟

- أجل، وأنا أعمل قريباً من هنا في مركز الإرسال البحري.

- ما اسمك؟

- عبد الله، وأنت؟

- الرباط!

- الرباط! اسم جميل.

تبسّمتْ فظهرت تلك اللآلئ مجدّداً، يا الله لأيام مضت منحتني تلك البسمات الليلية راحة وانسجاماً، أنستني قلاقلي، وها هي الآن تتكرّر، من قال إن المعجزات لا تتكرّر.

طلبتُ منها أن تعدّ لي الشاي، فنحنُ في مطعم في نهاية الأمر، أحضرتْ العدة وجلست باهتمام، رمقتنا أمّها بنظرات هادئة وأكملتْ عملها.

طوال أيام تكرّرت الزيارات كل مساء، أصبحتُ وجهاً مألوفاً، وزاد يقيني بأنّ هذه القرية الصغيرة هي القطعة الأجمل من أحجية المحيط الأطلسي.

لم تكن فارهة، ولا تحتوي على أسواق، أو وجوه كثيرة، كانت مجتمعاً من الصيادين فقط، مجتمعاً قديماً رغم بساطته، تحدّث والد العائلة ليلة -بعد أن صرتُ صديق العائلة- ونحن نجلس على الكثيب الأبيض:

- هذه القرية حسب ما يقول الناس قديمة قدم البحر، يأتي إليها الناس من كلّ مكان، فهي مكان مبارك دعى له الشيخ الحضرمي بالهناء!

عجبتُ من معرفة الرجل بالشيخ الحضرمي، لكنّه دفين الشاطئ وولي سره على كل حال، ما لم يقله الرجل وعرفته لاحقاً، أن هذه القرية كانت منذ قرون مكاناً للهاربين من سطوة المجتمع، كانت لأجوائها الأطلسية الباردة مكاناً لا يطرقه البدو، فأصبحت منعزلاً لكل هارب بدينه أو حياته، في العهد الفرنسي جعل منها الفرنسيون محمية للهاربين من الرق، ولهذا اختلطتْ فيها الأعراق، حتى هذه العائلة الملوّنة بشكل لافت تؤكّد هذه النظرية.

كنتُ أتأمّل البحر من مكان عملي، فلا أسمع إلا صخب أمواجه، وعويل الرياح العطشى حين تأتي من جحيم الصحراء، ما كان هنالك شيء أقوى لجعل المرء يراجع تراكم أيامه من ذلك.

في ذلك المكان أمضيتُ أشهراً، أنقّب في ذاكرتي، وأخيراً لأنّني وجدت المكان والسعة في الوقت والنفس، ولأنني بشكل أهم أصبحت مهيأ، رأيت الحقيقة التي طالما بحثتُ عنها!

إنّ البساطة في العيش والتفكير يقودان إلى الراحة، والراحة هي الحقيقة، ليست هناك كتلة بيضاء تسمى الحقيقة، بل هنالك حالة من الانسجام والتناغم بين التفكير والنفس قد تكون أفضل كنه للحقيقة.

إنّ الدين الذي أجهدت نفسي كثيراً في تصوّره كان بسيطاً للغاية، كان قِيما كما وصف نفسه، أما حين نطبّقه فعلينا أن نحرص ألّا يتنافى مع قِيمه.

كنتُ قلقاً لأنّ تنقّلي بين السلفية و الأفكار الأخرى لم يقدّم إلي شيئاً صلباً أمسك به، وكان علي

أن أجده، ليس هنالك ما يمكن أن يمسكه المرء إلا تم استخدامه بشكل سيئ، الإنسان مولع بتحريك الأشياء والانتفاع منها، لكنّ القيم الكبرى في الكون تمنعه من العبث بكل شيء، وهذا ما يدعوه إلى تأويلها.

هنا، أدركتُ أن تسامح القرية الأطلسية هذا طوّح بكلّ ما يتشدّق به المتدينون، لم أجد لديهم رجل دين، ولم أجد ثمة ملحداً، إنّهم صيادون فحسب، يؤمنون بالله ويحترمون البحر، يتقبّلون الآخرين كما يقدّمون أنفسهم، و يستمتعون بالحياة.

ما كان الإسلام الذي تأملته هناك سلفياً يحفل بالنصوص القطعية واضحة الدلالة، ولا صوفياً مؤولاً، ولا شيعياً يركن إلى إمام منتظر، لم يكن شيئاً تسوّره الخصومات، ولا تثقله التقاليد القبلية و (المناطقية)؛ بل كان تسامحاً ومُضِياً في الحياة.

إن التسامح هو ما يحكم صحة إيمان الناس، وكذلك السلوك الجيّد، لأن الزخم النظري حول العقيدة لا يرفع شأن أحد، بل قد يطوّح بقيم التسامح التي هي أوضح ما أمر به الإسلام.

أصبحتُ مؤمناً أن الفِرَق التي ظهرت في تاريخ الإسلام كانت نتيجة لضياع القيم الأساسية السلمية السمحة للإسلام، مما حدا في عصور الاحتراب إلى أن يعاد النظر في تلك القيم، لأنّها لاتسمح بالتشظي والاحتراب، بل بالإصلاح والمحبة، ولذلك أيضاً تمت إعادة فهم الإسلام من منطلق المتغيرات المؤقتة.

منذ تلك الأوقات المرّة التي أسّست للقطيعة، أصبح ما قاله فقهاء تلك الحقبة أصلاً، بل نصاً موازياً للقرآن، حتى تم تعطيل القرآن تماماً حين أصبح بأمسّ الحاجة إلى من يقدم معناه بشكل حصري.

الكلّ أسّس على القرآن، والكلّ يدّعي أنّه قادر بشكل استثنائي على قراءته، ولكنّ الطريق واضح في الأساس، فقد جاء هذا الدين ليعم السلام، وتنتهي الخصومة، ويحرّر الناس من أوهامهم.

كان ما هو ثابت في الاسلام يؤكّد كلّه على التسامح، بينما ركّز السيئون لاحقا على ما هو متغيّر كآيات القتال والاعتزال.

أما الوطن فهو مسألة أخرى، إنّه ليس قطراً كما يصوره التلفزيون الحكومي، ليس خرقة تحمل ألواناً، ليس خريطة تشبه حيوان الراكون جالساً، وليس بالضرورة هو المكان الذي مات فيه الأجداد؛ ليس شيئاً من ذلك كله، إنّه المكان الذي تجدُ فيه أنثاك، وأصدقاء، ودخلاً بسيطاً.. أو كبيراً، نعم ذلك فقط، وقد لا يكون أكبر من قرية!

قد لا يكون وطناً لأبنائك أيضاً، قد يصدأ فتبحث عن وطن آخر، وقد لا تجده مطلقاً.

لا يكون الوطن على نحو حقيقي كأرخبيل من المدن الغريبة والناس الغرباء، الغرباء هم سكان الكوكب الآخرين، أما وطنك فلا يسكنه إلا أصدقاؤك.

الوطن الحقيقي لا يطلب من أحد أن يموت من أجله، أو أن يدفع فلساً لأجله، أو أن يشقى بسببه؛ ذلك هو الجحيم.

أما الوطن فهو أكثر طهراً وأقلّ نفعية، فهو خُلق لي، ولم أخلق له، عليه أن يسعدني، وإن لم يفعل فليس هو هو.

يختلط بعض الأحيان وجه الوطن، فيحاول بعض الناس أن يُلبس وجهه لحاكم، أو ينظر إليه كإله؛ تماماً كالدّين حين يحاول أحدهم أن يلبسه لآخر، لكن كلا الأمرين خلقا ليجعلا حياة الإنسان أكثر سعادة.

من يشعر أن الدين عبء عليه فله أن يتركه، ومن يشعر أن الوطن يكلّفه شيئاً فعليه أن يهجره، كلا الأمرين مريح تماماً، أن تمارس الدين بسماحة، و تعيش في الوطن براحة!

لا تثقلك الخريطة الهائلة للوطن، لا تشعر بالانتماء إلى كلّ أبله رمت به الأرحام في الجوار، لا تثقلك الحواشي المكتوبة حول المعابد.

هناك استرحت من عائلتي، من تاريخها المنكود في التنقّل بين فوهات الجحيم، بقيتُ على إعجابي بجدّتي في كفاحها من أجل الحرية، وأصبحتُ أشعر بالسخرية من حالتي التي طافت بي حين تهتُ عن الوطن، حين اتجهتُ إلى المكان الخطأ، وكم كان ذلك مضحكاً بشكل طريف.

الآن أنا والرباط نؤسس عائلة على ضفاف المحيط! نمسكُ بآخر خيوط الشمس الغارية في الأطلسي، ونترقب بزوغها كل صباح، وأحياناً نعبث بجهاز الإرسال فنغنّي للبحارة.

الآن أبني عالمي الخاص، في أرض خاصة، لا يرغب فيها أحد، وهي أرض لا تخبر أحداً عن وجودها أيضاً.

منذ سنوات قليلة وحين درج ابني يحيى على الشاطئ الأبيض، اكتشفتُ أنّ هنالك جزيرة تظهر في فصل الشتاء من عتمة المحيط، حين تقل مياه المحيط، تبدو أعشابها الطويلة بادية للعيان، وينحسر البحر في يناير كي يصبح الطريق يبساً إلى تلك الجزيرة.

إنّها جزيرة خالية من أشكال الحياة الإنسانية، فكلّ ما هنالك رمال بيضاء، وسلاحف وطيور مهاجرة و فقمات عابرة، لكنّها توسعة جديدة في الوطن، شعرتُ أن مملكتنا تتسع، قد نكون أنا والرباط من اكتشف هذه الجزيرة، لذلك وهبناها اسماً، فسميناها: المخفيّة!

تمتّعت كثيرا صحبة الرباط ويحي باكتشافها، فقد كنا نعبر البرزخ الصغير، ثم نخوض في المياه الساكنة حتى صدورنا، نحمل يحي على عوامة ندفعه أمامنا، ونصل إلى مملكتنا الصغيرة.

ما أروع ذلك المكان حين نوقد ناراً صغيرة في أقصى الحيد الصخري، ونشوي ما جلبناه أو نصطاد سمكاً لكأنّما يأتي إلينا شرّعاً في جزيرتنا المجهولة.

نجوب أرجاء الجزيرة المقفرة، ونراقب الفقمات والطيور وهي تحضن صغارها، لم نجلب أحداً إلى هذه الجزيرة لأسابيع، ولم نبلغ أحداً باكتشافها لأسابيع أيضاً، وحين أفشينا السر تبيّن أن تلك القطعة من الفردوس ليست خاملة الصيت مطلقاً.

ظهر جلياً أنّنا لم نكتشفها، فقد كانت مكاتب السياحة على علم بتلك التحفة الموسمية.

سرعان ما بدأت السيارات تتوافد من نواكشوط إلى الشاطئ كل أسبوع حاملة الأوروبيين، ومعدات التخييم، يقومون بالعبور خوضاً في الماء الضحل ليمضوا أوقاتاً هناك.

وجدنا الأمر مزعجاً، واقترحت الرباط أن نحضر بعض الأشياء لبيعها للسواح.

ذات صباح جاءت مجموعة من السياح الأوروبيين، يتقدّمهم شاب متحذلق، أخذ في النظر إلينا كحيوانات بحرية، اقتربتُ منه لأعرف لم يشير إليّ، لكنه كان يمدّ إصبعه إلى أرجاء الجزيرة ويقول:

هذه هي «تيدره» جزيرة المرابطين، هنا أسس الشيخ المهاجر (عبد الله) بن ياسين و (يحيى) بن إبراهيم الكدالي تلك الدولة التي قامت على الرباط المقدس فوق الأرض، ووصلت أوروبا، والتي سمّيت «دولة المرابطين» واسم هذه الجزيرة القديم هو «تيزيريت» في اللغة الصنهاجية، وهي كلمة بربرية تعني: الرباط!

# Notes

[1←]
**الشيخ محمد أمان علي الجامي.**

[2←]
**الأشعرية هي مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري في العقيدة وجمهور العلماء في عصر التدوين الإسلامي، وتشكل إضافة إلى «الماتريدية» و «فضلاء الحنابلة» المدارس السنية الرئيسة في العقيدة.**

[3←]
**ورد هذا الوصف في أحاديث تروى عن أنس بن مالك وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وهناك لغط كبير حول صحة هذه الأسانيد كلها!**

[4←]
**من دروس الشيخ عطية محمد سالم في شرح بلوغ المرام بالمسجد النبوي في المدينة المنورة عام 1994م.**

[5←]
**من نص محاضرة بعنوان (درجات إنكار المنكر) للشيخ محمد المختار الشنقيطي.**

[6←]
**نباتات برية: (أصباي) السافانا.**

[7←]
**(أم ركبة) حشائش الثمام.**

[8←]
**(تورجه أو انتورجه) العشر واليتوع.**

[9←]
**كلمات حسانية: (البجوان) الركبان.**

[10←]
**(الملازم) الحسي الموسمية.**

[11←]

(آمجاليد) حزمة من لحاء الشجر أو عيدانه تستخدم كمضرب..

[12←]
انجمينا، عاصمة جمهورية تشاد الحالية، أسسها الفرنسيون في 29 مايو1900 وسموها على القائد الاستعماري فرونسوا لامي الذي قُتل في معركة كوسيري في العام نفسه.

[13←]
منظومة «إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة» للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الْمَقَّرِيُّ التلمساني (992- 1041هـ) «صاحب موسوعة نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، وهي منظومة تعتبر من الكتب المعتمدة لدى المدرسة الأشعرية المالكية.

[14←]
رسالة «قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد كفرهم» لابن تيمية، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الزير.

[15←]
مسحوق الملوخية المجففة.

[16←]
«الركاب» وهو ركاب الخيل رمز للقبائل المحاربة، و «الكتاب» رمز لقبائل الزوايا العالمة.